الدكتور الشيخ عدنان فرحان آل قاسم

تاريخ الحوزات العلمية

والمدارس الدينية عند الشيعة الإمامية

الجزء الثاني

تاريخ حوزة بغداد والكاظمية

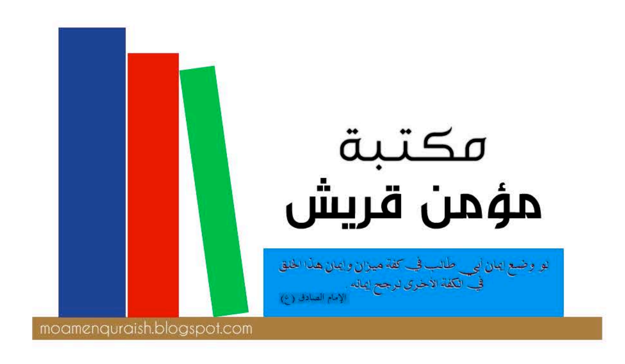
قدم له

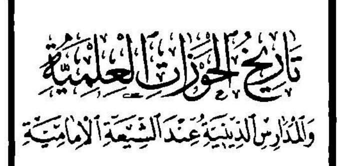
آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي

آية الله الشيخ علي رضا الأعرافي

شركة دار السلام
بيروت - لبنان


تاريخ الحوزات العلمية
والمدارس الدينية عند الشيعة الامامية
تاريخ حوزة بغداد والكاظمية



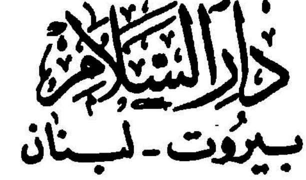


الطبعة الأولى
1436هـ - 2016 م

توزيع



009613210986
009611547698
009647813111272
iraqsms@gmail.com



لبنان: 009611472192 -009613461595
العراق: 009647802150376
E-mail:daralsalamco@hotmail.com

الدكتور الشيخ عدنان فرحان آل قاسم



بحث تاريخي في نشأة الحوزات العلمية
والمدارس الدينية عند الشيعة الإمامية
منذ نشأتها الأولى حتى نهاية القرن الرابع عشر الهجري

الجزء الثاني

تاريخ حوزة بغداد والكاظمية

قدما له

آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي   آية الله الشيخ علي رضا الأعرافي


بسم الله الرحمن الرحیم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

التوبة: ١٢٢

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

هذا هو الجزء الثاني من موسوعة تاريخ الحوزات العلمية والمدارس الدينية عند الشيعة الإمامية.

وقد تضمّن الجزء الأول من هذه الموسوعة ـ بعد المقدمة والمدخل ـ تاريخ مدرسة الرسول الأكرمﷺ وأهل البيت(عليهم السلام) في مكة والمدينة والكوفة، وهي المرحة التأسيسية للبناء العلمي للحوزات العلمية؛ ومنها تبرعمت وأثمرت الحوزات العلمية الأُخرى.

ويتضمن الجزء الثاني الذي بين يديك أيها القارئ الكريم، تاريخ الحوزة العلمية في مدينة السلام بغداد، منذ تأسيسها سنة (١٤٩ هـ)، إلى هجرة الشيخ محمد بن الحسن الطوسي عنها سنة (٤٤٨ هـ)، واستقراره في مدينة النجف الأشرف.

وجاءت مباحث هذا الجزء في فصلين وخاتمة؛ تضمن الفصل الأول: تاريخ الحوزة العلمية في بغداد في دورها الأول، وضمن ثلاث مباحث رئيسية:

المبحث الأول: نشأة المدينة الإسلامية بغداد.

المبحث الثاني: منطلق الحوزة العلمية في بغداد.

المبحث الثالث: دور متكلمي الإمامية وفقهائهم في حوزة بغداد.

وتضمن الفصل الثاني: تاريخ الحوزة العلمية في بغداد في دورها الثاني، وضمن ثلاث مراحل أيضا:

المبحث الأول: أصحاب الحديث ودورهم في حوزة بغداد.

المبحث الثاني: الاتجاه العقلي عند القديمين (العماني والاسكافي).

المبحث الثالث: الشيخ المفيد وتلامذته ودورهم في حوزة بغداد.

وأما الخاتمة فقد تضمنت تقويم عام لحوزة بغداد منذ تأسيسها وإلى هجرة الشيخ الطوسي عنها، وضمن محاور ونقاط مختصرة ومحددة.

أسأل اللّه تعالى أن يتقبل منا هذا الجهد الذي بذلناه بقبوله الحسن، وأن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به طلّاب العلم والمعرفة، إنه سميع مجيب.

وما توفقيقي إلّا باللّه عليه توكلت وإليه أُنيب.

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين.

الدكتور الشيخ

عدنان فرحان القاسم (أبو أنس)

مدينة قم في ١٤ / شوال / ١٤٣٤ هـ

٢٢ / ٨ / ٢٠١٣

الحوزة العلمية في بغداد نشأتها وأدوارها

الفصل الأول:

الحوزة العلمية في بغداد من النشأة

إلى نهاية عصر الغيبة الصغرى

الدور الأول: دور التأسيس والتبرعم

المبحث الأول: نشأة المدينة الإسلامية (بغداد)

المبحث الثاني: منطلق الحوزة العلمية في بغداد

المبحث الثالث: دور متكلمي الإمامية وفقهائهم في ارساء قواعد مدرسة أهل البيت في بغداد.

١ـ آل يقطين. ٢ـ هشام بن الحكم. ٣ـ يونس بن عبد الرحمن. ٤ـ السَّكاك البغدادي. ٥ـ الفضل بن شاذان. ٦ـ محمد بن أبي عمير. ٧ـ النّوبختيون. ٨ـ السفراء الأربعة.

المبحث الأول: نشأة المدينة الإسلامية

بغداد: «مدينة السلام، وعاصمة الإسلام، ومأوى العلم والعلماء»[1] هكذا عُرفت بغداد.

لقد اتفق أهل اللغة والمؤرخون على أنّ لفظ (بغداد) أعجمية، واختلفوا في تفسيرها، فقيل إنها تعني (بستان رَجُل) فباغ بستان وداد اسم رجل... وقيل: (بغ) هو البستان، و (داد) أعطى... وقيل غير ذلك[2].

ولا يهمنا كثيرا تفسير ذلك، بعد أن أسهب فيه علماء اللغة والمؤرخون. فبغداد، عاصمة الدولة العباسية؛ بعد أن كانت الكوفة عاصمتهم أول الأمر ثمّ بنوا مدينة على مقربة من الكوفة سمّوها (الهاشمية)، ثمّ أخذ أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس يفكر في نقل عاصمته إلى موطن آخر، «فبعث روّادا وهو بالهاشمية يرتادوا له موضعا يبني فيه مدينة.. فنعت له موضع.. فخرج إليه بنفسه حتى نظر إليه وبات فيه فرأى موضعا طيبا.. فقال: هذا موضع صالح للبناء.. فخطَّ البناء، وقدَّر المدينة، ووضع أول لبنة بيده فقال: بسم الله والحمد لله والأرض لله، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»[3].

---

(١) الراوي ـ طه، بغداد مدينة السلام: ٨، طبعة دار المدى ـ بغداد، ٢٠٠٤ م. وللتوسع أُنظر: الحموي، معجم البلدان: المجلد الأول، الجزء ٢ / ٣٦٣ وما بعدها، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، بلا ـ ت.

(٢) الحموي، معجم البلدان: ٢ / ٣٦٠ والبكري ـ عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، معجم ما استعجم: ١ / ٢٦٢، تحقيق: مصطفى السقا، طبعة مكتبة الخانجي ـ القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م.

(٣) الحموي، المصدر نفسه: ٢ / ٣٦١.

وهنالك رواية طويلة يرويها الحموي عن (علي بن يقطين) يقول فيها: «كنت في عسكر أبي جعفر المنصور حين سار إلى الصراة يلتمس موضعا لبناء مدينة...»[1] وعلي بن يقطين، مولى بني أسد من أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام[2] وهو «كوفي الأصل بغدادي المسكن، روى عن أبي عبد الله حديثا واحدا، وروى عن موسى عليه السلام فأكثر»[3].

كذلك يذكر الحموي عن أبي سهل بن نوبخت، إنه قال: «امرني المنصور لما أراد بناء بغداد بأخذ الطالع، ففعلت فإذا الطالع في الشمس وهي في القوس، فخبرته..»[4] وكلا الرجلين، (ابن يقطين، وابن نوبخت) من علماء الشيعة، مما يعني حضور الشيعة المبكر في بغداد، وقربهم من مركز القرار الرئيسي الذي يمثله الحاكم العباسي المنصور ومن بعده هارون الرشيد حيث ادركا عصره، «وكان أبو سهل بن نوبخت في بيت الحكمة، لهارون الرشيد»[5].

لقد ابتدأ المنصور بحفر الأساس لمدينة بغداد سنة (١٤٥ هـ)، وفي سنة (١٤٩ هـ) تمَّ بناؤها وجميع مرافقها[6].

ولبغداد منذ نشأتها وإلى يومنا هذا تاريخ طويل حافل بالأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والفكرية... سجل تفاصيلها وباسهاب أكثر من مؤرخ ومحدِّث وكاتب، ويعتبر كتاب (تاريخ بغداد) للحافظ أحمد بن علي الشهير بالخطيب البغدادي المتوفى سنة (٤٦٣ هـ)، من أهم وأكبر المؤلفات التي اسهبت في

---

(١) الحموي، معجم البلدان: ٢ / ٣٦٢.

(٢) الطوسي، الرجال: ٣٤٠.

(٣) النجاشي، الرجال: ٢٧٣.

(٤) الحموي، معجم البلدان: ١ / ٣٦٣.

(٥) ابن النديم، الفهرست: ٣٣٣.

(٦) الراوي ـ طه، بغداد مدينة السلام: ١١.

تفاصيل الحياة الفكرية والثقافية لهذه المدينة.

لقد احتوى كتاب تاريخ بغداد على (٧٨٣١) ترجمة للمحدثين وأرباب العلوم الأُخرى، ورجالات المجتمع والدولة الذين عاشوا ببغداد أو زاروها منذ إنشائها حتى عصره الذي توفي فيه وهو النصف الثاني من القرن الخامس الهجري.

والذي يهمنا من تاريخ بغداد الحافل بالنشاط والحركة، هو الناحية العلمية والثقافية والفكرية بشكل عام، والنشاط العلمي والثقافي والفكري للشيعة الإمامية بشكل خاص، إذ «تظهر أهمية تاريخ بغداد من ناحية الحياة الثقافية في أنه يكشف عن طرق التدريس ومناهج العلماء، وعلاقتهم مع تلامذتهم، وتراثهم العلمي، والتعريف بالمدارس التي انتشرت في القرنين الرابع والخامس. وكذلك الحلقات العلمية ومجالس العلماء في المساجد للحديث والتدريس. كذلك يعكس تاريخ بغداد نشاط العلماء ومدى اتصال الحركة الفكرية في المدن الإسلامية ببعضها البعض، وذلك عن طريق ذكره رحلة العلماء في طلب العلم...».

لقد ازدهرت بغداد علميا حتى أضحت قبلة عشاق العلم والمعرفة، «فقصدها طلّاب الحديث من أقاصي المشرق والمغرب، فكان الاتصال بين بغداد والمدن الأُخرى، فازدهرت الحركة الفكرية ببغداد، وساعد على ازدهارها وجود المكتبات العامة والمدارس الخاصة بالفقه وعلوم القرآن والحديث..».

لقد توج النشاط العلمي ببغداد «نشاط المحدثين فيها بحيث تتضاءل جهود أرباب العلوم الأُخرى أمامهم، وقد ارتفع شأن المحدثين ببغداد بعد تأسيسها بفترة وجيزة، واستمرت تنجب أعلام المحدثين على مرِّ القرون»[1].

فكان أول الوافدين إليها من أعلام علماء السنة ومن أئمة المذاهب الإمام أبو حنيفة

---

(١) البغدادي، تاريخ بغداد، المقدمة التحقيقية بقلم: مصطفى عبد القادر عطا: ٤ ـ ٥ و ٢٢، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م.

النعمان، بل إنه «كان في جملة من يشرف على العمل (البناء)، فقد كان ينظر في أمر تسليم الأجر، قالوا: وكان يعد اللبن بالذراع بعد أن يأمر برصفه رصفا معينا..»[١].

وينقل الحموي عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال: «قال لي محمد بن إدريس الشافعي أيا يونس دخلتَ بغداد، فقلت: لا، فقال: أيا يونس: ما رأيت الدنيا ولا الناس»[٢].

وهذا يعني أنّ الإمام الشافعي قد زار بغداد وأقام بها مدّة يعتد بها قدرها بعضهم بسنتين[٣] بالاضافة إلى أعلام المحدثين على مرّ القرون، من أمثال أحمد بن حنبل امام مذهب الحنابلة، ويحيى بن معين، والدار قطني، والأزهري»[٤].

وكذلك وفد إليها وحدَّث بها من أعلام الشيعة ومحدثيهم الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩ هـ).

وكذلك حدث بها الشيخ الصدوق محمد علي بن الحسين بن موسى بن بابويه (ت ٣٨١ هـ)[٥] كما سوف يأتينا تفصيله لاحقا.

وخلاصة الأمر، إنّ بغداد ومنذ نشأتها عرفت بالعلم والعلماء بالاضافة إلى أوجه الحياة الأُخرى، وفي سياق البحث سوف نتعرف على المناحي العلمية، ومجالس المناظرة، والتراث العلمي الذي خلفته لنا مدرسة بغداد وحوزتها العلمية.

---

(١) الراوي ـ طه، بغداد مدينة السلام: ١١.

(٢) الحموي، معجم البلدان: ١/ ٣٦٥.

(٣) أبو زهرة ـ محمد، الشافعي حياته وعصره: ٢٤ طبعة دار الفكر العربي ـ القاهرة، الطبعة الأُولى، د ـ ت.

(٤) البغدادي، تاريخ بغداد، المقدّمة: ٤ ـ ٥.

(٥) النجاشي، الرجال: ٢٦١، ٣٨٩.

المبحث الثاني: منطلق الحوزة العلمية في بغداد

لقد اقترن تأسيس بغداد بحضور مكثف وفاعل لاقطاب علماء الإمامية، حيث «استقطبت مدرسة بغداد العلمية أعلام المَصْرَين (البصرة والكوفة) فيقول أبو بكر ابن عياش الكوفي: «الإسلام في بغداد وإنها لصياد تصيد الرجال»[1] وأصبحت حاضرة الإسلام، وملتقى الأعلام، حتى إنها فرضت نفسها على مدينتي البصرة والكوفة...»[2].

وحضور أهل البيت عليهم السلام في بغداد حضور قديم يسبق تأسيس بغداد بعقود من الزمن، بحسب ما ورد في بعض النصوص التاريخية من أن «الإمام علياً عليه السلام قد ورد قرية براثا وصلّى في مسجد جامعها، واغتسل بالقرب منه في قدومه لحرب الخوارج سنة (٣٧ هـ) فأصبح لبراثا شأن كبير بسبب هذا الجامع الذي يعده الشيعة من المواضع المقدّسة»[3].

ويذكر الخطيب البغدادي الإمام علياً عليه السلام على رأس قائمة الصحابة الذين وردوا بغداد فيترجم له ويذكر بعض فضائله ويقول: «وفضائله أكثر من أن تحصى، وكان ورد المدائن في طريقه لما قاتل الخوارج بالنهروان ولما خرج إلى صفين أيضا...» كما ويذكر سيدي شباب أهل الجنة: الحسن والحسين عليهما السلام في ضمن قائمة الصحابة الذين وردوا بغداد[4].

وفي بعض المؤلفات الحديثة أنّ الإمام الصادق عليه السلام قد وردها أيام المنصور

(١) البغدادي، تاريخ بغداد: ١ / ٤٧.

(٢) الحكيم ـ حسن، تاريخ الكوفة: ٢٢٨.

(٣) الأمين ـ حسن، دائرة المعارف الشيعية: ٨ / ١٢.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١ / ١٣٨ ـ ١٤٣.

العباسي[1]، كما مرَّ بنا سابقا كما أن الانتهاء من بناء مدينة بغداد سنة (١٤٩ هـ) وانتقال المنصور العباسي إليها قد اقترن مع امامة الإمام موسى بن جعفر الكاظمعليه السلام الذي خلف والده الإمام الصادقعليه السلام والذي توفي بالمدينة سنة (١٤٨ هـ) ودفن فيها بجوار والده الإمام الباقرعليه السلام.

وفي زمن خلافة هارون الرشيد حمل الإمام موسى بن جعفرعليه السلام إلى بغداد، وقضى فيها أواخر أيام حياته، واستشهد في سجونها سنة (١٨٣ هـ) ودفن في مقابر قريش والتي أصبحت تعرف الآن بمدينة الكاظمية.

وقد ترجم لهعليه السلام الخطيب البغدادي ترجمة وافية فقال: «.. وأقدمه المهديّ بغداد، ثمّ ردّه إلى المدينة وأقام بها إلى أيام الرَّشيد، فقدم هارون منصرفا من عُمرة شهر رمضان سنة تسع وسبعين فحمل مُوسى معه إلى بغداد وحبسه بها إلى أن توفي في محبسه»[2].

ويذكر بعض الكتّاب أنّ الإمام الرضا علي بن موسىعليه السلام قد وفد على بغداد «واشتغل الإمام عليّ الرضا مدّة بقائه في بغداد وهي ثمان سنوات بالتدريس»[3] إلّا أنّ مصدر هذه المعلومة غير واضح وما ذكره لا يعول عليه.

كما أنّ حفيد الإمام موسى، الإمام محمد بن علي الجوادعليهما السلام قضى السنوات الأخيرة من حياته في بغداد بعد أن حمل إليها سنة (٢١٨ هـ) إلى حين وفاته فيها سنة (٢٢٠ هـ) حيث دفن إلى جنب قبر جدّه الإمام موسىعليه السلام[4].

---

(١) المظفر ـ محمد حسين، الإمام الصادقعليه السلام: ١ / ١٣٠.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٣ / ٢٩ وما بعدها.

(٣) القزويني ـ علاء الدين، الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية: ٢٨٤.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٣ / ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

كما أنّ الإمام علي بن محمد الهادي وولده الحسن بن علي العسكريعليهما السلام قد حملا من المدينة إلى بغداد، ومنها إلى سرَّ من رأى، وبأمر من المتوكل العباسي، وقضى كلٌّ منهما في سامراء بقية حياته، واستشهدا ودفنا فيها[1].

وبوفاة الإمام الحسن بن علي العسكريعليه السلام انتقلت الإمامة لولده الإمام المهديعليه السلام، وبامامتهعليه السلام بدأ عصر الغيبة الصغرى والتي برز فيها دور السفارة بين الإمام وشيعته، وبواسطة السفراء الأربعة، والتي تمتد إلى أربع وسبعين سنة، أو تسعا وستين عاما، وبوفاة السفير الرابع علي بن محمد السمريرحمه الله وعدم نصب غيره بدأت الغيبة الكبرى سنة ثلاثمائة وتسع وعشرين، أو ثلاثمائة وثمان وعشرين، بحسب الاختلاف في تحديد ابتداء الغيبة للإمامعليه السلام[2].

هذه الصورة الاجمالية لحضور بعض أئمة أهل البيتعليهم السلام إلى بغداد، وخاصة الإمامين الكاظمينعليهما السلام وكان لحضورهم أثر علمي تحدثنا عنه في بعض البحوث السابقة.

إلّا أنّ هذا لا يعني وجود معلومات دقيقة عن تاريخ تأسيس المراكز التعليمية لتدريس المعارف الشيعية في بغداد، والتي اصطلحنا عليها بمصطلح: (الحوزات العلمية) إلّا أ نّه ومن خلال مطالعة تراجم بعض أعلام الشيعة ومتكلميهم، يتضح لنا أن للشيعة في بغداد حضورا علميا وتعليميا فاعلاً منذ تأسيس بغداد وإلى منتصف القرن الخامس الهجري.

فلابدّ لنا من الوقوف على تراجم أبرز أُولئك الأعلام لنكوّن صورة ولو اجمالية عن

---

(١) الأمين، أعيان الشيعة: ٢ / ٥٣٣، ٥٧٥. وأُنظر الخطيب البغدادي: ٧ / ٣٧٨ و ١٢ / ٥٦.

(٢) الأمين، المرجع نفسه: ٢ / ٥٩٦، وأُنظر الصدر ـ محمد، تاريخ الغيبة الصغرى: ٤١٦.

أوجه النشاط العلمي في الفترة التي سبقت الظهور العلمي لاقطاب مدرسة بغداد الثلاثة (المفيد، والمرتضى، والطوسي) وهي فترة زمنية تمتد إلى منتصف القرن الخامس الهجري تقريبا.

وسوف نركز بحثنا على الدور الذي قام به كل واحد من أُولئك الأعلام.

المبحث الثالث: دور آل يقطين وهشام بن الحكم، والنوبختيين والسفراء الأربعة.. في ارساء التشيع وحركته العلمية ببغداد

أولاً: آل يقطين علي بن يقطين

له ترجمة مطولة عند الكشي مع ذكر مروياته كذلك ترجم له النجاشي، وقال عنه الشيخ في الفهرست: «علي بن يقطين، ثقة، جليل القدر، له منزلة عظيمة عند أبي الحسن موسى عليه السلام، عظيم المكانة في الطائفة.

وكان يقطين من وجوه الدعاة (أي للدولة العباسية) فطلبه مروان فهرب، وابنه علي بن يقطين ولد بالكوفة سنة أربع وعشرين ومائة، وهربت أمّ علي به وبأخيه عبيد بن يقطين إلى المدينة، فلما ظهرت الدولة الهاشمية، ظهر يقطين، وعادت أُم علي بعلي وعبيد، فلم يزل يقطين في خدمة أبي العباس وأبي جعفر المنصور، ومع ذلك كان يتشيّع، ويقول بالإمامة وكذلك ولده، وكان يحمل الأموال إلى جعفر بن محمد عليه السلام، ونمَّ خبره إلى المنصور والمهدي فصرف الله عنه كيدهما».

وتوفي علي بن يقطين بمدينة السلام سنة اثنتين وثمانين ومائة، وسنّه سبع وخمسون سنة... وتوفي أبوه من بعده سنة خمس وثمانٍ ومائة.

ولعلي بن يقطين كتب، منها: كتاب ما سئل عنه الصادق عليه السلام من الملاحم، وكتاب مناظرة الشاك بحضرته، وله مسائل عن أبي الحسن موسى، وأخبرنا بكتبه ومسائله أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان و...»[1].

---

(١) الطوسي ـ محمد بن الحسن، الفهرست: ٢٧٠ ـ ٢٧١، تحقيق: السيّد عبد العزيز الطباطباني، اعداد مكتبة الطباطباني، الطبعة الأُولى، ـ قم، ١٤٢٠ هـ

من خلال ترجمة الشيخ لعلي بن يقطين، بالاضافة إلى بعض المرويات الأُخرى من روايات الكشي، تتضح لدينا بعض الخطوط التفصيلية عن شخصية ابن يقطين ودوره في نشر التشيع ومذهب أهل البيت عليهم السلام، ويمكن أن نلخص ذلك ضمن النقاط التالية:

أولاً: وثاقة الرجل ومكانته عند الإمام الكاظم عليه السلام:

وتتفق كلمات المترجمين له على وثاقته، بل إن للرجل منزلة عظيمة عند الإمام الكاظم عليه السلام وسجلت للإمام كلمات بحقه لم تصدر مثلها بحق غيره من معاصريه، فقد روى الكشي: «أنّ أبا الحسن قد ضمن له الجنة» وفي رواية أُخرى إنّ الإمام عليه السلام وضع يده على صدره ثمّ قال: «ضمنتُ لعلي بن يقطين ألّا تمسه النار»[1]. إلى غيرها من الروايات الكثيرة في وثاقة الرجل وعلو منزلته.

ثانيا: إنه كان من أهل العلم والفقه:

وهذا ما نص عليه الشيخ المفيد في الإرشاد، حيث عدّه ممن روى النص على الرضا علي بن موسى عليه السلام بالإمامة من أبيه، من خاصته، وثقاته، وأهل الورع والعلم والفقه من شيعته[2].

ويشهد للرجل تراثه العلمي الذي خلفه والذي أشار إلى بعض منه الشيخ الطوسي، وابن النديم في الفهرست[3]. ورواها الشيخ المفيد عمن حدّثه بها من الثقاة.

---

(١) الكشي، الرجال: ٤٣٠ ـ ٤٣١.

(٢) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٢ / ٢٤٧ ـ ٢٤٨ طبعة مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

(٣) ابن النديم، الفهرست: ٢٧٩ تحقيق: رضا تجدد.

ثالثا: إنه كان وزيرا للعباسيين فخدم التشيع والشيعة من خلال منصبه:

يقول السيّد الأمين في الأعيان في ترجمة علي بن يقطين: «ولما كانت لوالد المترجم منزلة سامية لدى الدولة العباسية أول أمرها حيث كان داعيا لهم، كانت لعلي ولده فوق تلك المنزلة أيام عصرها الذهبي، حيث اتخذه الرشيد وزيرا له، وكان على صلة وثيقة بالإمام موسى الكاظم عليه السلام يعمل بارشاده على اغاثة المظلومين حتى قال فيه: «يا علي: إنّ للّه أولياء مع أولياء الظلمة ليدفع بهم عن أوليائه، وأنت منهم يا علي»»[1].

وبحسب ما تحكيه الروايات فإن علي بن يقطين رحمه الله كان يغدق على الشيعة من الأموال ويوسع عليهم، ويبعث الكثير منهم إلى الحج بعد أن يجهزه بما يحتاج إليه، ففي رواية سليمان بن الحسين كاتب علي بن يقطين، قال: أحصيت لعلي بن يقطين من وافى عنه (يقصد الحج) مائة وخمسين رجلاً، أقلّ من أعطاه منهم سبعمائة درهم، وأكثر من أعطاه عشرة آلاف درهم[2].

وفي رواية إنّ ابن يقطين كان يأمر الجباة بجباية أموال الشيعة في العلانية، ويردّ عليهم في السر[3].

رابعا: إنه كان مصدرا ماليا مهما للإمام الكاظم عليه السلام:

وقد مرّ بنا سابقا عبارة الشيخ في ترجمته لعلي بن يقطين: «وكان يحمل الأموال إلى جعفر بن محمد عليه السلام» ولمنصب الإمامة مستلزمات مالية لابدّ من تأمينها ليقوم

---

(١) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ٨ / ٣٧١، والرواية يرويها الكشي في الرجال: ٤٣٣.

(٢) الكشي، الرجال: ٤٣٧.

(٣) المصدر نفسه: ٤٣٥.

الإمام(ع) بوظائف الإمامة، وخاصة مع تضييق السلطة العباسية في عصر الرشيد العباسي على الإمام(ع) فكانت الأموال تأتيه من شيعته سرا، وكان علي بن يقطين(رض) من أهم المموّلين للإمام(ع). ففي رواية الأشعري، أنّ أبا الحسن الأول(ع) قال: إني استوهبت عليّ بن يقطين من ربّي (عزّ وجل) البارحة، فوهبه لي، انّ علي بن يقطين بذل ماله ومودته، فكان لذلك منا مستوجبا. ويقال: إنّ علي بن يقطين ربما حمل مائة ألف إلى ثلاثمائة ألف درهم، وإنّ أبا الحسن(ع) زوج ثلاثة بنين أو أربعة، منهم أبو الحسن الثاني، فكتب إلى عليّ بن يقطين: إنّي قد صيّرتُ مهورهن إليك... فوجه إليه بما فرض عليه من مهورهن، وزاد ثلاثة آلاف دينار للوليمة، فبلغ ذلك ثلاثة عشر ألف دينار في دفعة واحدة»[1].

خامسا: كان يمثل حلقة الوصل الآمنة بين الإمام الكاظم(ع) في المدينة، وشيعته في بغداد:

لقد شدد الجهاز العباسي الرقابة على الإمام الكاظم وهو في المدينة، وكان الإمام بحاجة إلى حلقات ارتباط سرية بينه وبين الشيعة، وخاصة الذين يقطنون في الكوفة وبغداد، فكان علي بن يقطين أحد هذه الحلقات المهمة، ففي رواية الكشي عن رجلين.. قالا: بعث إلينا عليّ بن يقطين، فقال: «اشتريا راحلتين وتجنّبا الطريق ـ ودفع الينا مالاً وكتبا ـ حتى توصلا ما معكما من المال والكتب إلى أبي الحسن موسى(ع)، ولا يعلم بكما أحد. قالا: فأتينا الكوفة فاشترينا راحلتين وتزوّدنا زادا وخرجنا نتجنّب الطريق، حتى إذا صرنا ببطن الرمّة، شددنا راحلتينا ووضعنا لهما العلف وقعدنا نأكل، فبينا نحن كذلك، إذا راكب قد أقبل ومعه شاكريّ، فلمّا قرب منّا فإذا هو أبو الحسن

---

(١) الكشي، الرجال: ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

موسى عليه السلام فقمنا إليه وسلّمنا عليه، ودفعنا إليه الكتب وما كان معنا، فاخرج من كمّه كتبا فناولنا إيّاها، فقال: هذه جوابات كتبكم...»[1].

سادسا: كان راويا لأحاديث أهل البيت عليهم السلام حيث روى ١٨٧ رواية[2].

هذه أهم الأعمال التي تسجل لعلي بن يقطين، وهي خدمات جليلة خدم فيها مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وهي في بدايات حضورها وتكونها وصيرورتها في بغداد.

ولم أجد لأُخوة علي بن يقطين هذا الدور المهم سوى أ نهم من «أصحاب أبي الحسن عليه السلام»[3].

ثانيا: محمد بن عيسى بن عبيد بن يقطين بن موسى، الشهير بأبي جعفر العبيدي اليقطيني البغدادي

قال عنه النجاشي: «جليل في أصحابنا، ثقة، عين، كثير الرواية، حسن التصانيف، روى عن أبي جعفر الثاني عليه السلام مكاتبة ومشافهة.. سكن بغداد [في سوق العطش».

له من الكتب: كتاب الإمامة، كتاب: الواضح المكشوف في الردّ على أهل الوقف، كتاب المعرفة، كتاب بُعد الأسناد، كتاب قرب الاسناد، وكتاب الوصايا، الرجال، الزكاة..»[4].

وفي رجال الكشي عن علي بن محمد القتيبي، قال: «كان الفضل] ابن شاذان

---

(١) الكشي، الرجال: ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

(٢) الجواهري ـ محمد، المفيد من معجم رجال الحديث: ٤١٨.

(٣) الخوئي ـ أبو القاسم، معجم رجال الحديث: ١٣ / ٢٤٨، الطبعة الخامسة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

(٤) النجاشي، الرجال: ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

يحبّ العُبيدلي ويثني عليه ويمدحه ويميل إليه ويقول: ليس في أقرانه مثله». قال النجاشي معلقا على الرواية: «وحسبك هذا الثناء من الفضل رحمه اللّه»[1].

ويتضح من خلال هذه الترجمة المقتضبة أنّ الرجل من ثقات أصحاب الأئمة، ومن المدافعين عن الإمامة أمام التيارات المنحرفة (كالواقفة)، وإنه محل ثقة عيون أصحاب الأئمة الذين روى عنهم ورووا عنه.

ثالثا: هشام بن الحكم

لقد كان لهشام بن الحكم دور كبير في مدرسة الإمام الصادقعليه السلام في الكوفة، فهو المنقطع إلى الإمام، والمدافع عن الإمامة والمنظّر لها، وهو صاحب الجولات الواسعة مع علماء المذاهب الأُخرى، وله مناظرات معهم حيث كان يفحمهم بقوي حجته ومهارة استدلاله، ومناظرته مع امام المعتزلة في البصرة (عمرو بن عبيد) من أوضح مصاديقها، وقد أشرنا فيما سبق إلى بعض أوجه نشاطه في مدرسة الكوفة.

وأما دوره في مدرسة بغداد:

فقد بقي هشام متمسكا بخط الإمامة ومدافعا ومنظرا لها بعد وفاة الإمام الصادقعليه السلام وانتقال الإمامة إلى ولده الإمام موسى بن جعفر الكاظمعليه السلام حيث يعد هشام من أصحاب الإمام الكاظمعليه السلام.

ولا يقل دور هشام بن الحكم في مدرسة بغداد عن دوره في مدرسة الكوفة، فقد تردد على بغداد في بدايات تأسيسها ثمّ استقرّ فيها إلى أواخر أيام حياته، حيث انتقل منها إلى الكوفة وتوفي فيها سنة (١٧٩ هـ) بحسب رواية الكشي عن الفضل بن

---

(١) الكشي، الرجال: ٥٣٧، والنجاشي: ٣٣٤.

شاذان[1]. أو سنة (١٩٩) بحسب رواية النجاشي[2].

وتتفق كلمات المترجمين لهشام بن الحكم على أنه سكن بغداد وإن له دورا علميا وعقانديا كبيرا فيها، فهو «أصله كوفيّ ومولده، ومنشؤه بواسط،.. وتجارته ببغداد ثمّ انتقل إليها في آخر عمره ونزل عند قصر وضاح..»[3].

ولا يمكن لنا أن نحيط بكل تفاصيل النشاطات العقائدية، والكلامية للفترة الزمنية التي عاصرها هشام بن الحكم في بغداد ودوره الفاعل فيها، لتشعب هذه النشاطات وكثرة شواهدها، ولهذا سوف نقتصر على بعض المحطات المهمة منه لتلك النشاطات:

أولاً: تخصصه في علم الكلام:

لقد كان الخواص من أصحاب الإمام الصادقعليه السلام موسوعيين في معارفهم وعلومهم التي اِكتسبوها من مدرسة أُستاذهم الإمام الصادقعليه السلام فنجد فيهم الفقيه، والمحدث والمتكلم، إلّا أنّ جانب التخصص قد برز عند بعضهم، وكان الإمامعليه السلام يرعى هذا الجانب برعايته الخاصة، كما مرّ بنا سابقا.

لقد تخصص هشام بن الحكم في علم الكلام، والذي قوي وانتشر في الكوفة، ومنها انتقل إلى بغداد عاصمة الدولة العباسية، حيث: «ازدهرت ارجاؤها بحلقات العلم، ورجال الفكر، فكانت هناك خصومات وجدل ونزاع بين أصحاب المذاهب

---

(١) الكشي، الرجال: ٢٥٥.

(٢) النجاشي، الرجال: ٤٣٣.

(٣) المصدرين معا: ٢٥٥ و ٤٣٣.

المختلفة، وقد اتخذ كل فريق علم الكلام وسيلة للانتصار على خصمه»[1].

وكل من ترجم لهشام بن الحكم سجّل له تخصّصه في علم الكلام، فيصف ابن النديم هشاما بقوله: «.. من متكلمي الشيعة، ممن فتق الكلام في الإمامة، وهذّب المذهب بالنظر، وكان حاذقا بصناعة الكلام حاضر الجواب.. وكان منقطعا إلى يحيى بن خالد البرمكي، وكان القيّم بمجالس كلامه ونظره، وكان ينزل الكرخ من مدينة السلام»[2].

أما صاحب الملل والنحل فيصفه بقوله: «هشام بن الحكم، صاحب غور في الأُصول، لا يجوز أن يغفل عن الزاماته على المعتزلة، فإنّ الرجل وراء ما يلزمه الخصم، ودون ما يظهره من التشبيه»[3].

ويصفه الزركلي بقوله: «هشام بن الحكم، فقيه، متكلم، مناظر، من أكابر الإمامية»[4].

أما الدكتور أحمد أمين، فرغم موقفه السلبي من الشيعة وتحامله عليهم، إلّا أ نّه يصف هشاما بقوله: «أما هشام بن الحكم فيظهر أ نّه أكبر شخصية شيعية في علم الكلام، وكان من تلامذة جعفر الصادقعليه السلام وكان جَدِلاً قوي الحجة، ناظر المعتزلة وناظروه، ونقلت في كتب الأدب له مناظرات كثيرة، تدل على حضور بديهيته وقوة حجته...»[5].

---

(١) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ٣ / ٧٩.

(٢) ابن النديم، الفهرست: ٢٢٣.

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل: ١ / ٣١١.

(٤) الزركلي، الأعلام: ٣ / ١١٢٣.

(٥) أحمد أمين، ضحى الإسلام: ٣ / ٢٦٨.

ثانيا: براعته في الجدل والمناظرة:

يقول الشيخ عبد الله نعمة: «وتبرز شخصية هشام بالأدوار الكبيرة التي قام بها دفاعا عن الإسلام ونصرة التوحيد ودفع شبهة المخالفين، وفي تقرير المذهب الإمامي ومعارضته الفرق الأُخرى ولا سيما المعتزلة، فقد حمل عليهم وانتقد آراءهم، وناظر زعماءهم، ونجد ذلك بارزا في مناظراته مع شيوخ الفرق غير الشيعية، فقد ناظر عمرو بن عبيد، وأبا إسحاق النظام، وأبا هذيل العلاف، وضرار ابن عمرو الضبي، وعبد الله بن يزيد الأباضي، وسليمان بن جرير زعيم الزيدية، وسواهم في مسائل مختلفة»[1].

لقد كانت بغداد في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري مسرحا لمجالس المناظرة والجدل، وكانت هنالك حلقات علمية للمناظرة يقصدها الكثير من علماء المذاهب في ذلك العصر ممن عُرفوا بقوة المناظرة والاحتجاج، «وكان هشام يترأس مجلس المناظرة الذي كان يعقده يحيى بن خالد البرمكي مساء كل جمعة ببغداد، وهو يضم جميع علماء الفرق، ورؤساء الأديان، وأهل الآراء، فكانوا لا يخوضون في مسألة حتى يحضر هشام فيكون قوله الفصل، وحكمه العدل، وكان الرشيد يحضر ذلك المجلس من وراء الستار ـ في بعض الأوقات ـ يستمع لتلك المناظرات ويُصغي لتلك الأقوال»[2].

وعن الشيخ الصدوق قال: «وكان ليحيى بن خالد مجلس في داره يحضرهُ المتكلّمون من كل فرقة وملّة يوم الأحد، فيتناظرون في أديانهم، يحتج بعضهم على

---

(١) عبد الله نعمة، فلاسفة الشيعة: ٦٣٧، أُفست دار الكتاب الإسلامي ـ قم على الطبعة الأُولى، ١٩٨٧م.

(٢) أسد حيدر، الإمام الصادق: ٣ / ٨٤، وأُنظر المسعودي، مروج الذهب: ٤ / ٢٣٦.

بعض»[1].

ومن طريف ما ينقل من مناظرات هشام بن الحكم في بغداد، ما ينقله ابن قتيبة الدينوري في كتابه الممتع عيون الأخبار، قال: «حدّثني رجل من أصحاب الكلام قال: دخل هشام بن الحكم على بعض الولاة العباسيين، فقال رجل للعباسيّ، أنا أُقرّر هشاما بأنّ عليا كان ظالما، فقال له: إن فعلت ذلك فلكَ كذا؛ فقال له: يا أبا محمّد، أما علمت أن عليّا نازع العباس إلى أبي بكر؟ قال: نعم، قال: فأيّهما كان الظالم لصاحبه؟ فتوقّف هشام وقال: إن قلتُ العباس خفتُ العباسي [الخليفة] وإن قلت عليّا ناقضتُ قولي، ثمّ قال: لم يكن فيهما ظالم، قال: فيختصم اثنان في أمر وهما مُحقّان جميعا؟ قال: نعم، اختصم الملَكان إلى داود وليس فيهما ظالمٌ إنما أرادا أن يُنبّهاه على ظلمه، كذلك اختصم هذان إلى أبي بكر ليعرّفاه ظلمه، [فأسكت الرجل، وأمر الخليفة لهشام بصلة]»[2].

وهنالك مناظرات كثيرة لهشام بن الحكم قد حوتها كتب التاريخ وعلم الكلام وخاصة في قضية الإمامة وتثبيتها بالنص، وكان يخرج من جميع مناظراته منتصرا.

ثالثا: سعة وعمق تراثه العلمي:

لم يقتصر نشاط هشام بن الحكم على المناظرة والجدل ومواجهة الخصوم فقط، بل إنه صنّف في شتى صنوف العلوم والمعارف العقائدية والمذهبية والفلسفية، وردّ على كبار الفلاسفة الذين ترجمت كتبهم في ذلك الحين، كما أ نّه ردّ على الدهريين

---

(١) الصدوق، اكمال الدين: ٢ / ٣٦٢.

(٢) ابن قتيبة ـ عبد اللّه بن مسلم، عيون الأخبار: ٢ / ١٥٠ أُفست الشريف الرضي ـ قم على الطبعة المصرية، وابن عبد ربه، العقد الفريد: ٢ / ٤١٢، تحقيق: أحمد أمين، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

والمعتزلة والزيدية وقد احتفظت كتب الفهارس والتراجم بقائمة طويلة من أسماء كتبه ومؤلفاته على ثلاثين مؤلفا في جوانب شتى من الثقافة، منها: كتاب الإمامة، كتاب الدلالات على حدوث الأشياء، كتاب الردّ على الزنادقة، كتاب الرد على أصحاب الاثنين، كتاب التوحيد.. كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول، كتاب اختلاف الناس في الإمامة، كتاب الوصية..[1].

والملاحظ في مؤلفات هشام بن الحكم ومناظراته مواجهته مع المعتزلة الذين راج سوقهم في ذلك الحين بدعم من السلطة الحاكمة، وأخذت آراؤهم بالانتشار مع النزعة العقلية والمادية التي كانت تشوب أفكارهم وعقائدهم ولهذا: «خصّص قسما كبيرا من كتبه في الرد عليهم، مما أثار حفيظتهم وتحاملهم عليه تحاملاً كبيرا، فرموه بالخروج عن الإسلام خروجا لا شبهة فيه حتى قال قائلهم:

ما بال من ينتحل الإسلاما   متخـــذا امامـــه هشـــاما

يقول الدكتور أحمد أمين: «وقد اشتهر من الشيعة كثير من المتكلمين من أشهرهم هشام بن الحكم.. ناظر المعتزلة وناظروه.. وقد ناظر أبا هذيل العلاف المعتزلي.. وله مع المعتزلة مناظرات.. والجاحظ يشتد عليه في المناقشة ويغضب في نقده غيرة على المعتزلة»[2].

ولبعد أثره على المعتزلة انبرى جماعة للرد عليه، منهم بشر بن المعتمر المعتزلي، الذي وضع كتابا في الرد على هشام[3].

---

(١) للتوسع أُنظر: ابن النديم، الفهرست: ٢٢٤، النجاشي، الرجال: ٤٣٣، والطوسي، الفهرست: ٤٩٤ ـ ٤٩٥ بتحقيق السيّد عبد العزيز الطباطباني، والزركلي، الأعلام: ٨٥/٨.

(٢) أحمد أمين، ضحى الإسلام: ٣/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(٣) عبد الله نعمة، فلاسفة الشيعة: ٦٣٧.

رابعا: تبحره في علم الحديث والفقه والأُصول:

يعدُّ هشام بن الحكم من ثقات أصحاب الإمامين الصادق والكاظمعليهما السلام ومن الراوين عنهما، وقد عدّه الشيخ الطوسي «من خواص سيدنا ومولانا موسى بن جعفرعليه السلام وكان له أصل أخبرنا به جماعة عن أبي جعفر بن بابويه..» ولقي أبا عبد اللّه جعفر بن محمد وابنه موسىعليهما السلام، وله عنهما روايات كثيرة، وروي عنهما فيه مدايح له جليلة»[1].

وفي معجم الحديث للسيّد الخوئي: «روي بعنوان هشام بن الحكم (١٦٧) رواية منها عن أبي عبد اللّه، وأبي الحسن: وروى عنه ابن أبي عمير، وأحمد بن عباس.. ويونس بن عبد الرحمان»[2].

وفي المرجع نفسه: «وعدّه المفيدرحمه الله في رسالته العددية من الأعلام الرؤساء المأخوذ عنهم الحلال والحرام، والفتيا والأحكام، الذين لا مطعن عليهم، ولا طريق إلى ذمّ واحد منهم»[3].

ويقول عنه السيّد الأمين في الأعيان: «هو من أكبر أصحاب أبي عبد اللّه.. وكان فقيها، وروى حديثا كثيرا»[4].

والمعروف عن أبي حنيفة أنه كان فقيها ويعمل بالرأي، ومناظرة هشام له ضمن تخصصه الفقهي.

---

(١) الطوسي، الفهرست: ١٧٤ طبعة النجف بتحقيق السيّد محمد صادق آل بحر العلوم.

(٢) الخوئي ـ أبو القاسم، معجم رجال الحديث: ٢٠ / ٣٢٢ الطبعة الخامسة.

(٣) المرجع نفسه: ٢٠ / ٢٩٩.

(٤) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١٥ / ١٩٦ الطبعة الخامسة، ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م.

وينبغي الاشارة إلى أن بعض المؤرخين للعلوم الإسلامية ينصُّون على أن لهشام مُصنَّفا بعنوان (كتاب الألفاظ)، ومباحث الألفاظ من المباحث المهمة في علم الأُصول، وهذا يعني أسبقية مدرسة أهل البيتعليهم السلام في علم الأُصول[1].

وليس بين أيدينا كتاب الألفاظ لهشام بن الحكم لنرى مدى انطباق أبحاثه على ما يبحث الآن في علم الأُصول، إذ «لعلّه كان يعني شرح المصطلحات التي كان يستعملها هو أو كانت تستعمل في الكلام»[2].

ومهما يكن من أمر، فإنّ هشام بن الحكم رغم نزعته العقلية والفلسفية والكلامية، نجده إلى «جانب ذلك من رواة الحديث عن أهل البيتعليهم السلام» الموثوقين، كما كان فقيها من رواد الفقه والآثار والأُصول»[3].

خامسا: طلّابه ومريدوه والمتأثرون بآرائه:

كانت لأفكار هشام بن الحكم تأثير كبير في الأوساط العلمية في بغداد وخاصة على المذهب المعتزلي والمعتزلة الذين حمل عليهم هشام في حياته، وترك أثره عليهم بعد وفاته، «ولبعد أثره على المتكلمين الذي ظلّ طويلاً حتى وفاته، انبرى جماعة للردّ عليه، منهم: بشر بن المعتمر المعتزلي، الذي وضع كتابا في الرد على هشام، كما ظل جماعة من المتكلمين متأثرين بآرائه، حتى عصر متأخر عنه، مثل أبي عيسى محمد بن هارون الوراق، وأحمد بن الحسين الراوندي، الذي وضع كتابه

---

(١) الأمين، الأعيان: ١٥ / ١٩٧ وللتوسع أُنظر: ابن النديم، الفهرست: ٢٢٤، والسيّد حسن الصدر في تأسيس الشيعة: ٣١٠.

(٢) الجعفري ـ محمد رضا، الكلام عند الإمامية، مجلة تراثنا العدد المزودج ٣٠ / ٣١: ١٨٨.

(٣) عبد اللّه نعمة، فلاسفة الشيعة: ٦٣٥.

(فضيحة المعتزلة) وهاجم فيها الآراء الاعتزالية ورجالها مهاجمة شديدة، متكئا في كثير من فصوله على آراء هشام بن الحكم، مما اضطر أبا الحسن ابن الخياط إلى وضع كتابه (الانتصار) للرد على (الفضيحة) وعلى الراوندي وهشام»[1].

رغم قصر الفترة الزمنية التي قضاها هشام بن الحكم في بغداد، إلّا أ نّه خلف مدرسة لها اتباعها ومريدوها، وممن يعدون من أعلام متكلمي الإمامية.

بل إن بعض الباحثين يذهب إلى أن هشام بن الحكم: «صاحب مدرسة فكرية، لها اتباع يؤيدونها، ويناظرونها على طريقتها، عُرفت بعد ذلك (بالهاشمية)، وظهر بعض أفكارها على آراء جماعة من المتكلمين، كأبي هذيل العلاف، والجبائيين، وأبي الحسن البصري، وأبي إسحاق النظام وغيرهم. وتشير النصوص إلى أنّ للنظام المعتزلي صلة وثيقة بهشام، فقد أَخذ عنه وتلقى عنه، وهي صلة تلميذ بأُستاذ، وقد تركت هذه الصلة ظلالاً كثيرة من آراء هشام على تفكير النظام»[2].

ويروى عن الفضل بن شاذان النيسابوري ـ وهو أحد تلامذة هشام بن الحكم ـ أنه كان يقول: «أنا خلف لمن مضى، أدركتُ محمد بن أبي عمير، وصفوان بن يحيى، وغيرهما، وحملت عنهم منذ خمسين سنة، ومضى هشام بن الحكم‏ رحمه الله وكان يونس بن عبد الرحمن‏ رحمه الله خليفة له، وكان يرد على المخالفين، ثمّ مضى يونس بن عبد الرحمن، ولم يخلف خلفا إلّا السكاك، فردّ على المخالفين، حتى مضى‏ رحمه الله وأنا خلف لهم من بعدهم»[3].

هذه أهم ما يمكن أن نسجله لهشام بن الحكم من انجازات، وهي انجازات مهمة

---

(١) عبد اللّه نعمة، فلاسفة الشيعة: ٦٣٧.

(٢) المرجع نفسه: ٦٣٥ ـ ٦٣٦ وما بعدها.

(٣) الكشي، الرجال: ٥٣٧، النجاشي: ٣٠٦ ـ ٣٠٧، الطوسي، الفهرست: ١٥٠ ـ ١٥١.

ولها دورها في مدرسة أهل البيت عليهم السلام في بغداد وفي بدايات تكوينها.

فرحم اللّه هشاما، الذي كان رائده الحق، وسبيله الرشد،وضحى براحته في سبيل مبدئه، وبذل أقصى جهده من أجل اصلاح العقيدة، وقضى أواخر حياته مختفيا وقد اشتدّ في طلبه السلطان، حتى مضى إلى ربه حيث أدركه الموت بالكوفة رحمه الله.

رابعا: يونس بن عبد الرحمن

وهو من أعلام متكلمي الإمامية الذين خلفوا هشاما في بغداد، وصار المقدم بين متكلمي الإمامية، فسمت مكانته واتسعت شهرته، وقد مرَّ بنا رواية الفضل بن شاذان وقوله: «مضى هشام بن الحكم، وكان يونس بن الرحمن خلفه، وكان يرد على المخالفين..»[1].

وليونس بن الرحمن جهود كبيرة ومضنية في بغداد، وخاصة بعد الفراغ الذي تركه هشام بن الحكم بعد رحيله، وقد أثمرت هذه الجهود عن تراث علمي وفكري، وتربية لمجموعة من الفقهاء الرواة وغيرها الكثير. وفيما يلي استعراض موجز لمعالم شخصية هذا العلم الجليل مع بيان مختصر لجهوده العلمية:

أولاً: منزلته العلمية:

قال النجاشي في ترجمته: «.. كان وجها في أصحابنا متقدّما، عظيم المنزلة.. رأى جعفر بن محمد عليه السلام بين الصفا والمروة ولم يرو عنه، وروى عن أبي الحسن موسى والرضا عليهما السلام، وكان الرضا يشير إليه في العلم والفتيا»[2].

ولمنزلته العلمية هذه أصبح مرجعا للشيعة في عصر الأئمة عليهم السلام حيث كان الإمام

---

(١) الكشي، الرجال: ٤٥٢ ترجمة الفضل بن شاذان.

(٢) النجاشي، الرجال: ٤٤٦ ـ ٤٤٧.

الرضا عليه السلام يُرجع بعض خواص شيعته إليه، ففي رواية الكشي.. عن الفضل ابن شاذان، قال: حدّثني عبد العزيز المهتدي ـ وكان خير قُمّي رأيته ـ وكان وكيل الرضا عليه السلام وخاصته فقال: إنّي سألته فقلت: إنّي لا أقدرُ على لقائك في كلِّ وقت، فعمّن آخذ معالم ديني؟ فقال: خذ عن يونس بن عبد الرحمن»[1]. يقول السيّد الخوئي: «وهذه منزلة عظيمة»[2].

ومثلها رواية الحسن بن علي بن يقطين[3].

يقول السيّد الخوئي في المعجم: «ومما يشهد على جلالة يونس ومكانته في الفقه، أنّ محمد بن يعقوب الكليني عقد في الكافي بابين لكلام يونس، الأول في تفسير ما يحلّ من النكاح وما يحرّم، والفرق بين النكاح والسفاح والزنا، الجزء (٥) الباب (٨٩). والثاني: باب العلّة في أنّ السهام لا تكون أكثر من ستة، الجزء (٧)، الباب (١١)»[4].

وإلى جانب مرجعيته في الفتيا وبيان معالم الدين من الحلال والحرام، كانت ليونس مرجعية فكرية وثقافية، وكانت كتبه تمثل مرجعية فكرية تصحيحية للشيعة، قال جعفر بن بابويه: سمعت ابن الوليد رحمه الله يقول: «كتب يونس بن عبد الرحمن التي هي بالروايات كلّها صحيحة يعتمد عليها...»[5].

وليونس بن عبد الرحمن مُؤَلف اسمه كتاب (يوم وليلة) اطلع عليه الإمام

---

(١) الكشي، الرجال: ٤٨٣.

(٢) الخوئي، معجم رجال الحديث: ٢١ / ٢٠٩.

(٣) المصدر نفسه: ٤٩٠.

(٤) الخوئي، معجم رجال الحديث: ١٨٢.

(٥) الطوسي، الفهرست: ١٨٢.

العسكري عليه السلام فأثنى على المؤلِّف والمؤلَّف. فقد روى النجاشي بسند صحيح[1]، عن داود بن قاسم الجعفري، قال: «عرضتُ على أبي محمد صاحب العسكر عليه السلام كتاب يوم وليلة، ليونس فقال لي: تصنيف من هذا؟ فقلتُ: تصنيف يونس مولى آل يقطين، فقال: أعطاه اللّه بكل حرف نورا يوم القيامة..» وقد علّق النجاشي على هذه الرواية بقوله: ومدائح يونس كثيرة، ليس هذا موضعها، وإنما ذكرنا هذا حتّى لا نخليه من بعض حقوقه رحمه الله»[2].

وفي رواية الكشي عن الراوي نفسه قال: «ادخلت كتاب يوم وليلة الذي أ لّفه يونس بن عبد الرحمن على أبي الحسن العسكري، فنظر فيه وتصفّحه كلّه، ثمّ قال: هذا ديني ودين آبائي وهو الحق كلّه»[3].

وبالاضافة إلى مرجعيته الفقهية، والفكرية والثقافية، هنالك مرجعية ثالثة عُرف بها يونس بن عبد الرحمن، وهي مرجعيته في الحديث والرواية، حيث عدّه الكشي في أصحاب الإجماع، فقال: أجمع أصحابنا على تصحيح ما يصحّ عن هؤلاء وتصديقهم، واقروا لهم بالفقه والعلم، وهم ستة نفر.. منهم يونس بن عبد الرحمن.. وأفقه هؤلاء يونس بن عبد الرحمن[4].

ثانيا: ثباته على الحق:

لقد عايش يونس بن عبد الرحمن فترة حرجة من فترات حياة الأئمة عليهم السلام، وهي فترة

---

(١) نص على صحة السند السيّد الخوني في المعجم: ٢١ / ٢١٣.

(٢) النجاشي، الرجال: ٤٤٧.

(٣) الكشي، الرجال: ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

(٤) المصدر نفسه: ٥٥٦.

وفاة الإمام موسى بن جعفر، وانتقال الإمامة إلى الإمام علي بن موسى عليهما السلام إذ انحرفت مجموعة من الشيعة عن الحق، وابتدعوا القول (بالوقف) أي إدعاء وقوف الإمامة عن الإمام موسى بن جعفر، وإنّه «لم يمت وإنه حي ولا يموت حتى يملك شرق الأرض وغربها ويملأها كلها عدلاً كما ملئت جورا وإنه القائم المهدي.. فسموا هؤلاء جميعا (الواقفة)»[1].

ومن أهم أسباب جنوح هذه الفرقة من الشيعة إلى القول بالوقف هو العامل المالي، حيث تكدست أموال الحقوق الشرعية من الزكاة والخمس وغيرها عند بعض وكلاء الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وكان الإمام مغيبا في قعر السجون، فاستغل بعضهم الفرصة فأخذ يتصرف بهذه الأموال الشرعية وكأنها أمواله الخاصّة، وبعد وفاة الإمام الكاظم عليه السلام ابتدعوا القول بالوقف من أجل إنكار إمامة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وعدم دفع الأموال إليه.

يقول الشيخ الطوسي في الغيبة وهو يذكر المذمومين من وكلاء الأئمة: «ومنهم علي بن أبي حمزة البطائني وزياد بن مروان القنديّ، وعثمان بن عيسى الرواسيّ، كلّهم كانوا وكلاء لأبي الحسن موسى عليه السلام وكان عندهم أموال جزيلة، فلما مضى أبو الحسن موسى عليه السلام وقفوا طمعا في الأموال، ودفعوا إمامة الرضا عليه السلام وجحدوه..»[2].

وهنالك روايات يرويها الكشي في رجاله، تنص على العامل المالي كسبب للوقف.

---

(١) النوبختي ـ أبي محمد الحسن بن موسى، فرق الشيعة: ٨٠ ـ ٨١ صحّحه وعلّق عليه السيّد محمد صادق بحر العلوم، أُفست المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦م. والكشي، الرجال: ٤٥٥ وما بعدها.

(٢) الطوسي، الغيبة: ٣٥٢.

منها عن يونس بن عبد الرحمن قال: مات أبو الحسن عليه السلام وليس من قوامه أحد إلّا وعنده المال الكثير، وكان ذلك سبب وقوفهم وجحودهم موته،.. فلمّا رأيتُ ذلك وتبيّن عليَّ الحق، وعرفت من أمر أبي الحسن الرضا عليه السلام ما علمت: تكلّمتُ ودعوتُ الناس إليه، قال: فبعثا إليّ وقالا: ما تدعو إلى هذا! إن كنت تريد المال فنحن نغنيك، وضمنا لي عشرة آلاف دينار، وقالا لي كُفَّ! قال يونس: فقلت لهما أَما روينا عن الصادقين عليهم السلام أنهم قالوا: إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يظهر علمه، فإن لم يفعل سلب نور الإيمان؟! وما كنت لأدع الجهاد وأمر اللّه على كلِّ حال، فناصباني واظهرا لي العداوة»[1].

امام هذا الاغراء المالي الكبير ثبت على الحق واستقام يونس بن عبد الرحمن، وبحسب تعبير النجاشي: «وكان ممن بُذل له على الوقف مال جزيل، وامتنع من أخذه وثبت على الحق»[2].

نعم، لقد ثبت على الحق وصدع به، ولم تأخذه بذلك لومة لائم رضوان اللّه تعالى عليه.

ثالثا: تراثه العلمي:

لقد كان يونس بن عبد الرحمن، كاتبا مكثرا، وله ابداعات جديدة في كتاباته، وعندما نعود إلى كتب الفهارس نجد قائمة طويلة لمؤلفاته تصل إلى أكثر من ثلاثين مؤلفا في بعض هذه الفهارس، بل في رواية الفضل بن شاذان: أنّ يونس بن عبد

(١) الكشي، الرجال: ٤٩٣، ٤٥٩، ٤٦٠.

(٢) النجاشي، الرجال: ٤٤٧.

الرحمن.. ألّف ألف جلد ردا على المخالفين[1].

قال ابن النديم: «يونس بن عبد الرحمن، من أصحاب موسى بن جعفرعليه السلام.. علّامة زمانه، كثير التصنيف والتأليف على مذاهب الشيعة، وله من الكتب: كتاب علل الأحاديث، كتاب الصلاة، كتاب الصيام، كتاب الزكاة، كتاب الوصايا والفرائض، كتاب جامع الآثار، كتاب البداء»[2].

أما النجاشي فقد قال عنه: «وكانت له تصانيف كثيرة..» وذكر له قائمة طويلة من المؤلفات[3].

أما الشيخ الطوسي في الفهرست فقد قال: «.. له كتب كثيرة، أكثر من ثلاثين كتابا، وقيل إنها مثل كتب الحسين بن سعيد وزيادة[4].. أخبرنا بجميع كتبه ورواياته جماعة عن أبي جعفر ابن بابويه عن محمد بن الحسن..»[5].

وأما الجانب الابداعي في تأليفاته فتتمثل في كتابه (علل الحديث)، ويعد هذا الموضوع من أهم أبحاث علم الأُصول، وهو مبحث تعارض الحديثين، أو ما يسمى بمبحث التعادل والتراجيح.

ويعتبر هذا البحث من الابتكارات الجديدة وتسجل للشيعة قدم السبق والأولوية في التصنيف في مسائل علم أُصول الفقه، وهو امتداد لجهود أُستاذه هشام بن الحكم الذي صنَّف كتاب الألفاظ ومباحثها، وهو من أهم مباحث علم أُصول الفقه.

---

(١) الخوئي، معجم رجال الحديث: ٢١ / ٢١٣.

(٢) ابن النديم، الفهرست: ٢٧٦.

(٣) النجاشي، الرجال: ٤٤٧ ـ ٤٤٨.

(٤) ذكر في ترجمة الحسين بن سعيد: ٥٨، وله ثلاثون كتابا.

(٥) الطوسي، الفهرست: ١٨١ ـ ١٨٢.

رابعا: امتداد مدرسته من خلال تلامذته والرواة عنه:

لقد كان يونس بن عبد الرحمن رضي الله عنه بحرا من العلم، عميق الغور، متنوع المعارف، دقيقا في أبحاثه، حتى ورد في رواية ابن شاذان قوله: «ما نشأ في الإسلام رجل من سائر الناس كان أفقه من سلمان الفارسي، ولا نشأ رجل بعده أفقه من يونس بن عبد الرحمن»[1]. وفي رواية ثانية: «ويقال: انتهى علم الأئمة إلى أربعة نفر.. والرابع يونس بن عبد الرحمن»[2].

لقد كان طلّابه ومريدوه يعانون كثيرا من عمق أبحاثه العلمية ودقتها، ولهذا كان الإمام الكاظم عليه السلام يوجهه بطريقة علمية فيقول له: «يا يونس، أرفق بهم فإنّ كلامك يدقّ عليهم»[3].

وفي رواية ابن شاذان عن البصري قال: دخلت مع يونس بن عبد الرحمن، على الرضا عليه السلام فشكا إليه ما يلقى من أصحابه... فقال الرضا عليه السلام: «دارهم فإنّ عقولهم لا تبلغ»[4].

وفي رواية عن الإمام الرضا أيضا جاء فيها عن الإمام قوله مخاطبا ليونس: «يا يونس حدِّث الناس بما يعرفون، واتركهم مما لا يعرفون..»[5].

ومهما يكن من أمر، فقد تتلمذ عليه وروى عنه جماعة، منهم: محمد بن عمير البغدادي، ومحمد بن خالد البرقي، وشاذان بن خليل النيسابوري، ومحمد بن عيسى

---

(١) الكشي، الرجال: ٤٨٤.

(٢) المصدر نفسه: ٤٨٥.

(٣) المصدر نفسه: ٤٨٨.

(٤) المصدر نفسه: ٤٨٨.

(٥) المصدر نفسه: ٤٨٧.

بن عبيد البغدادي، وأكثر ـ هذا الأخير ـ عنه حتى نُسب إليه، فعرف باليونسي، وآخرون»[1].

فرحم اللّه يونس بن عبد الرحمن الذي كرّس حياته للّه سبحانه، مدافعا عن الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، فمضى إلى جنب ربه بعد أن ختم اللّه له أن يكون مثواه بجنب رسوله حيث توفي سنة (٢٠٨ هـ) في المدينة، واعتبرها الإمام الرضاعليه السلام منقبة له، ففي رواية الحسن بن علي بن فضال، عن أبي الحسن الرضاعليه السلام قال: «انظروا إلى ما ختم اللّه ليونس، قبضه بالمدينة مجاورا لرسول اللّهصلى الله عليه وآله»[2].

خامسا: محمد بن الخليل البغدادي السَّكاك

يعتبر السَّكاك خليفة أُستاذه هشام بن الحكم، وحلقة الوصل بين يونس بن عبد الرحمن الذي مضى، والفضل بن شاذان الذي سوف تأتينا روايته، بحسب رواية الفضل بن شاذان التي يرويها الكشي في ترجمته، فهو خلف لسلف صالح مضى من قبله.

لم يتوقف النجاشي عند ترجمته طويلاً حيث ذكر أنه «صاحب هشام بن الحكم وتلميذه، أخذ عنه، له كتب، منها كتاب في الإمامة، وكتاب سمّاه التوحيد..»[3].

إلّا أنّ الشيخ الطوسي يذكر له أنه «كان متكلما.. وله كتاب المعرفة، وكتاب الاستطاعة، وكتاب الإمامة، وكتاب الرد على من أبى وجوب الإمامة بالنص»[4] وهي

---

(١) السبحاني، معجم طبقات المتكلمين: ١ / ٤٣٧، وللتوسع انظر: السيّد الخوئي، معجم رجال الحديث: ٢١ / ٢٣٠.

(٢) الكشي، الرجال: ٤٨٦.

(٣) النجاشي، الرجال: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٤) الطوسي، الفهرست: ١٣٢.

نفس ترجمته عند ابن النديم[1]، كما أن السيّد الخوئي في المعجم اقتصر على نقل ما قاله النجاشي والطوسي في ترجمته مع اعادة قول الفضل بن شاذان في حقّه[2].

والذي يبدو من خلال ما ذُكر في ترجمته أنه من المتكلمين الإمامية، ومن أبرز تلامذة هشام بن الحكم، والآخذين عنه، مما أهله أن يكون خليفة له في المناظرة وعلم الكلام.

يقول أحد الباحثين في ترجمته: «لازم المتكلِّم البارع هشام بن الحكم وتلمذ له، وأخذ عنه، وتقدّم في علم الكلام، وصار من المتكلمين المرموقين في عصر هارون الرشيد الذي ازدهر فيه هذا العلم. وكان يرتاد الندوة التي يعقدها يحيى بن خالد البرمكي ببغداد للمناظرة والبحث في المسائل الكلامية والفلسفية، ويحضرها متكلّمو الفرق الإسلامية وغيرهم من أهل الآراء والنِّحل. واتسعت شهرة المترجم، وانتهت إليه رئاسة متكلّمي الإمامية بعد وفاة يونس بن عبد الرحمن (سنة ٢٠٨ هـ) وخاض ميدان المناظرة والاحتجاج دفاعا عن مذهب أهل البيت، وردّا على شبهات ومقالات مختلف المذاهب والفِرق»[3].

والمترجم له رغم معاصرته للإمام الكاظم عليه السلام إلّا أ نّه لم يرو عنه، ويبدو أنه تخصص في علم الكلام فقط، فكرس جهده ووقته للمناظرة وردّ الشبهات المثارة وخاصة حول الإمامة.

لم يذكر المترجمون له تاريخ وفاته إلّا أنه إلى حين وفاة يونس بن عبد الرحمن (ت ٢٠٨ هـ) كان حيا.

---

(١) ابن النديم، الفهرست: ٢٢٥.

(٢) الخوئي، معجم رجال الحديث: ١٧ / ٨٠.

(٣) سبحاني، معجم المتكلمين: ١ / ٤١٧ ـ ٤١٨، طبعة مؤسسة الإمام الصادق ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٤ هـ.

سادسا: الفضل بن شاذان بن الخليل

أبو محمد الأزدي النيشابوري وهو من أبرز أعلام الإمامية في القرن الثالث الهجري، ومن مشاهير الرواة والفقهاء والمتكلمين، وممن انتهت إليهم مرجعية الشيعة في علم الكلام بعد وفاة محمد بن الخليل السَّكاك الذي خَلف يونس بن عبد الرحمن بعد وفاته. وللفضل ترجمة طويلة في كتب التراجم والفهارس نقتصر على المهم منها مما تعكس نشاطه العلمي في عصره:

أولاً: وثاقته وجلالة قدره:

لقد اتفق مترجموه على أنه كان ثقةً، ومن أجل فقهاء الشيعة الإمامية ومتكلميهم في القرن الثالث الهجري.

قال عنه النجاشي: «.. روى عن أبي جعفر الثاني، وقيل عن الرضا أيضاعليهما السلام وكان ثقةً، أحد أصحابنا الفقهاء المتكلّمين، وله جلالة في هذه الطائفة، وهو في قدره أشهر من أن نَصِفه»[1]

وذكره الشيخ في الفهرست فقال: «فقيه متكلم، جليل القدر، له كتب ومصنفات..».

وعدّه في رجاله تارة في أصحاب الهاديعليه السلام وأُخرى في أصحاب العسكريعليه السلام[2].

فالرجل ثقة جليل القدر، بل وفي أعلى درجات الوثاقة، فقد روى الكشي: «.. عن حامد بن محمد من أهل البوزجان من نيسابور، أنّ أبا محمد الفضل بن شاذانرحمه الله كان وجّهه إلى العراق إلى حيث به أبو محمد الحسن بن علي (صلوات اللّه عليهما) فذكر

---

(١) النجاشي، الرجال: ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٢) الطوسي، الفهرست: ١٢٤، والرجال: ٣٩٠، ٤٠١.

أنه دخل على أبي محمد عليه السلام، فلما أراد أن يخرج، سقط منه كتاب في حضنه ملفوف في رداء له، فتناوله أبو محمد عليه السلام ونظر فيه، وكان الكتاب من تصنيف الفضل، وترحّم عليه، وذكر أنه عليه السلام قال: «أَغبط أهل خراسان بمكان الفضل بن شاذان وكونه بين أظهرهم»[1].

وفي رواية ثانية في المصدر نفسه: أنَّ أبا محمد عليه السلام ترحّم عليه ثلاثا ولاءً.

ويقول السيّد الخوئي في المعجم في ترجمة الفضل بن شاذان: «وعدّه الكشي من جملة العدول والثقات ممن روى عن محمد بن سنان في ترجمته»[2].

ثانيا: مكانته العلمية وفضيلته:

كلُّ من ترجم للفضل بن شاذان، وصفه بالفقاهة والكلام وغزارة العلم، وسعة الرواية وجلالة القدر، «وقد اعتنى كبار العلماء كالكليني والصدوق والنجاشي والطوسي وغيرهم بأقواله وكلماته وآرائه ومباحثه في الفقه والفرائض والحديث والرجال والكلام، ونقلوها في كتبهم»[3].

هذا وقد كان الفضل بن شاذان مقدما في أكثر من منحى من مناحي العلوم والمعارف والثقافة الإسلامية، وأحد أعلام الإسلام المفكرين في عصره، ومما عُرِف عنه من علوم ومعارف:

---

(١) الكشي، الرجال: ٥٤٢.

(٢) الخوئي، معجم رجال الحديث: ١٤ / ٣١١.

(٣) السبحاني، معجم طبقات المتكلمين: ٤٠٩ عن التستري ـ محمد تقي، قاموس الرجال: ٨ / ٤١٥ ـ ٤١٧، طبعة جامعة المدرسين ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤١٧ هـ

١ ـ علوم القرآن:

فقد نقل السيّد حسن الصدر عن ابن النديم في الفهرست في باب ترتيب القرآن ما لفظُه: «والفضل بن شاذان أحد أئمة القرآن والروايات، وذلك ذكرنا ما قاله دون ما شاهدناه»[(١)].

ثمّ أضاف السيّد الصدر أن ابن النديم «ذكر له ـ أي لابن شاذان ـ كتابا في القراءة قال في تسمية الكتب المصنفة في القراءة: وكتاب القراءات للفضل بن شاذان صاحب الرضا والجواد»[(٢)].

وعندما عدنا إلى كتاب الفهرست لابن النديم بتحقيق رضا تجدد، طبعة جامعة طهران، وجدنا العبارة الأُولى التي نقلها السيّد الصدر بعينها من دون زيادة، أما العبارة الثانية ففيها زيادة في آخرها وهي عبارة (صاحب الرضا والجواد). إذ لم نجدها في نص ابن النديم في الفهرست[(٣)].

بالاضافة إلى ذلك فإنّ ابن النديم قد ترجم للفضل بن شاذان في الفن السادس من المقالة السادسة والذي يحتوي على أخبار فقهاء أصحاب الحديث، وهو يحتوي على تراجم بعض علماء السنة، ولم يترجم له في الفن الخامس من المقالة السادسة في أخبار فقهاء الشيعة ومحدثيهم وعلمائهم، ثمّ إنه ذكر في ترجمته ما يلي: «الرازي، وابنه العباس بن الفضل، وهو خاصي، عامي، الشيعة تدعيه، وقد استقصيت ذكره عند ذكرهم! والحشوية تدعيه. وله من الكتب؛ التي علّق بالحشوية، كتاب التفسير، كتاب

---

(١) الصدر ـ حسن، تأسيس الشيعة: ٣٤٤.

(٢) المرجع نفسه: ٣٤٤.

(٣) ابن النديم، الفهرست: ٢٩، ٣٨.

القراءات، كتاب السنن في الفقه، ولابنه العباس ابن الفضل من الكتب..»[1].

فالذي ذكره ابن النديم تحت عنوان الفضل بن شاذان فهو الرازي، وهو غير الفضل بن شاذان ابن الخليل النيشابوري، فالأول تروي عنه العامة، والثاني شيعي، فهما شخصان كما يقول السيّد الخوئي في المعجم[2]. وللشيخ الطوسي في الفهرست[3] والتستري في القاموس[4] كلام حول هذا الموضوع فليراجع.

ومهما يكن من أمر، فإنّ ما ذكرناه لا نريد به أن ننفي عن الفضل بن شاذان النيسابوري فضله وتضلعه في التفسير وعلوم القرآن، ففي فهرست كتبه كتاب التوحيد في كتاب اللّه[5]. ولعلّه من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

٢ ـ الفقه وعلم الفرائض:

يعتبر الفضل بن شاذان النيشابوري من كبار فقهاء الإمامية في القرن الثالث، وممن انتهت إليهم مرجعية الشيعة الفقهية والكلامية. وقد خصّص بعض مؤلفاته لعلم الفقه والفرائض، منها: كتاب السنن، وكتاب الفرائض الكبير، وكتاب الفرائض الأوسط، وكتاب الفرائض الصغير، وكتاب المسح على الخُفّين، وكتاب الطلاق، وكتاب المتعتين (متعة النساء ومتعة الحج)، وكتاب جمع فيه مسائل متفرقة للشافعي وأبي ثور والإصفهاني وغيرهم سمّاها تلميذه علي بن محمد بن قتيبة كتاب الديباج..»[6].

---

(١) ابن النديم، الفهرست: ٢٨٧ وللتوسع أُنظر الصفحات: ٢٧٥ وما بعدها، و ٢٨١ وما بعدها.

(٢) الخوئي، معجم رجال الحديث: ١٤ / ٣٢١.

(٣) الفهرست للطوسي: ١٢٤، وقاموس الرجال للتستري: ٨ / ٤١٨.

(٤) رجال النجاشي: ٣٠٧.

(٥) رجال النجاشي: ٣٠٧.

(٦) النجاشي، الرجال: ٣٠٧، والخوئي، معجم رجال الحديث: ١٤ / ٣١٠.

والملاحظ في عناوين فهرست كتبه الفقهية، أنها كتب تعالج مسائل فقهية خلافية وتدخل تحت عنوان الفقه المقارن. فيكون المؤلف من المؤسسين لهذا الفرع من التصانيف الفقهية والذي توّج بعد ذلك ببعض مؤلفات الشيخ المفيد والسيّد المرتضى وبكتاب (الخلاف) للشيخ الطوسي كما سوف يأتينا.

وقد مرَّ بنا آنفا اعتناء كبار العلماء من أمثال الكليني والصدوق والطوسي وغيرهم بأقواله وآرائه ومباحثه في الفقه والفرائض.

٣ـ علم الكلام والفلسفة:

لقد ورث الفضل بن شاذان مدرسة هشام بن الحكم، ويونس بن عبد الرحمن، والسكاك الكلامية، فكانت له اضافات قيّمة على الموروث الكلامي لهذه المدرسة، «وتميز بقدراته الفائقة في الردّ على آراء ومقالات مختلف المذاهب والفرق، وفي تفنيد شبهات الفلاسفة والمتكلمين، وأصبح بعد وفاة السّكاك، الرجل الأول بين متكلمي الإمامية في خوض هذا المجال، وفي الذبِّ عن عقائد الإسلام ومذهب أهل البيت عليهم السلام»[1].

وعندما نعود مرّة أُخرى لقائمة مؤلفاته نجد من بين عناوينها: كتاب النقض على الاسكافي.. كتاب الوعيد، كتاب الردّ على أهل التعطيل، كتاب الاعراض والجواهر، كتاب العلل، كتاب الايمان، كتاب الردّ على الثانويّة، كتاب الرجعة، كتاب الردّ على الغالية المحمدية، كتاب الرد على الأصم، كتاب الردّ على الفلاسفة، كتاب الإمامة، كتاب القائم عليه السلام..[2].

---

(١) السبحاني، معجم طبقات المتكلمين: ١ / ٤٠٩.

(٢) النجاشي، الرجال: ٣٠٧.

والملاحظ أن الرجل قد وظّف كل طاقاته الفكرية للرد على أصحاب الآراء الفلسفية والكلامية والمنطقية، مما يعني قدرة فائقة، وعلما موسوعيا عميقا كان يتصف به. ولهذا عدّه الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) من مؤلفي الشيعة الكلاميين، ومثله الأشعري في المقالات[1].

٤ ـ الرواية والحديث:

لقد كان‏ﷺ من حملة حديث أهل البيت‏عليهم السلام وكان واسع الرواية، حمل التراث النبوي والولائي عن طريق سلفه الصالح في الفقه والفرائض والكلام والمعارف.. فدونها في كتبه وأوصلها إلى الخلف الصالح من العلماء والفقهاء وحملة حديث أهل البيت‏عليهم السلام، فهو ـ‏ﷺ ـ ممن قد حمل الامانة وأداها إلى أهلها.

أما طبقته في الحديث فقد «وقع بعنوان الفضل بن شاذان في إسناد كثير من الروايات تبلغ سبعمائة وخمسة وسبعين موردا»[2].

ويقول عنه الشيخ التستري: «الفضل بن شاذان، عارف بالرِّجال، وخبير بالأخبار»[3].

٥ ـ مؤلفاته وتصانيفه:

يعتبر الفضل بن شاذان من أكثر العلماء والفقهاء والمتكلمين تأليفا وتصنيفا، فقد صنّف‏ﷺ في مختلف شؤون المعرفة كالفقه والكلام والمنطق.. وأغلب كتبه ردود

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل: ١ / ١٩٠، والأشعري ـ علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين: ٦٣.

(٢) الخوئي، معجم رجال الحديث: ١٤ / ٣١٩.

(٣) التستري، قاموس الرجال: ٥ / ٢٢١.

ومحاججات تعالج قضايا الإسلام والمسلمين في ذلك الوقت العصيب الذي انتشرت فيه المذاهب والآراء، وترجمت الكتب الفلسفية والمنطقية، فظهرت نزعات المرجئة، والحشوية، والثنوية، وأخذت تحتل موقع الصدارة في ذلك المجتمع.

فنجده يرد على أصحاب الآراء والفلاسفة، والغلاة، والثنوية، ويكتب في المعيار والموازنة، ويكتب في (محنة الإسلام). فلم تكن مصنفاته تنطلق من فراغ، ولا كانت من باب الترف الفكري، وإنما كانت تعالج أُمورا واقعية ابتلي بها الإسلام والمسلمون في زمانه؛ فكانﷺ من العارفين بزمانه وممن لا تهجم عليهم اللوابس، كما في الحديث.

لقد كتب ابن شاذان كتبا كثيرة ذكر النجاشي: «عن الكنجي انه صنّف مائة وثمانين كتابا»[1] إلّا أ نّه لم يصلنا من تراثه ومصنفاته إلّا كتاب (الايضاح) وهو لوحده يُعَرِّف عن تضلّعه في الفقه ومقدرته على الاستدلال بالكتاب والسنّة»[2].

وقد استعرضنا بعض خصائص مؤلفاته في ثنايا البحث.

هجرته ووفاته ومدفنه:

لا تجدد لنا مصادر ترجمة الفضل بن شاذان بدقة سنة ولادته ومكانها، إلّا أن بعضهم رجح أن تكون ولادته في بغداد حدود سنة (١٩٥ هـ)[3].

والفضل قد قضى الشطر الأكبر من حياته في بغداد، وسجّل له فيها ذلك النشاط

---

(١) النجاشي، الرجال: ٣٠٧.

(٢) السبحاني، موسوعة طبقات الفقهاء: ٣ / ٤٣١ الهامش، طبعة دار الأضواء ـ بيروت، (١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م).

(٣) الجعفري ـ محمد رضا، الكلام عند الإمامية.. مجلة تراثنا، العدد ٣٠ ـ ٣١، السنة الثامنة محرم ـ جمادى الآخرة ١٤١٣ هـ ص ٢٣٢.

العلمي الواسع، إلّا أ نّه سكن في أواخر حياته في نيسابور. وتوفي فيها سنة (٢٦٠ هـ) ولا نعرف بدقة السبب أو الأسباب التي دفعته إلى الهجرة من بغداد إلى نيسابور؟ وهل أنها كانت هجرة اختيارية؟ أم أنها هجرة قَسرية ونوع من التبعيد القسري الذي تعرّض له؛ حيث تشير رواية الكشي إلّا أنّ عروة بن يحيى الدهقان هو الذي كتب ببغداد التوقيع الذي بموجبه [بسببه] طُرد الفضل بن شاذان من بغداد..»[1]، وكذلك لا نعرف كم الفترة التي قضاها هناك حتى وفاته؟!

ولكن من خلال الرواية التي يرويها الكشي عن الفضل بن شاذان نفسه، والتي يؤرّخ فيها لمسيرته العلمية إذ يقول: «إنّا خلف لمن مضى، أدركت محمد بن أبي عمير، وصفوان بن يحيى وغيرهما، وحملت عنهم منذ خمسين سنة.. وإنا خلف لهم من بعدهم»[2].

والذي يستفاد من هذه الرواية أن فترة مكوثه في نيسابور لم تكن طويلة، إذ إنه لازم أُولئك المشايخ حتى توفي آخرهم وهو السّكاك البغدادي بعد سنة (٢٠٨ هـ).

ومهما يكن من أمر، فإنّ مكوثه في نيسابور لم يكن طويلاً، ولم يكن مريحا أيضا إذ تعرّض لمضايقات من قبل والي نيسابور عبد اللّه بن طاهر بحسب رواية الكشي، فقد جاء في الرواية: إنّ الفضل بن شاذان بن الخليل نفاه عبد اللّه بن طاهر عن نيسابور بعد أن دعى به واستعلم كتبه وأمره أن يكتبها، قال: فكتب تحته: الإسلام الشهادتان، وما يتلوهما، فذكر أنه يحبّ أن يقف على قوله في السلف! فقال أبو محمد: أتولّى أبا بكر واتبرأ من عمر، فقال له: ولم تبرّأ من عمر؟ فقال: لاخراجه العباس من الشورى،

---

(١) الكشي، الرجال: ٥٤٣، ولويس ماسينيوس، آلام الحلاج: ٢٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ٥٣٩.

فتخلّص منه بذلك»[1].

وقد علّق السيّد الخوئي على هذه الرواية بعد أن نقلها في المعجم بقوله: «أقول: إنّ أمارة التقيّة في قول الفضل ظاهرة، ويؤكد ذلك أنه لا يوجد في المسلمين من يتولّى أبا بكر ويتبرأ من عمر»[2].

وكان الفضل بن شاذان على اتصال دائم بالإمام العسكري عليه السلام في سامراء وذلك من خلال ارسال الرسائل والرُّسل إليه كما في بعض الروايات التي يرويها الكشي في كتابه. ففي رواية طويلة يتحدّث فيها الراوي (بورق البوسنجاني) عن رحلته إلى الحج ثمّ عودته إلى العراق ثمّ سفره إلى سامراء حيث الإمام العسكري عليه السلام فيقول: «.. فخرجت إلى سرّ من رأى ومعي كتاب يوم وليلة، فدخلت على أبي محمد عليه السلام وأريتهُ ذلك الكتاب.. فلما نظر فيه وتصفّحه ورقة ورقة، قال: هذا صحيح ينبغي أن يعمل به، فقلت له: الفضل بن شاذان شديد العلّة.. فقال:.. رحم اللّه الفضل، قال بورق: فرجعت فوجدت الفضل قد توفّي في الأيام التي قال أبو محمد عليه السلام رحم اللّه الفضل»[3].

وفي رواية ثانية عن الملقب (بغورا) من أهل البوزجان من نيسابور يقول فيها: إنّ أبا محمد الفضل بن شاذان رحمه الله كان وجَهَهُ إلى العراق إلى حيث به أبو محمد الحسن بن علي (صلوات اللّه عليه)[4]. وقد ذكرنا الرواية سابقا.

لقد قضى أبو محمد الفضل بن شاذان في نيسابور ودفن هناك رحمه الله، يقول الشيخ

---

(1) الكشي، الرجال: ٤٣٩.

(2) الخوئي، معجم رجال الحديث: ١٤ / ٣١٣.

(3) الكشي، الرجال: ٥٣٨.

(4) الكشي، الرجال: ٥٤٢.

القمي في الكنى والألقاب: «توفي الفضل في أيام أبي محمد العسكري، وقبره بنيشابور قرب فرسخ خارج البلد مشهور، وقد زرته»[1].

سابعا: محمد بن أبي عمير (ت ٢١٧ هـ)

يعتبر محمد بن أبي عمير؛ زياد بن عيسى، أبو أحمد البغدادي، أحد أعلام الإمامية، ومن كبار فقهائهم، وهو «بغدادي الأصل والمقام، لقي أبا الحسن موسى عليه السلام، وسمع منه أحاديث،.. وروى عن الرضا والجواد عليهما السلام»[2].

ولابن أبي عمير دور بارز في مدرسة بغداد وامتدادها العلمي والفقهي الإمامي، نقف عند بعض فصولها:

١ ـ وثاقته:

كلّ من ترجم له نص على وثاقته بأعلى عبارات الوثاقة، فهو كما في عبارة النجاشي: «جليل القدر عظيم المنزلة». وقال عنه الطوسي «كان من أوثق الناس عند الخاصة والعامة، وأنسكهم نسكا، وأورعهم وأعبدهم»[3].

ثمّ يضيف الشيخ الطوسي: «وقد ذكره الجاحظ في كتابه فخر قحطان على عدنان لهذه الصفة التي وصفناه، وذكر أنه أوحد أهل زمانه في الأشياء كلّها»[4].

٢ ـ محنته وصبره:

لقد امتُحن ابن أبي عمير في إيمانه، حيث تعرّض للسجن والضرب؛ فصبر على

---

(١) القمي ـ عباس، الكنى والألقاب: ١ / ٧٦.

(٢) النجاشي، الرجال: ٣٢٦، والطوسي، الفهرست: ١٤٢.

(٣) كلا المصدرين السابقين.

(٤) الطوسي، الفهرست: ١٤٢.

ذلك الأذى الشديد، فوفاه اللّه أجر الصابرين، ورفع ذكره في العليين، ينقل الشيخ النجاشي في رجاله عن الجاحظ في كتابه البيان والتبيين [قال]: «حدّثني إبراهيم ابن داحة عن ابن أبي عمير، وكان وجها من وجوه الرافضة، وكان حبس أيام الرشيد، قيل: لِيليَ القضاء، وقيل: إنّه ولِّي بعد ذلك، وقيل: بل ليدلّ على مواضع الشيعة وأصحاب موسى بن جعفرعليه السلام. وروي أ نّه ضرب أسواطا بلغت منه، فكاد أن يُقرّ لعظم الألم، فسمع محمد بن يونس بن عبد الرحمن وهو يقول: اتق اللّه يا محمد ابن أبي عُمير، فصبر ففرج اللّه.

وروي أنه حَبسه المأمون حتى ولّاه قضاء بعض البلاد، وقيل: إنّ أُخته دفنت كتبه في حال استتارها وكونه في الحبس أربع سنين فهلكت الكتب، وقيل: بل تركتها في غرفة فسال عليها المطر فهلكت، فحدّث من حفظه، وممّا كان سلف له في أيدي الناس، فلهذا أصحابنا يسكنون إلى مراسيله وقد صنّف كتبا كثيرة»[1].

وفي رواية الكشي قال: «وجدت بخط أبي عبد اللّه الشاذاني، سمعت أبا محمد الفضل بن شاذان، يقول: سعي بمحمد بن أبي عمير.. إنه يعرف اسامي عامّة الشيعة بالعراق، فأمره السلطان أن يسمّيهم! فامتنع، فجرّد وعلّق بين [القفازين العَقارين، وضرب مائة سوط، قال الفضل: فسمعت ابن أبي عمير يقول: لما ضُربت فبلغ الضرب مائة سوط، أبلغ الضرب الألم إليّ، فكدتُ أن أُسمّي، فسمعت نداء محمد بن يونس بن عبد الرحمن يقول: يا محمد بن عمير أُذكر موقفك بين يدي اللّه تعالى، فتقويتُ بقوله فصبرت ولم أُخبر، والحمد للّه. قال الفضل: فاضرّ به في هذا الشأن أكثر من مائة ألف درهم».

---

(١) النجاشي، الرجال: ٣٢٦.

وفي رواية أُخرى: «ضرب ابن أبي عمير مائة خشبة أيام هارون (لعنه اللّه)، تولّى ضربه السندي بن شاهك على التشيع وحبس، فادّى مائة وواحدا وعشرين ألفا حتى خلّى عنه..»[1].

ومهما كانت الأسباب التي دفعت بالسلطة الحاكمة لسجن الرجل وضربه وما تسبب من اجراء ذلك من تلف وضياع لتراثه العلمي، فإنّها آلام متراكمة شديدة تحملها الرجل في ذات اللّه، فثبت واستقام ولم تأخذه في اللّه لومة لائم، وقد تكون آلام ضياع تراثه العلمي أشد وطأة من آلام السياط والحبس.

٣ـ منزلته العلمية:

لقد كان‌﵀ واسع العلم، وذا مقام علمي رفيع بين اقرانه وعلماء زمانه، وقد عدّهُ الكشي في أصحاب الإجماع حيث قال: تحت عنوان؛ تسمية الفقهاء من أصحاب أبي إبراهيم وأبي الحسن الرضا﵉: «أجمع أصحابنا على تصحيح ما يصحّ عن هؤلاء وتصديقهم، واقروا لهم بالفقه والعلم: وهم ستة نفر.. منهم يونس بن عبد الرحمن، وصفوان بن يحيى، ومحمد بن أبي عمير، وعبد اللّه بن المغيرة، والحسن بن محبوب، وأحمد بن أبي نصر..»[2] وفي رواية أُخرى قال: «ابن أبي عمير أفقه من يونس وأصلح وأفضل»[3].

وهنالك كلمة ليونس بن عبد الرحمن يرويها الكشي: «عن الريّان بن الصلت قال:

---

(١) الكشي، الرجال: ٥٩١ ـ ٥٩٢، والخوني، معجم رجال الحديث: ١٥/ ٢٩٤.

(٢) الكشي، الرجال: ٥٥٦ و ٥٤٩ من الطبعة الحديث برقم ١٠٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ٥٨١ و ٥٩٠ من الطبعة الحديثة برقم ١١٠٣.

حدّثنا يونس بن عبد الرحمن: ان ابن أبي عمير بحر طارس بالموقف والمذهب»[1] وهي كلمة معبرة تدل على تبحر الرجل وعلميته.

لقد كانت ثقافة ابن أبي عمير واسعة ومصدرها علماء الفريقين، حيث سمع من العامة والخاصة، إلّا أ نّه كان يروي عن الخاصة فقط مخافة أن تختلط عليه الأُمور، ففي رواية الفضل بن شاذان قال: سأل أبي‌ؒ محمد بن أبي عمير فقال له: إنّك قد لقيت مشايخ العامة فكيف لم تسمع منهم؟ فقال: قد سمعت منهم، غير أني رأيت كثيرا من أصحابنا وقد سمعوا عِلم العامة وعلم الخاصة، فاختلط عليهم حتى كانوا يروون حديث العامّة عن الخاصّة وحديث الخاصّة عن العامّة، فكرهتُ أن يختلط عليَّ، فتركتُ ذلك وأقبلتُ على هذا..»[2].

٤ ـ تخصصه في علم الكلام:

لقد تتلمذ ابن أبي عمير على يد أساتذة وأساطين علماء الكلام والمناظرة من أمثال هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، وغيرهما حتى أصبح المقدم عن أساتذته من بين أقرانه، ففي رواية الكشي قال: «اجتمع هشام بن سالم، وهشام بن الحكم، وجميل بن دراج، وعبد الرحمن بن الحجاج،.. ونحو من خمسة عشر رجلاً من أصحابنا، فسألوا هشام بن الحكم أن يناظر هشام بن سالم فيما اختلفوا فيه من التوحيد وصفة اللّه عزّ وجل وغير ذلك لينظروا أيّهما أقوى حجّة! فرضي هشام بن سالم أن يتكلّم عنه محمد بن أبي عمير، ورضي هشام بن الحكم أن يتكلم عنه محمد

---

(١) الكشي، الرجال: ٥٨١ و ٥٩٠ ـ ٥٩١ من الطبعة الحديثة برقم ١١٠٣.

(٢) المصدر نفسه.

بن هشام، فتكلما وساق ما جرى بينهما..»[1].

وعندما نعود إلى قائمة مؤلفاته نجد من بينها كتاب التوحيد، وكتاب المعارف، وكتاب البداء، وكتاب الاحتجاج في الإمامة، وكتاب الكفر والإيمان..»[2].

٥ ـ تخصصه في الفقه والحديث:

لقد «برع محمد بن أبي عمير في فنون متعددة وعلا شأنه عند الفريقين الشيعة والسنة، وأصبحت دارهُ منتجعا للمشايخ وروّاد العلم[3] والمعرفة، وقد مرّ بنا سابقا أنه لقي الكثير من مشايخ أهل السنة وأخذ منهم وأخذوا منه ولكنه لم يروِ عنهم خشية اختلاطها بروايات الخاصّة، وفي مقطع من رواية عن الفضل بن شاذان يقول فيها الراوي: «.. سمعته ـ أي الفضل ـ يقول: أخذ يوما شيخي[4] بيدي وذهب بي إلى ابن أبي عمير، فصعدنا إليه في غرفة وحوله مشايخ يعظّمونه ويبجّلونه، فقلت لأبي من هذا؟ قال: هذا ابن أبي عمير، قلت: الرجل الصالح العابد؟ قال: نعم»[5].

لقد كتب وصنّف في أبواب فقهية متعددة وله: «كتاب الحج، وكتاب فضائل الحج، وكتاب الاستطاعة، وكتاب المتعة، وكتاب الصلاة، وكتاب الصيام، وكتاب النكاح، وكتاب الطلاق، وكتاب الرّضاع»[6].

أما طبقتهُ في الرواية والحديث، فقد «وقع بعنوان محمد بن أبي عمير في إسناد كثير

---

(١) الكشي، الرجال: ٢٧٩.

(٢) النجاشي، الرجال: ٣٢٧.

(٣) السبحاني، معجم طبقات المتكلمين: ١ / ٤٢٠.

(٤) في هامش المصدر: المراد والده شاذان.

(٥) الكشي، الرجال: ٥٩٢.

(٦) النجاشي، الرجال: ٣٢٧.

من الروايات تبلغ ستمائة وخمسة وأربعين موردا»[1] فهو يروي عن مجموعة كبيرة من المشايخ، ويروي عنه أيضا مجموعة كبيرة من المشايخ والرواة.

وأما نوادر محمد بن أبي عمير فيقول عنها النجاشي: «فهي كثيرة، لأنّ الرواة لها كثيرة، فهي تختلف باختلافهم فأ مّا التي رواها عنه عبيد اللّه بن أحمد بن نهيك فإنّي سمعتها من القاضي أبي الحسين محمد بن عثمان بن الحسن يقرأ عليه: حدّثكم الشريف الصالح أبو القاسم جعفر بن محمد بن إبراهيم قراءةً عليه، قال: حدّثنا معلِّمنا عبيد اللّه بن أحمد بن نهيك عن ابن أبي عمير بنوادره»[2].

وفي فهرست كتب ابن أبي عمير يوجد عنوان: «اختلاف الحديث»[3]، ومن المحتمل جدا أن يكون هذا الكتاب في موضوع تعارض الروايات وما يصطلح عليه في علم الأُصول «التعادل والتراجيح» كما يشير إليه عنوانه، وللأسف الشديد لم تصلنا من مؤلفات ابن أبي عمير ولا مؤلف واحد، إذ تلف معظمها أيام حبسه كما أسلفنا.

٦ ـ مؤلفاته:

لقد كان ابن عمير‏‏ من الرواة والمؤلفين المكثرين وذي معارف كثيرة فتنوعت مؤلفاته بتنوع معارفه، ولهذا ينقل الشيخ الطوسي‏‏ قول الجاحظ عنه إنه: «كان أوحد أهل زمانه في الأشياء كلّها»[4].

ثمّ يضيف الشيخ الطوسي: «وروى عنه أحمد بن محمد بن عيسى كتب مائة رجل

---

(١) الخوني، معجم رجال الحديث: ١٥ / ٢٩٨.

(٢) النجاشي، الرجال: ٣٢٧.

(٣) النجاشي، الرجال: ٣٢٧.

(٤) الطوسي، الفهرست: ١٤٢.

من رجال الصادقعليه السلام، وله مصنّفات كثيرة، وذكر ابن بطة أن له أربعة وتسعين كتابا منها..» فعدد بعض مؤلفاته وذكر طريقه إلى كتبه ورواياته، كذلك طريقه إلى نوادره[1].

٧ ـ عبادته وتهجده:

لقد عرف ابن أبي عمير بالتقوى والورع والتهجد والعبادة، فهو مضرب الأمثال في عبادته، وهو صاحب السجدة الطويلة التي صارت مثلاً يضرب بها بين العبّاد وأهل الذكر، ففي رواية الكشي قال: وجدت في كتاب أبي عبد اللّه الشاذاني بخطّه، سمعت أبا محمد الفضل بن شاذان يقول: دخلت العراق فرأيتُ واحدا يعاتب صاحبه، ويقول له: أنت رجل عليك عيال وتحتاج أن تكتسب عليهم، وما آمن أن تذهب عيناك، لطول سجودك! فلمّا أكثر عليه، قال: أكثرت عليَّ ويحك، لو ذهبت عين أحد من السجود لذهبت عين ابن أبي عمير، ما ظنّك برجل سجد سجدة الشكر بعد صلاة الفجر، فما رفع رأسه إلّا عند زوال الشمس..»[2].

ولم يكن ابن أبي عميررحمه الله يرى لنفسه مِيزة عن سلفه الصالح ومشايخه الذين عرفوا بهذه المزية، بل وعرف بها علماء الشيعة الإمامية في ذلك الزمان، بل وفي كل زمان، فهو أهل الورع والعبادة ففي رواية الكشي عن تلميذ ابن أبي عمير الفضل بن شاذان قال: دخلتُ على محمد بن أبي عمير، وهو ساجد فأطال السجود، فلمّا رفع رأسه وذكر له طول سجوده، قال: كيف ولو رأيتَ جميل بن درّاج! ثمّ حدّثه إنّه دخل على جميل بن دراج فوجده ساجدا فأطال السجود جدا، فلمّا رفع رأسه، قال محمد بن عمير:

---

(١) الطوسي، الفهرست: ١٤٢.

(٢) الكشي، الرجال: ٥٩١ ـ ٥٩٢.

أطلت السجود! فقال لو رأيتَ معروف ابن خربوذ»[1].

هذه أهم ملامح الحركة العلمية التي تسنمها محمد بن أبي عمير، والذي توفّي سنة سبع عشرة ومائتين[2].

ثامنا: النوبختيون

من البيوتات العلمية التي برزت بشكل واضح في بغداد، وكان لها حضورها العلمي والمذهبي والسياسي، وقدمت انجازات وعطاءات علمية ومذهبية وسياسية مهمة بيت: «بنو نوبخت».

لقد كان لهذه الأُسرة، ولهذا البيت الكريم اسهاماتهم الواضحة في الحضارة الإسلامية، وفي إغناء المعارف الإنسانية، وذلك من خلال تخصصهم في علم النجوم والفلك، وكذلك علم الكلام، بالاضافة إلى تمكنهم من اللغات الأُخرى وخاصّة الفارسية الفهلوية القديمة واليونانية، حيث تمّ تعريب جملة من الكتب من اللغة الفارسية واليونانية إلى اللغة العربية بأيديهم أو باشرافهم المباشر.

كذلك كان لهذه الأُسرة حضور فاعل في كل مفاصل الحياة السياسية والاجتماعية في بغداد، ومنذ تأسيسها وإلى نهاية القرن الرابع الهجري. وبرز من هذه الأُسرة رجال كان لهم دورهم المؤثر في مناحي الحياة المختلفة.

«وظلت هذه الأُسرة منارة وضاءة بالعلم والمعرفة والفلسفة والفقه والآثار، وحتى النجوم والطب والأدب، عشرات السنين، ولم تَخبُ أضواؤها إلّا في أوائل القرن

(١) الكشي، الرجال: ٢١١، ٢٥٢.

(٢) النجاشي، الرجال: ٣٢٧.

الخامس الهجري»[1].

وعندما نعود إلى تراجم علماء هذه الأُسرة، نجد علماء الرجال والتراجم يثنون عليهم ثناءً منقطعَ النظير، يصفهم القفطي في أخبار الحكماء بقوله: «وآل نوبخت كلهم فضلاء، لهم فكرة صالحة، ومشاركة في علوم الأوائل»[2].

ويقول عنهم صاحب كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: «كان النوبختي يعني (الحسن بن موسى) من نقلة كتب اليونان إلى لسان العرب»[3].

ويصفهم ابن طاووس بقوله: «كانوا علماء بالنجوم وقدوة في هذا الباب»[4].

أما الشيخ القمي فيترجم لهم بقوله: «وآل نوبخت طائفة كبيرة، خرج منها جماعات كثيرة من العلماء والأُدباء والفلاسفة والمتكلمين والكتّاب والحكام والأُمراء»[5].

وللسيّد هبة الدين الحسيني الشهرستاني مقدّمة رائعة لكتاب (فرق الشيعة) لأبي محمد الحسن بن موسى النوبختي، يسلط فيها الأضواء على أُسرة آل نوبخت فيقول: عن أحد أفراد هذه الأُسرة واصفا من خلال حال أفراد أُسرته بقوله: «وحاز هو وبنوه الشهرة الواسعة في علم النجوم وترجمة أُصوله وفصوله إلى العربية، ولم يقنعوا بترجمة النجوم فقط، بل نقلوا إلى لغة الضاد كتب الفلاسفة في أنواع العلوم من لغتها الفارسية، وتفوقوا بتقدمهم في أكثر العلوم النافعة ونبغوا في الشعر والأدب العربي

---

(١) نعمة ـ عبد اللّه، فلاسفة الشيعة: ١٧٢.

(٢) القفطي، أخبار الحكماء: ١١٤.

(٣) متز ـ آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ / ٣٦٦.

(٤) ابن طاووس، فرج الهموم في تراجم علماء النجوم: ١٢١.

(٥) القمي ـ عباس، الكنى والألقاب: ١ / ١٣٤.

وخدموا الجامعة الإسلامية بالتأليف والترجمة والإنشاء والتدريس والمجادلات الكلامية، كما خدموا الدولة العباسية بالنصح والمشورة والإدارة والوزارة عن صدق وإخلاص..»[1].

ويضيف أيضا: «فعاشت العائلة النوبختية في الدولة العباسية وبيدها مقاليد أبواب الأفلاك وارصاد النجوم، وصاروا عيونا لمراقبة الكواكب، وضباط حركتها وخزان بيوت الحكمة وتراجمتها، وخلفاء الفلاسفة والسنتها، ومصابيح العلوم وكنوزها، ومفاتيح رموزها»[2].

وقد اشتهرت العائلة النوبختية في الأوساط المذهبية ببغداد بشيعيتها، وولائها لأهل البيت عليهم السلام.

يقول ابن النديم: «إنّ آل نوبخت معروفون بولاية عليّ وولده عليهم السلام في الظاهر»[3].

ويقول السّيد ابن طاووس: «وبنو نوبخت من أعيان هذه الطائفة المحقة المرضية، ومنهم وكيل مولانا المهدي صلوات اللّه عليه أبو القاسم الحسين بن روح»[4].

ويصفهم السيّد حسن الصدر بقوله: «إنّ آل نوبخت علماء وحكماء متكلمون إماميون»[5].

ويقول عنهم السيّد الشهرستاني: «وكانوا متمسكين مع تبحرهم في التنجيم واختصاصهم بدراسة الفلسفة، بالدين وأوامره، معظمين لشأن الإسلام وشعائره ومما

---

(١) الشهرستاني ـ هبة الدين، مقدمة كتاب فرق الشيعة: ص: و طبعة الحيدرية، (١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م).

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ابن النديم، الفهرست: ٢٥١.

(٤) ابن طاووس ـ رضي الدين، فرج المهموم: ٤٠.

(٥) الصدر ـ حسن، تأسيس الشيعة: ٣٦٣.

يدلك على اخلاصهم الصادق أنهم لم يختلفوا في المذهب، مع أن عصرهم كان عصر التفرق والتمذهب، فقد دانوا بالإسلام من عهد أبي جعفر، واختصوا بالمذهب الجعفري، واستمروا مستمسكين بذلك الدين وذاك المذهب، ثمّ لم يحيدوا عنهما قيد شعرة إلى النهاية، ولم يختلف مذهبهم الإسلامي بالرغم من كل اختلاف حدث للناس في مذاهبم وتفرقهم في مسالكهم وأفكارهم..»[1].

أما السيّد الأمين في «الأعيان» فهو يشكك في أن يكون جد الأُسرة «نوبخت» وابنه «أبو سهل» من الشيعة، ولكنه يجزم بأن بقية أعقابهم شيعيون، قال: «أما باقي طائفته فكلهم شيعة، بل فيهم المدافعون عن مذهب الشيعة، المحامون باحتجاجاتهم ومؤلفاتهم»[2].

ومهما يكن من أمر، فإنّ أمر هذه الأُسرة أشهر من أن يذكر ويفصل فيه، فهي أُسرة توارثت العلوم والمعارف، وأعقبت ذرية علمية وفلسفية لمعت في تاريخ العلم والثقافة والفلسفة والنجوم وغيرها.. وبرز من هذا البيت رجالات علمية وفكرية، وشخصيات سياسية واجتماعية لامعة مرموقة[3].

فلابدّ لنا، ونحن نؤرخ لبعض جوانب مدرسة أهل البيتعليهم السلام في بغداد من التوقف عند تراجم بعض أعلام هذه الأُسرة ممن كان لهم أسهام علمي وسياسي وديني بارز، ومن أكثرهم آثارا وتأليفا.

وسوف نبدأ من جدهم الأعلى «نوبخت» ثمّ نذكر بعض البارزين من أولاده وأحفاده، باعتبارهم الممثلين لاتجاه أُسرة «آل نوبخت» العلمية.

---

(١) الشهرستاني، المقدمة: ز.

(٢) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ٣ / ٣١١ و ٣ / ٣٨٣.

(٣) نعمة ـ عبد اللّه، فلاسفة الشيعة: ١٧٢ ـ ١٧٣.

١ ـ نوبخت:

كلمة «نُوبَخت» مركبة من كلمتين (نو) بمعنى الجديد و (بخت) بمعنى الحظ، أي الحظ الجديد، «وهو اسم فارسي لرجل فارسي اشتهر بعلم النجوم وعملها في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية، وعمَّر أكثر من مائة سنة»[١].

وعرفت أُسرة (بنو نوبخت) باسم مؤسسها (نوبخت)، وعرفت هذه الأُسرة في التاريخ منذ عهد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، ثمّ عاصروا الخلفاء الذين جاؤوا من بعده.

أما عن كيفية اتصال هذه الأُسرة بالسلطة العباسية بواسطة جدهم الأعلى (نوبخت)، فالروايات التاريخية تحدثنا: «أنّ نوبخت كان مسجونا في الأهواز قبل أن يحكم المنصور أي قبل سنة (١٣٦ هـ).. وإنّ أبا جعفر المنصور قد أدخل السجن..» فتعرف عليه نوبخت وتنبأ له بأنه سيملك البلاد «حتى تملك فارس وخراسان والجبال». ثمّ قال له: «فاذكر لي هذه البشرى..» وكتب أبو جعفر المنصور كتابا يوعده وعدا حسنا، قال نوبخت: «فلما ولي الخلافة صرت إليه فأخرجت الكتاب، فقال: أنا له ذاكر، ولك متوقع»[٢] كذلك أنبأه بانتصاره على إبراهيم بن عبد اللّه المحض بن الحسن المثنى الثائر في البصرة والمقتول بها، فذكر الطبري ضمن سياق حديثه عن وقائع سنة (١٤٥ هـ). قال: فبلغني أن (نوبخت) المنجّم دخل على أبي جعفر، فقال: يا أمير المؤمنين، الظفَرُ لك، وسيُقتل إبراهيم، فلم يقبل ذلك منه، فقال له: احبسني

---

(١) الشهرستاني ـ هبة الدين، مقدمة كتاب فرق الشيعة للنوبختي: ب، صححه وعلّق عليه: السيّد محمد صادق آل بحر العلوم، طبعة الحيدرية، ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٠ / ٥٦.

عندك، فإن لم يكن الأمر كما قلت لك فاقتلني، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخبر بهزيمة إبراهيم، فتمثل بيت معقر بن أوس:

فألقتْ عَصاها واستقرّتْ بها النَّوى		كمـا قـرَّ عينـا بالإيـاب المسـافرُ

فأقطع أبو جعفر (نوبخت) ألفي جريب بنهر جَوبر، وفي رواية ابن الأثير «بنهر حويزة»[1].

«وكان نهر جَوْبر من المناطق القريبة من بغداد في الجانب الغربي من نهر دجلة، ويبدو أنّ نوبخت وأولاده ابتنوا لهم دورا وأنشأوا ابنية في الألفي جريب التي أقطعها المنصور نوبخت..»[2].

لقد عظمت شهرة نوبخت ومنزلته في الدولة العباسية، فكان وابنه أبو السهل من خاصّة المنجمين عند المنصور، وعندما اعتزم المنصور انشاء بغداد، وضع أساسها في الساعة التي اختارها نوبخت، حسب الأحكام النجومية[3].

أما وفاة نوبخت فليس لدينا نص يدل على تاريخ وفاته سوى أنه شاخ وضعف في أيام خلافة المنصور «فلما ضعف عن الخدمة قال له المنصور احضر ولدك ليقوم مقامك، فسير ولده أبا سهل» فخوّل المنصور ولده أبا سهل وظيفة أبيه. ويبدو أنّ نوبخت لم يعقب ولدا آخر غيره، لأنّ نسب آل نوبخت ينتهي إليه. ولم يذكر في الكتب والأشعار ولد لنوبخت سواه»[4].

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري: ٧ / ٦٤٨، حوادث سنة ١٤٥ هـ بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣ / ٥٩٠.

(٢) الآشتياني ـ عباس اقبال، آل نوبخت: ٢٧ تعريب: علي هاشم، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ.

(٣) المرجع نفسه: ٢٦.

(٤) أُنظر الشهرستاني، مقدمة فرق الشيعة: ج، والآشتياني، آل نوبخت: ٢٨.

٢ ـ أبو سهل بن نوبخت:

تسلم أبو سهل مهام والده (نوبخت) في التنجيم والترجمة في بلاط المنصور العباسي، وصحب المنصور منذ بناء بغداد سنة (١٤٤ هـ) وإلى حين وفاته سنة (١٥٨ هـ).

وعاش أبو سهل بعد المنصور مدّة، وأدرك عصر هارون الرشيد (ت ١٩٣ هـ).. ويبدو أنّه توفي في أوائل حكومة هارون إذ لم يَرد له ذكر منذ ذلك الحين»[١].

إلّا أنّ الشهرستاني يحدد سنة وفاته بقوله: «وعمر أبو سهل زهاء ثمانين سنة وأدرك سبعة من الخلفاء وتوفي سنة (٢٠٢ هـ) في عصر المأمون»[٢].

وأما آثاره العلمية:

لقد ترك أبو سهل النوبختي آثارا علمية ضمن تخصصه في علم النجوم والترجمة، وكان معوله في علم النجوم على معلومات المنجمين الفرس وكتبهم في العهد الساساني، كما أنه كان في بيت الحكمة أو خزانة الحكمة»[٣].

وذكر له ابن النديم في الفهرست الكتب السبعة التالية:

١ ـ كتاب النهمطان أو اليهبطان في المواليد.

٢ ـ كتاب الفأل النجومي.

٣ ـ كتاب المواليد.

٤ ـ كتاب تحويل سني المواليد.

---

(١) الآشتياني، آل نوبخت: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) الشهرستاني، مقدمة فرق الشيعة: د.

(٣) الآشتياني، آل نوبخت: ٣١، وابن النديم، الفهرست: ٣٣٣.

٥ ـ كتاب المدخل.

٦ ـ كتاب التشبيه والتمثيل.

٧ ـ كتاب المنتحل من أقاويل المنجمين في الأخبار والمسائل والمواليد[١].

ومن خلال عناوين مؤلفاته يتضح لنا أنه لم يكتب لمذهب معين، أو دفاعا عن فكرة مذهبية يؤمن بها، كما أن كتبه تدخل ضمن تخصصه في علم النجوم وليس فيها من كتب الكلام أو الفلسفة شيءٌ يذكر، مع أنّ ابن القفطي يؤرخ له في تاريخ الحكماء بقوله: «إنه مذكور مشهور من أئمة المتكلمين، وذكر في كتب المتكلمين وكان في زمن هارون الرشيد، وولّاه القيام بخزانة كتب الحكمة، في أواخر المائة الثانية»، ويصفه السيّد الصدر بقوله: «الفيلسوف المتكلم المتأ لّه، وحيد في علوم الأوائل»[٢].

ومهما يكن من أمر، فقد خلَّف أبو سهل بن نوبخت ابناء كثيرين، وذكرت أسماء عشرة منهم في كتب الأخبار والأشعار[٣]، وهم يشكلون مدرسة علمية لامعة في تاريخ العلم والثقافة والفلسفة والنجوم وغيرها، منهم: سهل، وسليمان، وإسحاق، وإسماعيل، وهارون، ومحمد، وعبد اللّه، وعبيد اللّه، وغيرهم، وكلٌّ كاملٌ غير خامل الذكر[٤].

يبقى أن نشير إلى أن بعض الكتّاب كابن النديم في الفهرست، والقفطي في تاريخ الحكماء، ذكروا أن اسم (أبو سهل) هو الفضل، «ويبدو أن هذا سهو، لأنّاسم (أبو

---

(١) ابن النديم، الفهرست: ٣٣٣.

(٢) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١ / ١٣٥، والسيّد حسن الصدر، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ٣٦٤.

(٣) الآشتياني، آل نوبخت: ٣٣.

(٤) الشهرستاني، المقدمة: د.

سهل) قد أُبطل من قبل المنصور لطوله، فاختيرت له هذه الكنية، كما أن لأبي سهل ولدا يُدعى الفضل، ولعلّ ابن النديم قد شُبِّه عليه إذ تصوّر أن أبا العباس الفضل بن أبي سهل بن نوبخت هو أبو سهل بن نوبخت نفسه..»[1].

وسوف نتوقف عند أبرز أفراد هذه الأُسرة وأكثرهم علما وآثارا.

٣ ـ إسماعيل بن علي بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت أبو سهل (٢٣٧ ـ ٣١١ هـ):

وهو من أهم شخصيات بني نوبخت في العصر المزامن لعصر الغيبة، قال عنه النجاشي: «كان شيخ المتكلّمين من أصحابنا وغيرهم، له جلالة في الدنيا والدين يجري مجرى الوزراء في جلالة الكتّاب»[2].

ووصفه الشيخ الطوسي بقوله: «كان شيخ المتكلمين من أصحابنا ببغداد ووجههم ومتقدم النوبختيين في زمانه..»[3].

والذي يبدو من خلال مفردات ترجمة حياته أنه كان من الشخصيات المرموقة واللامعة في عصره، وكانت له نشاطات إدارية وعلمية متعددة الجوانب، وكان له امتداد في وسط الأُمة بعد رحيله من خلال تلامذته ومؤلفاته الكثيرة، وفيما يلي بعض جوانب من هذه النشاطات الإدارية والفكرية وباختصار شديد:

أولاً: الجانب الإداري:

لقد كان لأبي سهل إسماعيل بن علي النوبختي مناصب إداريّة مهمة في ديوان

---

(١) الآشتياني، آل نوبخت: ٣٢.

(٢) النجاشي، الرجال: ٣١.

(٣) الطوسي، الفهرست: ١٢.

الحكومة، يشير إليه الشيخ النجاشي إجمالاً في ترجمة له حيث يقول: «له جلالة في الدنيا والدين يجري مجرى الوزراء في جلالة الكتَّاب»[1]. مما يعني أنّ أبا سهل كان يتمتّع بنفوذ كبير في البلاط العبّاسي.

إلّا أنّ المعلومات التي بين أيدينا حول الحياة الإدارية لأبي سهل تعود إلى السنوات الأخيرة من عمره، والتي عاصر فيها الخليفة العباسي المقتدر الذي بويع سنة (٢٩٥ هـ) وهو ابن ثلاث عشرة سنة[2]، والذي قتل سنة (٣٢٠ هـ)، والذي يعدّ عهده من عهود النكسة في الحكم العباسي. يقول ابن الأثير في الكامل: «على أن المقتدر أهمل من أحوال الخلافة كثيرا، وحكّم فيها النساء والخدم، وفرّط في الأموال، وعزل من الوزراء وولّى، ممّا أوجب طمع أصحاب الأطراف والنّواب، وخروجهم عن الطاعة..»[3]. ويكفينا هذا الاجمال عن الخوض في التفاصيل التي لا صلة لها بموضوع بحثنا.

كذلك ليس لدينا تفاصيل حول العناوين الإدارية لأبي سهل في البلاط العباسي، وعلى الإجمال «إنه كان يتصدّر بعض الأعمال في الجهاز الحاكم.. أو كان يكلّف بانجاز بعضها في الأمصار مبعوثا من قبل رؤساء الدواوين..»[4].

وخلاصة الأمر، إنّ الرجل كان له نفوذ كبير في الجهاز العباسي الحاكم، واستعمل هذا النفوذ لصالح مدرسة أهل البيت عليهم السلام «وكان الإمامية يعيشون بعزٍّ يومذاك بتأثير أبي سهل إسماعيل، وكان رجال من آل نوبخت ذوي رئاسة وقدرة في بغداد، كأبي

---

(١) النجاشي، الرجال: ٣١.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري: ١٠ / ١٣٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥ / ١٣٧.

(٤) الآشتياني، آل نوبخت: ١٢٤.

الحسين علي بن عباس (٢٤٤ ـ ٣٢٤ هـ) وأبي القاسم الحسين بن روح المتوفى سنة (٣٢٦ هـ)»[١].

ثانيا: الجانب العقائدي والفكري:

لقد ظهرت في عصر أبي سهل تيارات عقائدية وفكرية منحرفة ومن ورائها رجال قد عرف بعضهم بتشيّعه وانتسابه لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، ولم يمكن لأحد من التصدي لهؤلاء إلّا لمن يمتلك ناصية العلم والجدل، حتى يمكنه من مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل، فكان أبو سهل إسماعيل ابن بجدتها وفارس مضارها. وفيما يلي بعض ملامح هذا التصدى:

أ ـ دحض دعوى الحلاج:

ومن الدعوات التي ظهرت في بغداد دعوة (الحسين بن منصور الحلّاج) الذي ادعى أنه وكيل لصاحب الزمان عليه السلام وكاتَبَ أبا سهل يدعوه إليه والإيمان به! فناهضَ أبو سهل دعوته بشدة، لأنها كانت تهدّد الأساس الذي يقوم عليه الكيان الشيعي.. فلم يَدع دعوته تنتظم في بغداد، بل وبحسب تعبير الشيخ الطوسي: «وصيّره أبو سهل رحمه الله أُحدوثة وضحكة.. وشهّر أمره عند الصغير والكبير، وكان هذا الفعل سببا لكشف أمره وتنفير الجماعة عنه»[٢].

وقد أفضى الأمر بعد ذلك إلى القبض على الحلّاج وقتله سنة (٣٠٩ هـ).

ويحاول المستشرق الفرنسي لويس ماسنيون (Louis Massicnon) في كتابه عن

---

(١) الآشتياني، آل نوبخت: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) الطوسي، الغيبة: ٤٠٢، تحقيق: عبد اللّه الطهراني وزميله، طبعة مؤسسة المعارف ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١١ هـ.

الحلّاج أن يتهم ابن نوبخت بالتحريض على قتل الحلّاج، فيقول: «لقد كان ابن نوبخت من اتهم الحلّاج أمام السلطات العباسية بأ نّه مدّعي الربوبية، فقد كان زعيم الإمامية في بغداد ووثيق الصلة مع الوزير ابن الفرات، وأول من بدأ بملاحقة الحلّاج (عراه) فيهما كما ادعى»[1].

كما أنّ الآشتياني في كتابه (آل نوبخت) كرّر هذه الدعوى بقوله: «ويُحتمل بعامّة أنّ أبا سهل النوبختي كان متفقا مع حامد بن عباس في قتل الحلّاج، ولعلّه كان من محرّضيه على ذلك»[2].

وهذه الدعوى ينقصها الدليل البين فالذي «أفتى بهدر دم الحلّاج هو أبو بكر محمد بن داود إمام الظاهرية وذلك سنة (٢٩٧ هـ) ففرّ الحلّاج من بغداد وآوى إلى شوشتر والأهواز، فلاحقه ولاة السلطان العباسي مرّة أُخرى سنة (٣٠١ هـ)» وقبضوا عليه وأتوا به إلى بغداد في عصر وزارة علي بن عيسى وحُبس ثماني سنين، ثمّ أُعدم في (٢٤ من ذي القعدة سنة ٣٠٩ هـ) بعد سبعة أشهر من المحاكمة بفتوى القضاة وائمة الدين، وبأمر المقتدر ووزيره حامد بن العباس[3].

ويقول لويس ماسينيون: «أثار ابن داود قضية الحلّاج أمام الرأي العام في عاصمة الامبراطورية، بغداد، بشدّة وعنف، قبل أن تُعرض على محكمة قانونية، وذلك من وجهة نظر دينية حنفية وفلسفية.. وكان ابن داود، فقيها شابا وزعيما لمذهب

---

(١) ماسينيون ـ لويس، آلام الحلّاج: ٢٨٤، ترجمة: حسين مصطفى حلاج، طبعة شركة قُدمُس ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ٢٠٠٤م.

(٢) الآشتياني، آل نوبخت: ١٢٨.

(٣) المرجع نفسه: ١٤٢.

الظاهرية»[1].

لقد كان يكفي أبو السهل أن يفشي أمر الحلّاج في بغداد، وأن ينقل كذب دعاواه ومخاريقه في المجالس، وأن يحصن الكيان الإمامي من أمثال هذه الدعوى، وهذا ما حصل فعلاً، أما مسألة سجنه وقتله وصلبه، فهي ليست مسألة ذات أهمية بعد فضح ما يدعيه.

ب ـ التصدي لدعوى علي بن الحسن الطاطري:

يعرفه النجاشي بقوله: علي بن الحسن.. يكنى أبا الحسن، وكان فقيها، ثقةً في حديثه، وكان من وجوه الواقفة وشيوخهم.. له كتب منها: كتاب التوحيد، الإمامة..»[2].

عُرِّفَ الواقفة في كتب الفرق والمذاهب بأنهم الجماعة التي وقفت على امامة الإمام موسى بن جعفر الكاظم ولم تؤمن بإمامة الإمام علي بن موسى الرضا والأئمة من بعده عليهم السلام، وقد لقبت بألقاب من قبل مخالفيها، منها: الواقفة الممطورة، والواقفة البشرية، ومنهم الواقفة الذين مذهبهم مذهب المفوضة الغالية، ممن «قالوا بالتناسخ وأنّ الأئمة عندهم واحد، إنما هم متنقلون من بدن إلى بدن..»[3]، وله مقولات قبيحة تجدها في كتب الفرق والمذاهب.

وكان للواقفة حضور فاعل في بغداد، وتصدى لهم علماء الشيعة، ودخلوا معهم في حرب كلامية، ودحضوا حججهم الواهية، وأسقطوهم من أعين الناس حتى عرفوا في

---

(١) ماسينيون ـ لويس، آلام الحلّاج: ٣٠١.

(٢) النجاشي، الرجال: ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٣) أُنظر: النوبختي ـ الحسن بن موسى، فرق الشيعة: ٧٨ وما بعدها. تحقيق: محمد صادق بحر العلوم.

زمانهم بـ (الممطورة) وغلب عليهم هذا الإسم وشاع، «وكان سبب ذلك أن (علي بن إسماعيل الميثمي) و (يونس بن عبد الرحمن) ناظرا بعضهم، فقال له علي بن إسماعيل ـ وقد اشتد الكلام بينهم ـ ما أنتم إلّا كلاب ممطورة..»[1].

وممن نَظَّر للفكر الواقفي هو الطاطري علي بن محمد الذي يعتبر من فقهاء الواقفة وشيوخهم ووجهائهم، وكان معاصرا للإمام الكاظم عليه السلام ومع أنه كان فقيها وثقة في حديثه، لكنّه كان يُبدي تعصّبا وعنادا شديدا في الدفاع عن مذهب الواقفة وردّ عقائد الشيعة، وألّف كتبا عديدة بلغت ثلاثين كتابا في تأييد عقائده، منها كتاب في الإمامة، ويبدو أنّ هذا الكتاب هو الذي ردّ عليه أبو سهل النوبختي»[2] بكتاب عنوانه: (الردّ على الطاطري في موضوع الإمامة) كذلك نجد في فهرست كتبه كتاب الردّ على الواقفة[3].

ج ـ الرد على ابن الراوندي (ت ٢٤٥ هـ):

يعتبر الراوندي أو ابن الراوندي من الشخصيات العلمية القلقة والمتقلبة، والذي كثر اللغط حول شخصيته، وقد تصدى له الشيخ النوبختي من خلال مجموعة من المؤلفات.

ترجم له ابن النديم في الفهرست فقال: «قال البلخي في كتاب محاسن خراسان، هو أبو الحسين، أحمد بن يحيى الروندي] هكذا] من أهل مرو الرود، من المتكلمين، ولم يكن في زمانه في نظرائه أحذق منه بالكلام، ولا أَعْرف بدقيقه وجليله

(١) النوبختي، فرق الشيعة: ٨١.

(٢) الآشتياني، آل نوبخت: ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٣) النجاشي، الرجال: ٣٢.

منه، وكان أول أمره حسن السيرة، جميل المذهب.. ثمّ انسلخ من ذلك كلّه بأسباب عرضت له، ولأنّ علمه كان أكبر من عقله.. وقد حكي عن جماعة، أنه تاب عند موته مما كان منه، واظهاره الندم.. وأكثر كتبه الكفريات أ لّفها لأبي عيسى اليهودي الأهوازي، وفي منزل هذا الرجل توفي.

فمما أ لّف له من الكتب الملعونة؛ كتاب التاج يحتج به لقدم العالم، كتاب الزمرد، يحتج فيه على الرُّسل وابطال الرسالة.. كتاب الدامغ، يطعن فيه على نظم القرآن، كتاب القضيب الذي يثبت فيه أن علم اللّه بالأشياء محدث وإنه كان غير عالم حتى خلق لنفسه علما، كتاب الفريد في الطعن على النبيﷺ..» ثمّ يذكر له قائمة من المؤلفات الأُخرى[1].

وقد اختلف في مذهب الرجل، بل وفي إسلامه أيضا، فنسبه الأشعري إلى الشيعة وذكره ضمن مؤلفي كتب الشيعة، وقال: وقد انتحلهم أبو عيسى الوراق، وابن الراوندي وأ لّفا لهم كتبا في الإمامة. كذلك عدّه أبو الفتح الشهرستاني من مؤلفي الشيعة أيضا[2] ونسبه بعضهم إلى الاعتزال فقيل، كان من متكلّمي المعتزلة ثمّ اعتنق مذهب الشيعة الإمامية، ورُمي بالزندقة..[3].

ومن خلال بعض عناوين كتبه التي أشار إليها ابن النديم، إتُهم بالإلحاد والزندقة، وردّ عليها جماعة، ونقض هو بعضها.

وكان الراوندي يناقض كتبه بنفسه، فهو يكتب كتاب الزمرد، والمرجان، والدامغ..

---

(١) ابن النديم، الفهرست: ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٢) السبحاني، معجم طبقات المتكلمين: ١ / ٣٦٣ ـ ٣٦٤ عن الأشعري في المقالات: ٦٤، والشهرستاني في الملل: ١ / ١٩٠.

(٣) المرجع نفسه: ١ / ٣٦٣.

ثمّ يكتب كتاب نقض الزمرد، وكتاب نقض المرجان، وكتاب نقض الدامغ..»[1].

وقد نظَّر للمعتزلة، وكان من أقطابها، حيث ذكره ابن النديم في ذكر قوم من المعتزلة أبدعوا..»[2].

إلّا أنّه نقض عليهم بكتاب: «فضايح المعتزلة» وكتاب: «الرد على المعتزلة في الوعيد والمنزلة بين المنزلتين»[3].

وقد ردّ على كتبه التي كتبها ضد المعتزلة ابن الخياط المعتزلي بكتابه الانتصار. وللسيّد المرتضى في الشافي والسيّد محسن الأمين في الأعيان توجيه لهذا النقض والإبرام في كتب الراوندي، وعدّه المرتضى من الشيعة[4].

وقد تصدى النوبختي أبو سهل إسماعيل بن علي للردّ على مجموعة من كتب الراوندي والتي تناولت قضايا عقائدية وكلامية دقيقة وحساسة، منها:

١ ـ الردّ على ابن الراوندي في باب الإنسان[5].

٢ ـ كتاب السبك في نقض كتاب التاج لابن الراوندي.

٣ ـ نقض كتاب ابن الراوندي في باب اجتهاد الرأي.

٤ ـ نقض عَبَث الحكمة لابن الراوندي.

---

(١) أُنظر الفهرست لابن النديم: ٢١٧.

(٢) المرجع نفسه: ٢١٤ ـ ٢١٦.

(٣) المصدر نفسه: ٢١٧.

(٤) أُنظر: السيّد المرتضى، الشافي في الإمامة: ١ / ٨٧ ـ ٨٨، والسّيد الأمين، أعيان الشيعة: ٣ / ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

(٥) النجاشي، الرجال: ٣٢، وللتوسع أُنظر: مقالات الإسلاميين للأشعري: ٣٢٩، ٣٣٣.

د ـ الردّ على أصحاب اجتهاد الرأي والقياس:

لقد أسس الإمام الصادق(عليه السلام) مدرسته الفقهية على أُسس متينة تستند إلى كتاب اللّه، وسنة النبي(صلى الله عليه وآله) الواردة من خلال أهل بيته(عليهم السلام)، وأبطل وبشكل قاطع اجتهاد الرأي والقياس. وسار فقهاء الشيعة على هذا المنهج ورووا أحاديث كثيرة عن أئمة الهدى في ابطال القياس، منها ما روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنه قال: «القياس ليس من ديني»[1] كذلك روي عنه قوله(عليه السلام): «إنّ أصحاب المقائيس طلبوا العلم بالمقائيس فلم تزدهم المقائيس من الحق إلّا بُعدا، إنّ دين اللّه لا يصاب بالمقائيس»[2].

إلّا أنّ بغداد قد شهدت حراكا علميا من قبل أتباع المذاهب ومنها مذهب الإمام أبي حنيفة الذي كان من أوائل الوافدين على بغداد أثناء تأسيسها، وكثر فيها أتباعه من أصحاب الرأي والقياس، وأخذت قضية القياس والرأي جانبا تنظيريا فأُلّفت في ذلك مجموعة من المؤلفات منها كتب أبي موسى عيسى بن أبان الذي كان من قضاة أصحاب الرأي والقياس وفقهائهم، وألّف في ذلك عددا من الكتب منها: «إثبات القياس» وكتاب «اجتهاد الرأي»[3]، وهذان الكتابان ردّ عليها أبو سهل بكتابين أو ثلاثة حسب اختلاف العناوين منها:

١ ـ كتاب؛ النقض على عيسى بن أبان في الاجتهاد[4].

٢ ـ كتاب؛ الردّ على عيسى بن أبان في موضوع القياس[5].

---

(١) الكشي، الرجال: ١٢٥.

(٢) الكليني، الكافي: ١ / ٥٦ باب البدع والرأي والمقائيس، رقم الحديث ٧ و ١٤.

(٣) الآشتياني، آل نوبخت: ١٤٧.

(٤) النجاشي، الرجال: ٣٢.

(٥) الآشتياني، آل نوبخت: ١٤٦.

٣ ـ كتاب؛ ابطال القياس[1].

كما أننا نجد في فهرست مؤلفاته كتابا بعنوان: «نقض رسالة الشافعي»[2].

ولعلّه ردّ على الرسالة التي أ لّفها محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة (٢٠٤ هـ)، في موضوع أُصول الفقه، وقد عرّف الكتاب بـ (الرسالة) وهو أوّل كتاب صنّف في علم الأُصول بحسب رأي أهل السنة. وقد مرّت الإشارة لهذه الدعوى في ثنايا بعض البحوث السابقة.

كذلك نجد في عناوين كتبه كتاب: «الخصوص والعموم والأسماء والأحكام»[3] ولعلّه يتعلّق بمباحث الألفاظ من علم أُصول الفقه.

هـ ـ الرد على الجبرية وأصحاب الصفات واليهود ومنكري الرسالة:

لقد كانت الساحة الفكرية ببغداد مسرحا واسعا لأصحاب الآراء والجبرية والدهريين وأتباع الديانات الأُخرى، وكان لهم نشاط فكري، أخذ صورا متعددة كالجدل والاحتجاج، والتصنيف والتأليف، والدرس والمناظرة، عكست لنا جوانب منها كتب المقالات والفرق، والملل والنحل.. ولما كان لمقولات أُولئك ومناهجهم الفكرية آثارها السيئة والتخريبية في الوسط الديني والفكري، كان من اللازم التصدي لها، فانبرى ابن نوبخت للردِّ عليهم ضمن مجموعة من مؤلفاته منها:

١ ـ كتاب في الردّ على اليهود.

٢ ـ كتاب في الردّ على المجبرة في المخلوق.

---

(١) الآشتياني، آل نوبخت: ١٤٧.

(٢) الطوسي، الفهرست: ١٣.

(٣) النجاشي، الرجال: ٣٢.

٣ ـ كتاب في الصفات.

٤ ـ كتاب في الاحتجاج لنبوة النبي ﷺ[1].

وهنالك عناوين أُخرى تجدها في فهرست كتبه.

ثالثا: تثبيت الأُصول والمسائل الكلامية والإمامة:

وكانت لابن نوبخت جهود مضنية؛ لتثبيت وتجذير الأُسس التي انطلق منها علم الكلام الإمامي، فنجد له مجموعة من المؤلفات في عناوين تراثه منها: كتاب الخواطر، وكتاب المعرفة، وكتاب حدوث العالم، وكتاب في التوحيد، وكتاب في الإرجاء، وكتاب في استحالة رؤية اللّه وغيرها من العناوين الأُخرى[2].

كما أنّ قضية الإمامة قد أخذت حيزا كبيرا من جهوده من حيث المناظرة أو من حيث التأليف والكتابة.

لقد انصبّت جهود أبي سهل النوبختي في قضية الإمامة في محورين أساسيين:

الأول: الدفاع عن العقائد التي دوّنها عدد من متكلمي الإمامية قبله، بعد أن حظيت بتأييد أئمة الهدى عليهم السلام وقبول جمهور الإمامة.

الثاني: تثبيت مسألة الإمامة من خلال استخدام الأدلة العقليّة في إثبات وجوب الإمامة وبيان أوصاف الإمام، بعد أن كان استدلال أغلب متكلّمي الشيعة السابقين في قضية الإمامة يستند إلى النص الجلّي أو الخفي، ومن خلال الأدلة السمعية والنقلية، فأضاف النوبختي الدليل العقلي، «وإذا كان قد استظهر بالأدلّة السمعية فمن أجل تأييد الأدلة العقلية والتصرّف في الاستدلال، وكان الشريف المرتضى يقتني كتب أبي

(١) النجاشي، الرجال: ٣٢.

(٢) الطوسي، الفهرست: ١٢ ـ ١٣.

سهل وأبي محمد النوبختي، فكتب في ردّه على القاضي عبد الجبار المعتزلي: «وهذه كتب أبي محمد وأبي سهل (رحمهما اللّه) في الإمامة تشهد بما ذكرناه..»[1].

وكان لاحتجاج.. أبي سهل في إثبات وجوب الإمامة وتقرير صفات الإمام بالأدلة العقلية دور في جعل الإمامة من أُصول الدين عند الإمامية مثلها مَثل التوحيد، والعدل، والنبوة.

وصنّف أبو سهل ـ كما بيّنا ـ في موضوع الإمامة كتبا عديدة، ووقّف عمره على الدفاع عن عقائد الإمامية، وردّ الغلاة والواقفة وأهل السنة. ويمكن القول إنّ كتبه وآراءه في موضوع الإمامة قد بزّت جميع مؤلفات المتكلمين الذين سبقوه، وأصبحت مرجعا للمتكلمين الذين جاؤوا بعده، وهذا من بركات الطلّاب الكثيرين الذين تربّوا على يده ونشروا كتبه وعقائده، إضافة إلى ما كان له من منزلة علميّة ونفوذ واعتبار وشوكة»[2].

رابعا: ابن نوبخت وقضية غيبة الإمام عليه السلام:

لقد ولد أبو سهل النوبختي سنة (٢٣٧ هـ) أي في عصر الإمام الهادي عليه السلام وعندما توفي الإمام العسكري سنة (٢٦٠ هـ) كان له من العمر ثلاث وعشرون سنة، وتوفي سنة (٣١١ هـ) وهو ابن أربع وسبعين، أمضى منها إحدى وخمسين سنة من عمره في أيام الغيبة الصغرى، وصادفت وفاته في أيام سفارة النائب الثالث الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح النوبختي، وهما من بيت واحد[3].

---

(١) الآشتياني، آل نوبخت: ١٢٩ ـ ١٣٠، وأُنظر: الشافي في الإمامة للسيّد المرتضى: ١ / ٩٨، حققه السيّد عبد الزهراء الخطيب، طبعة مؤسسة الصادق ـ طهران، الطبعة الثانية، ١٤١٠ هـ.

(٢) المرجع نفسه: ١٣١.

(٣) الآشتياني، آل نوبخت: ١٣٤.

وتعدّ هذه الفترة من عصر الغيبة، من أشد الفترات توتّرا بالنسبة إلى الكيان الشيعي، فالسلطة العباسية قد شدّدت من اجراءاتها ضد الشيعة واذاقتهم شتى صنوف التنكيل والأذى، وخاصة بعد وفاة الإمام العسكري واختفاء ولده عليهما السلام.

وهذا التشديد الحكومي جَرّأ مناؤو الشيعة على معارضتهم وتصعيد آلية المواجهة مع أقطاب الحركة الإمامية. بل إنَّ هذه الفترة من عصر التشيع قد شهدت تصدُّعا في الكيان الشيعي «فبرز الخلاف بين صفوفهم وبلغ بهم مبلغا أنهم صاروا أربع عشرة فرقة يكفّر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا»[1].

لقد كاد الكيان الشيعي الذي كانت أركانه قد توطّدت بجهود بذلها رجاله على امتداد السنين أن يتقوّض وتنهدَّ أركانه لولا جهود أبي سهل إسماعيل بن علي النوبختي الذي «كان رئيس الأُسرة والموجّه للشيعة الإمامية في فترة من فترات ذلك العصر،.. فمن الطبيعي أ نّه لم يكن بوسعه في تلك الظروف المحفوفة بالمخاطرة أن يسكت»[2].

لقد تجلت جهود النوبختي في عصر الغيبة بما يلي:

أولاً: الدفاع عن مسألة الإمامة:

والتنظير لها بصورة محكمة ومتينة ووفقا للأُصول المذهبية عند الإمامية، وابراز العقيدة الصحيحة في قضية الغيبة، وعدم فسح المجال لكلّ شخص أن يُبدي رأيا في الغيبة مخالفا فيه آراء الآخرين مما يعني تشتت الآراء وتشتت الشيعة تبعا لذلك، وقد أشرنا سابقا إلى مؤلفاته في موضوع الإمامة.

---

(١) الآشتياني، آل نوبخت: ١٣٥.

(٢) المرجع نفسه: ١٣٨.

ثانيا: رواية حادث ولادة الإمام المهدي عليه السلام:

لقد شهد ابن نوبخت وبشهادة حسية الإمام الثاني عشر، ورؤيته وغيبته، ففي رواية طويلة يرويها الشيخ الطوسي في الغيبة، يفصل فيها ابن نوبخت قصة دخوله على الإمام العسكري عليه السلام «في المرضة التي مات فيها» واستدعاءه لولده الحجة عليه السلام ومثوله بين يديه، قال أبو سهل: «فلمّا مثل الصبي بين يديه سلّم وإذا هو دريُّ اللّون،.. فلمّا رآه الحسن عليه السلام بكى» ثمّ يروي: «ومات الحسن بن علي [العسكري] من وقته صلوات اللّه عليهم أجمعين»[1].

ولهذه الرواية الحسية ومن شخص ابن نوبخت الذي كانت له الرياسة على الشيعة في حينه أثرها البالغ في قطع نزاع القوم الذين شككوا في ولاته.

ثالثا: التصدّي لأدعياء النيابة:

لقد برز في عصر الغيبة الصغرى وفي الفترة التي عاصرها ابن نوبخت بعض المنحرفين عن خط الإمامة، والمدعين للنيابة والوكالة عن الإمام الغائب عليه السلام ومن أُولئك الحسين بن المنصور الحلّاج الذي أشرنا إليه فيما سبق. ومنهم أيضا: محمد ابن علي الشلمغاني، والذي له قصّة طويلة يصعب علينا استيعاب فصولها في هذا المختصر، وسوف نكتفي بالإشارات العابرة لحركته في عصر الغيبة وخطرها على الشيعة آنذاك.

يترجم النجاشي لمحمد بن علي الشلمغانيّ فيقول: «أبو جعفر المعروف بابن أبي العَزاقر، كان متقدما في أصحابنا، فحمله الحسد لأبي القاسم الحسين بن روح، على ترك المذهب والدخول في المذاهب الرديئة، حتى خرجت فيه توقيعات، فأخذه

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٢٧١ ـ ٢٧٣.

السلطان وقتله وصلبه، وله كتب، منها:...»[1].

وكانت كتب الشلمغاني ومؤلفاته تمثل مرجعية فكرية للشيعة آنذاك، وكانت بيوت الشيعة ببغداد منها ملاء، وقد ورد في رواية، أن السفير الثالث الحسين بن روح سُئل عن كتبه بعد ما ذُمَّ وخرجت فيه اللعنة فقيل له: كيف نعمل بكتبه وبيوتنا منها ملاء؟ فقال: أقول فيها ما قاله أبو محمد الحسن بن علي (صلوات اللّه عليهما) وقد سُئل عن كتب بني فضّال.. فقال صلوات اللّه عليه: «خذوا بما رووا وذروا ما رأوا»[2].

لقد بدأت مشكلة الشلمغاني مع سفارة السفير الثالث أبي القاسم الحسين بن روح، الذي عيّن من قبل محمد بن عثمان العمري السفير الثاني كخليفة له، وبأمر من الإمام نفسه‌عليه السلام، ولم يكن هذا التعيين متوقعا لكثير من خواص الشيعة آنذاك، إذ الأنظار كانت متوجّهة إلى غيره من الشخصيات المعروفة[3]. إلّا أنّ الجميع قد أذعن لسفارته ولم يشكك أو يطعن أحد في سفارته، وتوفي السفير الثاني أبو جعفر محمد بن عثمان العمري، سنة (٣٠٥ هـ)، وانتقلت السفارة إلى الحسين بن روح.

ولما كان الشلمغاني من كتّاب بغداد، وأحد العلماء البارزين فيها، ومن علماء الشيعة الإمامية.. فكان من الطبيعي أن يستعين به ابن روح في مهامه «وأن يجعل له عند الناس منزلة وجاها بحسب تعبير الطوسي في الغيبة»[4].

وشاءت الظروف القاهرة أن يختفي الحسين بن روح فترة من الزمن أيام القاهر العباسي، فنصب الشلمغاني نائبا عنه، فكان واسطة وسفيرا بينه وبين الإمامية «وكان الناس يقصدونه ويلقونه لأنه صاحب الشيخ أبي القاسم الحسين ابن روح، سفيرا

---

(١) النجاشي، الرجال: ٣٧٨، والطوسي، الفهرست: ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) الطوسي، الغيبة: ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٣) أُنظر: روايات الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة: ٣٦٧ وما بعدها.

(٤) الطوسي، الغيبة: ٤٠٣.

بينهم وبينه في حوائجهم ومهمّاتهم»[1].

ولا تحدّد لنا الروايات المدة التي اختفى فيها الحسين بن روح «بيد أنّ القرائن تفيد أن فترة اختفائه تزامنت مع وزارة حامد بن العباس التي استمرت من سنة (٣٠٦ هـ) حتى سنة (٣١١ هـ)»[2].

والذي يبدو أن الشلمغاني كان طموحا جدّا إلى حدّ الافراط، وكان مستعدا ومن أجل الوصول إلى تحقيق أغراضه الخاصّة التنازل عن كل مبادئه، ولهذا «لم يكتف بمكانته الرفيعة ومركزه الكبير عند الشيعة ولا بمكانته عند وزيره وسيّده، وإنما أراد أن يلعب الدور الكبير الذي تتطلبه روح عصره»[3].

لقد استغل الشلمغاني فترة نيابته عن الحسين بن روح الذي مُنع من الظهور أمام الناس، فكون له بطانة من خواص الشيعة ومتنفذيهم ودعاهم إلى الالتفاف حوله، «ويبدو أنّ هدفه في البداية هو الاستحواذ على منصب الحسين بن روح، وادعاؤه البابيّة مكانه، ثمّ بالغ في ادّعائه وزعم أنه نبيّ وإله»[4].

ففي رواية الطوسي في الغيبة: «عن أبي علي بن همام قال: انفذ محمد بن علي الشلمغاني.. إلى الشيخ الحسين بن روح يسأله أن يباهله، وقال: أنا صاحب الرجل ـ أي الإمام المهدي ـ وقد أُمرت باظهار العلم، وقد أظهرته باطنا وظاهرا، فباهلني..»[5].

وأما ادعاء الشلمغاني للربوبية والحلول فهو ما تعكسه بعض الروايات منها رواية أم

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٣٠٣.

(٢) الآشتياني، آل نوبخت: ٢٥٨.

(٣) جواد علي، المهدي المنتظر عند الشيعة: ١٤٧، طبعة مكتبة الجمل ـ ألمانيا، الطبعة الأُولى، ٢٠٠٥ م.

(٤) الآشتياني، آل نوبخت: ٢٥٨.

(٥) الطوسي، الغيبة: ٣٠٧.

كلثوم بنت أبي جعفر العمري وهي رواية طويلة جاء في بعض مقاطعها: «إنّ الشيخ أبا القاسم ـ الحسين بن روح ـ قد جعل له ـ أي للشلمغاني ـ عند الناس منزلة وجاها، فكان عند ارتداده يحكي كلَّ كذب وبلاءٍ وكفر لبني بسطام، ويسنده عن الشيخ أبي القاسم، فيقبلونه منه ويأخذونه عنه، حتى انكشف ذلك لأبي القاسم‹رض›، فأنكره وأعظمه ونهى بني بسطام عن كلامه وأمرهم بلعنه والبراءة منه.. وشاع في بني نوبخت الحديث فلم يبق أحد إلّا وتقدّم إليه الشيخ أبو القاسم وكاتبه بلعن أبي جعفر الشلمغاني والبراءة منه وممّن يتولّاه ورضي بقوله أو كلّمه فضلاً عن موالاته، ثمّ ظهر التوقيع من صاحب الزمان‹ع› بلعن أبي جعفر محمد بن علي والبراءة منه وممن تابعه وشايعه ورضي بقوله، وأقام على توليه بعد المعرفة بهذا التوقيع»[1].

وبعد صدور البراءة والتوقيع هرب الشلمغاني إلى الموصل ثمّ عاد إلى بغداد فأُخذ وقتل سنة (٣٢٣ هـ).

لقد كانت حركة الشلمغاني وأفكاره ودعوته من أخطر ما واجهه الكيان الشيعي في عصر الغيبة الصغرى، لأنها كانت تخرج عَمن يتظاهر بالقداسة، وذات أُسس نظرية تعرف بالحلول، وحمل الضد، وتناسخ الأرواح.. حتى عُرفت هذه الأفكار عند اتباعه (بالعزاقرية) نسبة إلى الشلمغاني المعروف بابنَ أبي عزاقر[2].

أما دور أبي سهل إسماعيل بن علي النوبختي في قضية الشلمغاني، فقد تمثّل في محورين مهمين:

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٤٠٣ ـ ٤٠٥.

(٢) للتوسع أُنظر: الطوسي، الغيبة: ٤٠٦ ـ ٤٠٨، وجواد علي، المهدي المنتظر: ١٥٦ ـ ١٦٢، والآشتياني، آل نوبخت: ٢٦٠ ـ ٢٦٥، وابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥ / ١٦٥ وما بعدها، والبغدادي، الفرق بين الفرق: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

الأول: التسليم والمساندة لسفارة الحسين بن روح والوقوف معه في مهمته، رغم مكانة أبي سهل في آل نوبخت وعند الشيعة آنذاك، حتى أن بعضهم استغرب ذهاب السفارة لغيره.

ففي رواية الشيخ الطوسي في الغيبة: «قال أبو نوح: وسمعت جماعة من أصحابنا بمصر يذكرون أنّ أبا سهل النوبختي سُئل فَقيلَ له: كيف صار هذا الأمر إلى الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح دونك؟ فقال: هم أعلم وما اختاروه، ولكن أنا رجل القى الخصوم وأُناظرهم، ولو علمتُ بمكانه كما علم أبو القاسم وضغطتني الحجة (على مكانه) لعلي كنت أدل على مكانه، وأبو القاسم فلو كانت الحجة تحت ذيله وقرض بالمقاريض ما كشف الذيل عنه..»[1].

الثاني: الوقوف أمام كل الدعوات المنحرفة وأدعياء السفارة من أمثال الحلّاج، والشلمغاني، والنميري، والهلالي.

وكان هذا موقف آل نوبخت عامة، وموقف أبي سهل إسماعيل خاصّة، إذ مرّ بنا موقفه من الحلّاج ودعوته، أما الشلمغاني، فإنه قد كاتب أبا سهل وحاول استمالته لكنَّ أبا سهل ردّه وأعرض عنه، بل استخفَّ به وأسقطه من عيون الشيعة في بغداد، على ما حكاه ابن النديم في الفهرست، قال: «وكان أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن أبي العزاقر راسله، يدعوه إلى الفتنة، ويبذل له المعجز واظهار العجيب، وكان بمقدّم رأس أبي سهل جلح[2] يشبه القرع، فقال للرسول: أنا معجز ما أدري أي شيء هو[3]، ينبت صاحبكم بمقدم رأسي الشعر حتى أُؤمن به! فما عاد إليه الرسول

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٣٩١.

(٢) الجَلَح: ذهاب الشعر من مُقَدَّم الرأس لسان العرب.

(٣) في تأسيس الشيعة: أنا ما أدري المعجز أي شيءٍ هو.

بعد هذا»[١].

هذه هي جهود أبي سهل في أمر غيبة الإمام عليه السلام «فكان ـ بحق ـ من أعظم العلماء الذين دافعوا عن مسألة الغيبة حسب عقيدة الإمامية، ثمّ دوّنوها في كتبهم، وسار على خطاه مَن جاء بعده من علماء الطائفة»[٢].

خامسا: تلامذته:

لقد كان أبو السهل النوبختي وريث مدرسة المتكلمين الأُول من الشيعة في مدرسة بغداد في علم الكلام، من أمثال هشام بن الحكم، ويونس بن عبد الرحمن.. إلّا أ نّه بذل جهودا علمية في تجذير علم الكلام، ورد الشبهات المثارة من قبل المناوئين لعقائد الإمامية، فكانت له إضافات قيِّمة على جهود السلف الصالح من علماء الشيعة، فأصبح جديرا بلقب «شيخ المتكلمين»[٣].

كما أن لأبي سهل امتدادا في الوسط الشيعي من بعده من خلال تلامذته، الذين بثّوا آراء أُستاذهم بين الإمامية، وكان منبر درسه في بغداد من المنابر المهمة في عصره ويحضره أساطين علم الكلام كما ينص على ذلك ابن النديم بقوله: «أبو سهل.. من كبار الشيعة، وكان أبو الحسين الناشئيقول إنه أُستاذه، وكان فاضلاً عالما متكلما، وله مجلس يحضره جماعة من المتكلمين»[٤].

وهذا يعني أنّ محضر درسه كان يحضره طبقة واسعة من الفضلاء، من أبرزهم:

---

(١) ابن النديم، الفهرست: ٢٢٥، وعنه السيّد حسن الصدر، تأسيس الشيعة: ٣٦٨.

(٢) الآشتياني، آل نوبخت: ١٣٩.

(٣) المرجع نفسه: ١٢٩.

(٤) ابن النديم، الفهرست: ٢٢٥.

١ ـ علي بن إسماعيل النوبختي:

ولده، أخذ العلم والأدب عن أبيه، ودرس عند العالم النحويّ اللغوي الشهير أبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب (٢٠٠ ـ ٢٩١ هـ)، حدّث عنه الحسن ابن الحسين بن علي بن إسماعيل النوبختي، وكان يروي الشعر عن أبيه أبي سهل، وعن ثعلب، وسمع منه أبو محمد الحسن بن الحسين بن علي بن إسماعيل النوبختي[١].

٢ ـ أبو الحسين علي بن عبد اللّه وصيف الشهير بـ (الناشئ الأصغر) (٢٧١ ـ ٣٦٥ هـ):

ترجم له الشيخ الطوسي في الفهرست فقال: «كان متكلما شاعرا مجودا، وكان يتكلم على مذهب أهل الظاهر في الفقه، أخبرنا عنه الشيخ المفيد؊»[٢]. ووصفه النجاشي بالشاعر المتكلم وأن له كتابا في الإمامة[٣]. وينص ابن خلكان على أن المترجم له من تلامذة أبي سهل النوبختي في علم الكلام[٤].

كما أنَّ المترجم له أُستاذ الشيخ المفيد أبي عبد اللّه محمد بن محمد بن النعمان وشيخه في الرواية.

ويُعدّ الشيخ المفيد تلميذا لأبي سهل النوبختي عن طريقين: الأول: تلمذته للناشئالصغير، والثاني: تعلّمه على أبي الجيش مظفّر بن محمّد البلخي[٥].

---

(١) أُنظر: الآشتياني، آل نوبخت: ١٣٢ ـ ١٣٣، وتاريخ بغداد: ١١ / ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

(٢) الطوسي، الفهرست: ٨٩ ـ ٩٠.

(٣) النجاشي، الرجال: ٢٧١.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١ / ٣٨٩.

(٥) الآشتياني، آل نوبخت: ١٣٣.

٣ ـ أبو الحسين محمد بن بشر السُّوسنجردي:

قال عنه النجاشي: «متكلم، جيّد الكلام، صحيح الاعتقاد.. له كتب، منها: كتاب المقنع في الإمامة، وكتاب المُنقذ في الإمامة..»[١].

تتلمذ ـ المترجم له ـ على أبي سهل النوبختي وعدَّ من غلمانه بحسب تعبير ابن النديم والطوسي[٢]. «وكان عالي الهمّة، كثير الاهتمام ببحوث كبار العلماء في المسائل الاعتقادية، تنقّل بين الريّ وبلخ أربع مرات، وهو يحمل ما يؤلّفه المتكلمان ابن قِبة الرازي الإمامي، وأبو قاسم البلخي المعتزلي في مسألة الإمامة إثباتا ونقضا»[٣].

٤ ـ أبو علي الحسين بن القاسم الكوكبي الكاتب (ت ٣٢٧ هـ):

ترجم له الخطيب البغدادي في تاريخه وقال عنه: صاحب أخبار وآداب، حدث عن.. وروى عنه.. وما علمت من حاله إلّا خيرا»[٤]. ولم ينص على تلمذته لأبي سهل، كما لا يوجد له ذكر عند النجاشي أو الطوسي. وإنما عدّه صاحب كتاب آل نوبخت من تلامذة أبي سهل النوبختي[٥].

---

(١) النجاشي، الرجال: ٣٨١.

(٢) ابن النديم، الفهرست: ٢٢٦، الطوسي، الفهرست: ١٣٢.

(٣) السبحاني، معجم طبقات المتكلمين: ٢ / ١٣٥.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٨ / ٨٦.

(٥) الآشتياني، آل نوبخت: ١٣٤.

٥ ـ أبو الجيش مظفّر بن محمد بن أحمد البلخي (ت ٣٦٧ هـ):

أُستاذ الشيخ المفيد، له كتاب في الإمامة[١]. وترجم له النجاشي بقوله: «.. متكلِّم، مشهور الأمر، سمع الحديث فأكثر، له كتب كثيرة.. أخبرنا بكتبه شيخنا أبو عبد اللّه محمد بن النعمان. ومات أبو الجيش سنة سبع وستين وثلاثمائة، وقد قرأ على أبي سهل النوبختي رحمهما اللّه»[٢].

وفي فهرست الطوسي: «.. متكلم،.. وكان من غلمان أبي سهل النوبختي.. وكان شيخنا المفيد رحمه الله قرأ عليه وأخذ عنه»[٣].

٦ ـ أبو بكر محمد بن يحيى الصُّولي (ت ٣٣٥ هـ):

الكاتب والأديب المشهور وهو صاحب كتاب (الأوراق) وكتاب (أدب الكاتب) المطبوعين وغيرهما من الكتب، وكان من أُدباء الشيعة ومؤلفيهم، وعدّه ابن شهرآشوب في معالم العلماء في شعراء أهل البيت المتقين. وذكر مؤلفاته ابن النديم في الفهرست، وقال إنه روى خبرا في علي عليه السلام فطلب ليقتل، وروى عنه الصدوق في العيون.. وذكره المسعودي في عداد المؤرخين..»[٤].

ويعتبر أبو السهل، شيخ المشايخ وأُستاذ الكلّ «وكان جميع المتكلمين الكبار من الإمامية في القرن الرابع والخامس كالشيخ المفيد، والنجاشي، والشريف المرتضى، والشيخ الطوسي، وغيرهم، تلاميذ أبي سهل النوبختي بواسطة واحدة أو واسطتين،

---

(١) الآشتياني، آل نوبخت: ١٣٤.

(٢) النجاشي، الرجال: ٤٢٤.

(٣) الطوسي، الفهرست: ١٦٩.

(٤) الآشتياني، آل نوبخت: ١٣٤، وأُنظر: أعيان الشيعة: ١٤ / ٤٢٥ ـ ٤٢٦.

لذلك نجد أنّ آراءهم في موضوع الإمامة وغيره من المسائل الكلامية تُشبه إلى حدٍّ ما آراء أبي سهل التي شرحها ودوّنها في كتبه العديدة»[1].

يقول الشيخ العلّامة المتكلم زين الدين أبو محمد علي بن يونس النباطي العاملي (ت ٨٧٧ هـ) في كتاب: «الصراطُ المستقيم إلى مستحقي التقديم» ما لفظه: «والشيخ الطوسي أخذ عن السيّد الأجل علم الهدى أبي القاسم عليٍّ بن الحسين، عن الشيخ أبي عبد اللّه المفيد، عن أبي الجيش المظفّر بن محمد البلخي، وهو أَخذ عن شيخ المتكلمين أبي سهل إسماعيل بن علي النوبختيّ خال الحسن ابن موسى وهو لقي البحر الزاخر أبا محمد العسكري عليه السلام»[2].

سادسا: مؤلفات النوبختي:

يعتبر الشيخ النوبختي أبو سهل من أكثر علماء آل نوبخت تأليفا وتدوينا «ولقد كتب كثيرا في تأييد المذهب الشيعيّ والردّ على اعتراضات مخالفيه، وبيان المسائل الكلاميّة، وبلغ عددها أربعين كتابا»[3].

وقد تعرّضنا سابقا إلى بيان بعض مؤلفاته وموضوعاتها والتي كادت أن تكون جميعها في المواضيع الكلامية الهامة. وكانت كتبه تشكل مرجعية رئيسية لعلماء الشيعة ومتكلميهم، وكانت متداولة بين أيديهم، ويستشهدون بها في كتبهم، إلّا أ نّه «ومن سوء الحظّ لم يبقَ من كتب أبي سهل النوبختي إلّا كتابان أو ثلاثة نقل عنها

---

(١) الآشتياني، آل نوبخت: ١٣٤.

(٢) الصدر ـ حسن، تأسيس الشيعة: ٣٦٧ عن النباطي العاملي في كتابه الصراط المستقيم: ٢ / ٩٨، بتحقيق: محمد باقر البهبودي، طبعة المكتبة المرتضوية.

(٣) الآشتياني، آل نوبخت: ١٤٤.

الآخرون، ولكن لمّا كان أبو سهل رئيس المتكلّمين الشيعة، وكانت دارهُ محلاًّ لاجتماعهم، وأقواله حجّة بالنسبة إلى العلماء الآخرين من هذه الطائفة، فقد كان يُسْتَشهد بآرائه غالبا، وإذا ما توفّر أحد على دراسة الكتب الكلاميّة للشيعة بهذا القصد، فإنّه يستطيع أن يلتقط قسما منها عبر هذا الأُسلوب، ونلاحظ أنّ العلّامة الحلّي، والفاضل المقداد يشيران في كتابيهما: أنوار الملكوت وإرشاد الطالبين، إلى رأي أبي سهل النوبختي في الإنسان، وكان قد صنّف كتابا في هذا الحقل، ويدلّان على اتّفاقه مع جمهور الفلاسفة والمعتزلة في الموضوع المذكور»[١].

وقد اقتبس الشيخ الصدوق قطعة كبيرة من كتاب أبي سهل (التنبيه في الإمامة) ودوّنها في كتابه (كمال الدين وإتمام النعمة) وتتعلق بموضوع غيبة المهدي وتثبيت إمامته[٢]. كما أنّ لابن سهل النوبختي كتابا كبيرا اسمه (الملل والنحل) ذكره ابن حجر في الميزان وقال: وهو كبير، واعتمد عليه الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل)[٣] كما أنّ الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة قد اقتبس من كتاب التنبيه في الإمامة[٤].

وخلاصة الأمر لقد تنوعت مواهب أبي سهل النوبختي، وآتاه اللّه البصيرة ووفّق لخوض عباب بحر العلم؛ فكان شيخا وعالما ربانيا، وتوسعت نشاطاته الإدارية ليكون صمام أمان للشيعة في البلاط العباسي، كذلك تنوعت وتوسعت نشاطاته الفكرية، «فجمع إلى جانب الفلسفة والكلام الفقه والآثار، وجمع ما كان معروفا في عصره من معرفة وعلم، وكان إلى جنب ذلك أديبا وشاعرا كريما، من زعماء الشيعة البارزين،

---

(١) الآشتياني، آل نوبخت: ١٥٣.

(٢) نعمة ـ عبد اللّه، فلاسفة الشيعة: ١٨٨.

(٣) المرجع نفسه: ١٩٠، وأُنظر: كتاب كمال الدين واتمام النعمة للصدوق: ٥٣ ـ ٥٦.

(٤) الآشتياني، آل نوبخت: ١٤٥، وأُنظر: الغيبة للطوسي: ١٨٥.

وصاحب مدرسة فلسفية كلامية... وظلت آراؤه تتجاوب حقبة طويلة، في أكثر جوانب الحياة الثقافية، وتخرج على يديه عدد غير قليل من العلماء والمفكرين، ينهلون من مدرسته، ويستفيدون منه، ويأخذون عنه، كانوا فيما بعد من أعلام عصرهم في العلم والمعرفة، وعلى رأس الحركة الفكرية في القرن الرابع الهجري»[1].

رابعا: الحسن بن موسى النوبختي (توفّي بين سنة ٣٠٠ و ٣٠١ هـ)[2]:

من الشخصيات اللامعة في عائلة آل نوبخت الكريمة، والتي كان لها دور كبير في الحياة الفكرية والثقافية في بغداد في القرن الثالث الهجري وبدايات القرن الرابع.

ترجم له النجاشي بعبارة مقتضبة معبرة فقال: «شيخنا المتكلِّم المبرّز على نظرانه في زمانه قبل الثلاثمائة وبعدها. له على الأوائل كتب كثيرة..»[3].

ثمّ ذكر له قائمة طويلة من المؤلفات المتنوعة في موضوعاتها.

كذلك ذكره الشيخ الطوسي في الفهرست فقال: «الحسن بن موسى النوبختي، ابن أُخت أبي سهل بن نوبخت، يكنى أبا محمد، متكلم فيلسوف، وكان يجتمع إليه جماعة من نقلة كتب الفلسفة مثل أبي عثمان الدمشقي، وإسحاق، وثابت، وغيرهم، وكان إماميا حسن الاعتقاد، نسخ بخطّه شيئا كثيرا، وله مصنّفات كثيرة في الكلام وفي نقض الفلسفة وغيرهما..».

وذكره في رجاله فيمن لم يرو عنهمعليهم السلام فقال عنه: «.. متكلم ثقة»[4].

---

(١) نعمة ـ عبد الله، فلاسفة الشيعة: ١٨٣.

(٢) الآشتياني، آل نوبخت: ١٥٥.

(٣) النجاشي، الرجال: ٦٣ ـ ٦٤.

(٤) الطوسي، الفهرست: ٤٦، والرجال: ٤٢٠.

والملاحظ أن الشيخ الطوسي في الفهرست نقل بعض عبارات ابن النديم نصا من الفهرست! إلّا أنّ ابن النديم لديه اضافة لم يذكرها الطوسي وتتعلق بمذهب الحسن بن موسى النوبختي فهو يقول: «وكانت المعتزلة تدعيه، والشيعة تدعيه، ولكنه إلى حيِّز ما هو لأنّ آل نوبخت معروفون بولاية علي وولدهعليهم السلام في الظاهر..» ثمّ أضاف: «وكان جمّاعة للكتب، قد نسخ بخطه شيئا كثيرا وله مصنّفات وتأليفات في الكلام والفلسفة، وغيرها.. وله من الكتب؛ كتاب الآراء والديانات، ولم يتمه، كتاب الرد على أصحاب التناسخ كتاب التوحيد..»[1].

فالحسن النوبختي له دوره وبصماته الواضحة في تبلور مدرسة بغداد وازدهارها، فلابد من التوقف عند محطات من عطائه العلمي وضمن نقاط محددة.

أولاً: وثاقته واستقامته:

لقد أثنى على وثاقته كل من ترجم له من شيوخ الطبقات وعلماء الرجال، وقد مرّ بنا كلام الشيخ الطوسي في الفهرست بقوله: «وكان إماميا حسن الاعتقاد ثقة» وذكر ابن داود في رجاله فقال: «الحسن بن موسى... متكلم فيلسوف إمامي حسن الاعتقاد..»[2].

فالرجل متفق على وثاقته واستقامته وأنه من أساطين علماء الإمامية، وحتى ابن النديم الذي ترجم له لم ينسبه إلى الاعتزال وإنما نسبة إلى شيعة عليعليه السلام.

ثانيا: عصره ومعاصروه:

يقول هبة الدين الشهرستاني: «لعصر المرء ومعاصريه تأثير في حسن تربيته وسمو

(١) ابن النديم، الفهرست: ٢٢٥.

(٢) ابن داود ـ تقي الدين الحسين بن علي، كتاب الرجال: ٧٨.

ثقافته، فكما أن المناخ الطيب يؤثر في نمو الحي وقوة جسمه، كذلك العصر الزاهي بعلم خاص أو أدب مخصوص يؤثر الأثر المهم في سمو ثقافة أبنائه وتقدمهم الباهر في ذلك العلم ونبوغهم بذلك الأدب الممتاز، وكذلك البلد الممتاز بأدب أو صناعة يعين سكانه على التفوّق على اقرانهم»[1].

لقد عاش الحسن النوبختي في عاصمة الدولة العباسية ببغداد والتي كانت في القرنين الثالث والرابع مزدهرة بالعلوم ومهوى قلوب العلماء والمفكرين والفقهاء والمتكلمين ومن مختلف المذاهب والملل والنحل.

كذلك عاش وترعرع في أكناف رجال افذاذ من آل نوبخت ورثوا العلم والمعرفة كابر عن كابر، فجده الأعلى شيخ المنجمين، وأبوه موسى أُستاذ الرياضيات، وخاله أبوسهل شيخ المتكلمين، «وما في الآباء ترثه الأبناء» و «يحكي المرءُ خاله» كذلك نجد أصحابه وأقرانه كلهم من أهل الفضل والعلم والمعرفة.

ففي ظل هكذا بيئة، وفي أكناف هكذا أُسرة وصحبة نشأ وترعرع الحسن بن موسى فكان من الطبيعي أن يأخذ العلم والمعرفة وراثة واكتسابا.

ثالثا: العلوم التي نبغ بها:

لقد تنوعت معارف الحسن بن موسى، فكتب في مختلف مناحي المعرفة منها:

١ ـ علم النجوم:

لقد توارث آل نوبخت هذا العلم من جدهم الأعلى، يقول ابن طاووس: «ان جماعة من آل نوبخت وهم أعيان الشيعة كانوا علماء في هذا الباب ـ أي علم النجوم ـ

---

(١) الشهرستاني ـ هبة الدين، مقدمة كتاب فرق الشيعة: ط.

ووقفت على عدّة مصنفات لهم في النجوم وأنها دلالات على الحادثات»[1].

ويروي ابن طاووس: «عمن قوله حجة في العلوم وفي الفتوى بتحليل علم النجوم، وجدنا في أصل عتيق اسمه كتاب (التجمل) عن محمد وهرون [هكذا ابني أبي سهل قالا: كتبنا إليه‌عليه السلام نحن ولد نوبخت المنجم وقد كنّا كتبنا إليك: هل يحل النظر في علم النجوم، فكتبت نعم، والمنجمون يختلفون في صفة الفلك فبعضهم يقول... كذا.. فكتب‌عليه السلام: **نعم يحل ما لم يخرج من التوحيد**»[2].

فآل نوبخت من أساطين علماء النجوم وعرفوا واشتهروا بذلك، حتى أن الشعراء قد مدحوهم بذلك، ومنهم الشاعر ابن الرومي الشيعي الذي أفرط في مدحه على عادة الشعراء، فقال:

اعلمُ الناس بالنجوم بنو نو ... بخت علما لم يأتهم بالحساب
بل بأن شاهدوا السماء علوا ... يترقى في المكرمات الصعاب
ساوروها بكل علياء حتى ... بلغوها مفتوحة الأبواب[3]

أما المترجم له من آل نوبخت فيقول ابن طاووس فيه: «وكان الحسن بن موسى أبو محمد النوبختي عارفا بعلم النجوم وقدوة في تلك العلوم، وصنّف كتابا استدرك فيه على أبي علي الجبائي لما ردّ على المنجمين،وقد وقفت على كتاب أبي محمد وما فيه من موضع يحتاج إلى زيادة تبيين»[4].

وعندما نعود إلى فهرست مؤلفات الحسن بن موسى والتي تجاوزت الأربعين

(١) ابن طاوس، علي بن موسى، فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم: ١٢١.
(٢) المصدر نفسه: ١٠٠.
(٣) المصدر نفسه: ١٣٧.
(٤) المصدر نفسه: ١٢١.

مؤلفا نجد بينهما بعض الكتب التي تتعلق بعلم النجوم منها ما أشار إليه ابن طاووس وهو: «كتاب الردّ على أبي علي الجبّائي في ردّه على المنجمين». يقول النجاشي: فإنّ أبا عليّ تجاهل في ردّه على المنجمين[١].

كذلك نجد من بين كتبه كتاب: «حجج طبيعية مستخرجة من كتب ارسطاطاليس في الردِّ على من زعم أنّ الفلك حيّ ناطق»[٢].

ويقول ابن طاووس: «وصل إلينا من كتبه أيضا كتاب: الرصد[٣] على بطليموس في هيئة الفلك والأرض.

ويذكر أيضا من كتبه كتاب (الآراء والديانات) فيقول: إنّ هذا الكتاب عندنا الآن ووقفت على معرفته فيه بعلم النجوم..»[٤].

٢ ـ الكلام والفلسفة والأديان والمذاهب:

أغلب من ترجم له ذكره بأ نّه: متكلم فيلسوف، وإنه كان يجتمع إليه جماعة من النقلة لكتب الفلسفة»[٥]. وإنه «شيخنا المتكلم المبرز على نظرائه في زمانه..»[٦].

بل حتى المستشرق الألماني «آدم مِتز» أُستاذ اللغات الشرقية بجامعة بازل بسويسرة، يعطي الأولوية للنوبختي في الكتابة في الأديان والفرق والمذاهب، فيقول: «.. إنّ النوبختي، وهو مؤلف أول كتاب له شأن في الآراء والديانات، كان من نقلة

---

(١) النجاشي، الرجال: ٦٣.

(٢) المصدر نفسه: ٦٣.

(٣) قال في هامش الصفحة: لعلّه الرد على بطلميوس.

(٤) ابن طاووس، فرج المهموم: ١٢١ ـ ١٢٢.

(٥) ابن النديم، الفهرست: ٢٢٥.

(٦) النجاشي، الرجال: ٦٣.

كتب اليونان إلى لسان العرب»[1].

ويعتبر كتاب «فرق الشيعة» للنوبختي أول مؤلف وصلنا عن فرق الشيعة وزعمائها ومقالاتها وآرائها منذ عصر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، حتى القرن الثالث الهجري، وبقلم بحاثة ثقة خبير بعلوم الأوائل وآراء المذاهب والفرق..»[2].

فالنوبختي مقدم بكتاب فرق الشيعة، مقدم على كل من صنّف في الملل والنحل، كأبي منصور البغدادي المتوفى سنة (٤٢٩ هـ)، وابن حزم الأندلسي المتوفى سنة (٤٥٦ هـ)، صاحب كتاب الفصل في الملل والنحل، والذي كانت عنده نسخة من كتاب النوبختي، كذلك عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة (٥٤٨ هـ) صاحب الكتاب المشهور المسمّى الملل والنحل[3].

وعندما نعود إلى فهرست قائمة كتبه ومؤلفاته نجد الكثير منها تعالج قضايا العقيدة والكلام والفلسفة، والرد على أصحاب المقالات المنحرفة، مثل الرد على أصحاب المنطق، والرد على ثابت بن قرة وعلى الغلاة، وعلى المجسمة، وعلى الواقفة، وعلى المعتزلة في المنزلة بين المنزلتين، وعلى الجبائي.. وغير ذلك من الردود والاحتجاجات، وأيضا النقوض على أساطين علماء عصره من أمثال الجاحظ الذي نقض عليه ثلاثة من كتبه، فقد ذكر المسعودي كتب الجاحظ، ثمّ قال: وقد نقضها عليه جماعة من متكلمي الشيعة، كأبي عيسى الوراق، والحسن ابن موسى النوبختي من

---

(١) متز ـ آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ / ٣٦٦.

(٢) الشهرستاني، مقدّمة فرق الشيعة: ز.

(٣) أُنظر، مقدمة الشهرستاني لكتاب فرق الشيعة، وكتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع لآدم متز: ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

الشيعة»[1].

٣ ـ علم أُصول الفقه:

لم يكن هذا العلم قد تبلورت أبحاثه أو دوّنت بشكل منظم، وإنما كانت هنالك بعض المحاولات والبحوث في بعض جوانب هذا العلم، من بعض أساطين علماء الشيعة كابن هشام، ويونس بن عبد الرحمن وغيرهم.

وعندما نعود مرة أُخرى إلى تراث الحسن النوبختي العلمي، «نجده قد عَني بدرس أُصول التشريع وأ لّف في الخبر الواحد والعمل به، وفي العموم والخصوص، وهذان الموضوعان من مواضيع أحوال الفقه الهامة.

وتبدو أهمية كتابيه هذين حين نأخذ باعتبارنا العصر الذي وُضِعا فيه، حين كان التفكير في أشباه هذه المباحث لا يزال في دور التكوين، ولم تبرز بعدُ كقواعد علمية وأُصول ترتبط بالاستنباط كفن.

لذلك كان النوبختي في هذين المبحثين من مؤسسي علم الأُصول وواضعي قواعده»[2].

٤ ـ مؤلفاته:

لم تصلنا ـ وللأسف الشديد ـ من كتب النوبختي الحسن بن موسى سوى كتابه (فرق الشيعة) الذي تصدّى لتصحيحه وطبعه والتعليق عليه البحاثة الشهير المستشرق والعضو في جمعية المستشرقين الألمانية (هـ ـ ريتر) وطبع الكتاب تحت اشرافه في مطبعة الدولة باسطنبول سنة (١٩٣١ م) بتصحيح وتعليق العلّامة السيّد محمد صادق

---

(١) العاملي ـ محسن، أعيان الشيعة: ٨ / ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

(٢) نعمة ـ عبد الله، فلاسفة الشيعة: ٢٠١.

آل بحر العلوم، وقدّم للكتاب العلّامة الكبير السيّد هبة الدين الشهرستاني.

أما بقية مؤلفاته فقد فقدت مع ما فقد من تراثنا الإسلامي، مع أنّ بعض مؤلفاته قد وصلت إلى يد علي بن جعفر بن طاووس من علماء القرن السابع الهجري، ككتاب الردّ على أبي علي الجبائي في ردّه على المنجمين، كذلك كتاب الآراء والديانات[١].

وكتاب (فرق الشيعة) للنوبختي، صغير في حجمه، غني في محتواه، عرض فيه مؤلفه لفرق الشيعة، ونشأتها في تسلسل طبيعي مجرد، ودراسته في هذا الكتاب كانت عرضا تاريخيا لنشوء هذه الفرق، مع اشارته في أثناء ذلك إلى أسباب تفرعها وعواملها الدينية والسياسية، مقتصرا على ذلك فحسب دونما تعصب أو تحيز. والكتاب بجملته له شأنه من هذه الناحية، ويدل دلالة وافية على سعة اطلاع مؤلفه وعلى معرفته الرحبة بزعماء الفرق، وحقيقة مقالاتهم ومذاهبهم معرفة تامة، تلك الفرق التي ربما كان لها أو لبعضها وجود أو آثار في عصر المؤلف. أما اليوم فقد اندثرت، ولم يبق لأكثرها سوى أسمائها المسجلة في بطون الأوراق، وأصبحت أثرا بعد عين.

ويجدر بالذكر أن الشيخ المفيد في (الفصول المختارة) اعتمد عليه كثيرا عندما حاول أن يرد على فرق الشيعة عدا الإمامية[٢].

يبقى أن نشير إلى أن بعضهم أثار الشك حول انتساب كتاب (فرق الشيعة) للنوبختي، ونسبه إلى سعد بن عبد اللّه الأشعري القمي صاحب كتاب المقالات والفرق، ولسنا في صدد الخوض في هذه القضية التي لم تحسم نتيجتها[٣].

---

(١) أُنظر: ابن طاووس، فرج المهموم: ١٢١.

(٢) نعمة، فلاسفة الشيعة: ١٩٨، وأُنظر: العيون والمحاسن للمفيد: ٢ / ٨٢ ـ ٩٩.

(٣) للتوسع أُنظر: الآشتياني، آل نوبخت: ١٧١ ـ ١٩٢، ومقدّمة كتاب المقالات والفرق لسعد بن عبد اللّه الأشعري بقلم محمد جواد مشكور.

٥ ـ أساتذته وتلامذته:

من المسلَّم أن الحسن بن موسى قد تلقى العلم من رجال أُسرته، فمعلمه الأول هو والده الذي كان «عالماً مفوّها، حسن المعرفة بالنجوم، مصنِّفا فيها، له كتاب الكافي في أحداث الأزمنة»[١]، كذلك تلقى عن خاله المتكلم الشهير وشيخ المتكلمين في بغداد أبي سهل إسماعيل بن علي النوبختي، إلّا أنّ مترجميه لم يذكروا أساتذته سوى اسم واحد وهو: المتكلم الفقيه أبو الأحوص داود بن أسد بن أعفر، الذي كان من أعلام متكلمي الشيعة وفقهائهم، فقد لقيه (النوبختي) وأخذ عنه، واجتمع به في الحائر الحسيني (مرقد الحسين عليه السلام) وكان قد ورد للزيارة[٢].

وأما تلامذته ومريدوه، فلا نجد في ترجمته أسماءً لهم مع مرجعيته العلمية في عصره، وتنوع معارفه في الفلسفة والكلام والطبيعيات.. وكل ما يذكر في هذا المجال أنّ مجلسه كان يضم أعلام عصره، إذ كان يجتمع إليه جماعة من النَقلة لكتب الفلسفة من أمثال أبي عثمان الدمشقي، وإسحاق، وثابت وغيرهم»[٣] وأُولئك بحسب الظاهر أقرانه وزملاؤه وليسوا من تلامذته.

خامسا: أبو إسحاق إبراهيم النوبختي:

أحد متكلمي عائلة آل نوبخت ومن علماء بغداد المبرزين، وصاحب كتاب (الياقوت).

اختلفت أقوال المترجمين في شخصية أبي إسحاق اختلافا كبيرا، وأطال هذا

---

(١) النجاشي، الرجال: ٤٠٧.

(٢) نعمة، فلاسفة الشيعة: ٢٠٢.

(٣) ابن النديم، الفهرست: ٢٢٥.

الاختلاف في الاسم واسم الأب، فهو في شرح الياقوت أبو إسحاق إبراهيم بن نوبخت»[1]، وعند السيّد حسن الصدر في التأسيس: «أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت»[2] ناقلاً ذلك عن المولى عبد اللّه أفندي في رياض العلماء.

وأما سيّد الأعيان فقد ذكره باسم أبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن أبي سهل ابن نوبخت النوبختي، معتبرا ما ذكره السيّد حسن الصدر في تأسيس الشيعة «سهوا تبع فيه صاحب رياض العلماء»[3].

ولم يتوقف هذا الاختلاف عند حدود الاسم فقط، بل امتد ليشمل عصر المؤلف وولادته ووفاته إذ «احتملوا أنه عاش فيما بين القرن الثاني وحتى النصف الأوّل من القرن السابع»[4].

ويرجح الآشتياني في كتابه القيّم حول آل نوبخت: «إنّ مؤلف الياقوت كان يعيش بعد عصر الغيبة.. وهذا العصر لم يتقدّم على النصف الأوّل من القرن الرابع»[5] مستندا في ذلك ـ على وجه التخمين ـ على مطالعة فصول وأبواب كتاب الياقوت للمؤلف نفسه. والذي نعتقده أ نّها ترجيحات صائبة وفق القرائن التي ذكرها.

ومهما يكن من أمر، فالاختلاف في اسم المؤلف وعصره لا يضر في مكانة

---

(١) ذكر ذلك العلّامة الحلّي جمال الدين الحسن بن يوسف في شرحه الموسوم بـ «انوار الملكوت..»: ٢.

(٢) الصدر ـ حسن، تأسيس الشيعة: ٣٦٤.

(٣) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ٣ / ٤٣، وأُنظر: ١ / ١٩٣ و ٣ / ١٨ من المرجع نفسه، الطبعة الخامسة.

(٤) السبحاني، معجم طبقات المتكلمين: ٢ / ١٨١.

(٥) الآشتياني، آل نوبخت: ٢٠١، وأُنظر مقدمة كتاب أنوار الملكوت ص: ز.

المترجم له، ويكفي أن يكون صاحب كتاب الياقوت الذي يقول فيه العلّامة الحلّي: «شيخنا الأقدم، وامامنا الأعظم، أبو إسحاق إبراهيم بن نوبخت قدّس اللّه روحه الزكيّة ونفسه العليّة»[1].

ولم يكن لدى من ترجم لأبي إسحاق إبراهيم أي معلومات عن أساتذته الذين تلّقى عليهم العلم، ولا عن تلامذته الذين أخذوا عنه، ولا عن الدور الذي قام به في المجال العلمي وغيره»[2] إلّا أ نّه من المرجح أن يكون مؤلف الياقوت من تلامذة أبي سهل إسماعيل بن علي النوبختي إذا رجحنا أن عصره كان مقارنا لأواخر حياة أبي سهل، أو رجحنا أنه إبراهيم والد أحمد بن إبراهيم الكاتب عند الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح وكان حيا مع أخيه أبي جعفر عبد اللّه بن إبراهيم، حين وفاة الشيخ أبي جعفر العمري النائب الثاني للإمام المهديعليه السلام سنة (٣٠٤ هـ)[3].

ومع النقص الواضح في المعلومات عن المترجم له وعصره، انصبت جهود من ترجم له على كتابيه (الياقوت) و (الابتهاج)، والتعريف به من خلال كتابه الأول (الياقوت).

* مؤلفات إبراهيم النوبختي:

لأبي إسحاق إبراهيم بن نوبخت كتابان فقط، ولا شك في نسبتهما إليه وهما: كتاب الياقوت الذي وصلنا، وكتاب الإبتهاج الذي نصّ عليه المؤلف في كتاب الياقوت ولم يصلنا.

---

(١) العلّامة الحلّي، أنوار الملكوت في شرح الياقوت: ٢، تحقيق: محمد نجفي، انتشارات الرضي ـ قم، الطبعة الثانية، ١٣٦٣ ش.

(٢) السبحاني، معجم طبقات المتكلمين: ٢ / ١٨٢.

(٣) الآشتياني، آل نوبخت: ٢٠٣.

وفيما يلي شرح مختصر لهذين الكتابين:

أولاً: كتاب الياقوت:

وقد نصّ على اسم الكتاب العلّامة الحلّي في ديباجة شرحه له فقال: «وقد صنّف شيخنا الأقدم، وإمامنا الأعظم، أبو إسحاق إبراهيم بن نوبخت قدّس اللّه روحه الزكيّة ونفسه العليّة، مختصرا سمّاه «الياقوت» قد احتوى من المسائل على أشرفها، وأعلاها، ومن المباحث على أجلها وأسناها، إلّا أ نّه صغير الحجم، كثير العلم، مستصعب على الفهم، في غاية الايجاز والاختصار، بحيث يعجز عن تفهّمه أكثر النظار، فأحببنا أن نضع هذا الكتاب الموسوم بـ (أنوار الملكوت في شرح الياقوت) على ترتيبه ونظمه، موضعا لما التبس من مشكلاته، ومبيّنا لما استبهم من مفصّلاته، مع زيادة لم توجد في الكتاب، مستعينين باللّه ومتوكلين عليه، هو حسبنا ونعم الوكيل»[١].

وقد سبق العلّامة في شرحه المؤرّخ والمتكلم المعتزلي المعروف عزّ الدين عبد الحميد الشهير بابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ)، إلّا أ نّه لم يصلنا هذا المرجع، ولم ينقل أحد منه شيئا[٢].

ومن خصوصيات شرح العلّامة على الياقوت:

١ ـ القدرة الفائقة على شرح العبارات المشكلة والموجزة والتي تقرب احيانا من حد الألغاز.

٢ ـ الاضافات العلمية: فقد قام العلّامة باضافة بعض المطالب العلمية الثمينة والتي كان يرى في بعض الموارد لزوما لإضافتها، مما أَعطى قيمة مضاعفة للكتاب،

---

(١) العلّامة الحلي، أنوار الملكوت: ٢.

(٢) الآشتياني، آل نوبخت: ١٩٩ ـ ٢٠٠.

مع المحافظة على متن المؤلف بدقة وأمانة علمية. فهو في بعض المواضع يرفض رأي المؤلف القريب من مشرب المعتزلة، ويورد في مقابله رأيه الذي يمثل عصارة اجتهادات متكلّمي الشيعة بعد الشيخ أبي إسحاق، كالشيخ المفيد، والشريف المرتضى، والشيخ الطوسي، والخواجة نصيرالدين الطوسي وأمثالهم.

٣ ـ ارجاع الأقوال والآراء إلى قائليها:

ففي كثير من الأحيان نجد المؤلف ينقل الآراء والأقوال دون أن يشير إلى قائليها فعمل العلّامة على رفع هذا النقص من خلال تعيين القائلين والفرق التي ينتسبون إليها. ولا يخفى أهمية هذا العمل لدى المحققين في تاريخ علم الكلام والباحثين عن عقائد الفرق المختلفة.

٤ ـ نقل عبارات المؤلف نصا: لقد ألزم العلّامة الحلي نفسه على نقل عبارات المؤلف نصا في البداية، ثمّ شرحها، شرحا وافيا، وهو بذلك قد حفظ لنا متنا قيما من المتون الكلامية القديمة، الذي لولاه لكان عرضة للضياع والتلف، كما هو شأن العديد من كتب ورسائل العلماء السالفين، ولولاه لما كان عندنا عن الياقوت خبر ولا أثر[1].

وذكر السيّد حسن الصدر في التأسيس شرّاحا آخرين للياقوت، فقد قام السيّد عميد الدين عبد المطلب بن الأعرج المعروف بالسيّد العميدي (ت ٧٥٤ هـ) وهو ابن أُخت العلّامة الحلّي، بشرح لشرح العلّامة، كذلك نظم الياقوت الشيخ شهاب الدين أحمد بن شرف الدين أبي عبد اللّه الحسين العودي العاملي الجزيني، قال صاحب أمل الآمل في علماء جبل عامل: فاضل عالم علّامة شاعر أديب، وله أُرجوزة

---

(١) أنظر: مقدمة شرح الياقوت أنوار الملكوت، والآشتياني، آل نوبخت: ٢٠٥.

في شرح الياقوت في الكلام[1].

يبقى أن نشير إلى أنَّ كتاب الياقوت هو ثاني كتابين بعد كتاب فرق الشيعة، وصلنا بكامله من تراث الأُسرة النوبختية الكثيرين، ولعلّه «من أقدم الكتب الكلاميّة المتوفرة المأثورة عن هذه الفرقة» «وإنّه ليس بأيدينا كتاب للإمامية أقدم منه»[2].

إلّا أن الذي يدعو للعجب حقا أن لا تجد له ذكرا في كتب الفهارس، كفهرست ابن النديم، وفهرست الشيخ الطوسي، ويعلل ذلك صاحب كتاب آل نوبخت بقوله: «ويبدو أنّ كتاب الياقوت لم يكن كثير الاشتهار بين الشيعة حتى عصر العلّامة الحلّي، مع وجود شرح ابن أبي الحديد، وزاد الاهتمام به وبمؤلفه بعد انتشار كتاب أنوار الملكوت، وأصبح الاقتباس منه وشرح موضوعاته ونقل أقوال مؤلّفه أُمورا مألوفة»[3].

ثانيا: كتاب الابتهاج:

وهو من الكتب التي لم تصلنا، فليس لدينا معلومات ضافية عنه، إلّا أ نّه كما يبدو من عنوانه يتعلّق بأحد المباحث الكلاميّة، وقد أشار إلى عنوانه المؤلف نفسه في الياقوت، وذكر العلّامة الحلّي بأنَّ الكتاب لم يصل إليه[4].

«وموضوع الكتاب إثبات اللّذة والسرور والابتهاج للباري تعالى، وهو الموضوع الذي نفاه المتكلّمون جميعا، وجهد الفلاسفة في إثباته، ووافقهم الشيخ أبو إسحاق على ذلك خلافا لمتكلمي الشيعة وغيرهم»[5].

---

(١) الصدر ـ حسن، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ٣٦٥، وأُنظر: آل نوبخت: ٢١٢.

(٢) الآشتياني، آل نوبخت: ١٩٩، ٢٠٥، ومقدمة محقق كتاب أنوار الملكوت د ـ ت.

(٣) المرجع نفسه: ٢١٢.

(٤) أُنظر: أنوار الملكوت: ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٥) الآشتياني، آل نوبخت: ٢١٣.

ومهما يكن من أمر، فقد مضى أبو إسحاق إلى ربّه دون أن نعرف سنة وفاته، وبقي أثره الخالد (الياقوت) يحكي جهد مؤلفه.

سادسا: أبو القاسم الحسين بن روح النوبختي (ت ٣٢٦ هـ):

يعدّ الشيخ أبو القاسم الحسين بن روح بن أبي بحر، من أشهر أفراد الأُسرة النوبختية بعد أبي سهل إسماعيل بن علي، ويعود ذلك إلى منزلته الدينية الرفيعة عند الشيعة الإمامية، ونيابته الخاصّة عن الإمام المهدي عليه السلام فهو النائب الثالث في عصر الغيبة الصغرى، واختير لهذا المقام بعد أبي عمرو عثمان بن سعيد العَمري، وولده أبي جعفر محمد بن عثمان بن سعيد العَمري.

تاسعا: السفراء الأربعة

وقبل الحديث عن بعض التفاصيل حول حياة الشيخ النوبختي ابن روح نرى من المناسب الحديث عن بعض المفردات التي تماس الحديث عنه باعتباره السفير الثالث للإمام الغائب، وهو الحديث عن الغيبة الصغرى للإمام عليه السلام والسفراء الأربعة ودورهم ونشاطهم خلال هذه الفترة، وفي أثناء ذلك سوف نتحدث عن الحسين بن روح باعتباره ثالث أُولئك السفراء الأربعة (رضوان اللّه عليهم).

ولابدّ من الاشارة إلى سعة الحديث عن هذه النقاط، إلى درجة أنّ بعضهم قد أفرد لها مؤلفات مستقلة تحت عنوان: أخبار الوكلاء الأربعة[1]، إلّا أ نّنا سوف نختزل أبحاثها ضمن النقاط التالية:

أولاً: لقد كانت المدينة هي المحل الدائم لأئمة أهل البيت عليهم السلام إلّا في فترة خلافة

---

(١) الآشتياني، آل نوبخت: ٢٥٧.

أمير المؤمنين‌عليه السلام الذي اتخذ من الكوفة عاصمة للدولة الإسلامية وسكنها إلى حين استشهاده سنة (٤٠ هـ)، فعاد أهل بيته إلى المدينة مرّة أُخرى.

وكان الأئمة‌عليهم السلام يُستدعون إلى عاصمة الخلافة بين فينة وأُخرى كما حصل في حياة الإمام الصادق جعفر بن محمد‌عليه السلام الذي استدعي من قبل المنصور العباسي حيث عاد بعدها إلى المدينة وتوفي فيها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الإمام الكاظم موسى بن جعفر‌عليه السلام الذي أقدَمهُ المهدي العباسي إلى بغداد ثمّ ردّه إليها، ثمّ حُمل من قبل هارون الرشيد وقضى في سجنها مسموما، ودُفن فيها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الإمام الرضا علي بن موسى‌عليه السلام الذي استدعي من قبل المأمون العباسي إلى خراسان وأُعطيت له ولاية العهد وبعدها توفي ودُفن فيها سلام اللّه عليه. وفي سنة (٢٢٠ هـ) أشخص المعتصم العباسي الإمام الجواد محمد بن علي‌عليه السلام إلى بغداد، وتوفّي بها في نفس السنة، ودفن في مقابر قريش في ظهر جدِّه أبي الحسن موسى بن جعفر‌عليهما السلام[(١)].

وفي سنة (٢٤٣ هـ) أشخص المتوكل العباسي الإمام الهادي علي بن محمد من المدينة إلى سُرَّ مَن رأى حيث انتقلت العاصمة العباسية إليها، فوصلها مع ولده العسكري الحسن بن علي‌عليهما السلام، وتوفي الإمام الهادي‌عليه السلام سنة (٢٥٤ هـ) ودفن في داره بسُرَّ من رأى، وكان الإمام من بعده ابنه الحسن العسكري‌عليه السلام الذي توفي سنة (٢٦٠ هـ) ودُفن في البيت الذي دُفن فيه أبوه من دارهما بسُرَّ مَن رأى[(٢)].

ثانيا: بوفاة الإمام الحسن بن علي العسكري‌عليه السلام انتهى عصر ظهور الإمام بين الأُمة؛ حيث كان مرتبطا بأبناء الأُمة وقائدا وموجها لها بقدر ما تسمح له الظروف

---

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٢ / ٢٩٥.

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٣٣٦.

بذلك، أما مباشرة أو بواسطة وكلائه الخاصين.

إلّا أنّه وبعد سنة (٢٦٠ هـ) انتقلت الإمامة إلى ولده محمد بن الحسن المهدي(عليه السلام) الذي ولد سنة (٢٥٥ هـ) واستلم الإمامة بعد وفاة والده مباشرة لتبدأ بعدها حقبة جديدة اصطلح عليها بفترة الغيبة.

ثالثا: تنقسم فترة غيبة الإمام المهدي(عليه السلام) إلى فترتين:

أولهما: فترة الغيبة الصغرى والتي تبدأ بوفاة الإمام الحسن العسكري عام (٢٦٠ هـ) وتنتهي بوفاة السفير الرابع من سفراء الإمام المهدي(عليه السلام) عام (٣٢٩ هـ).

وثانيهما: فترة الغيبة الكبرى والتي تبدأ بما انتهت به فترة الغيبة الصغرى بوفاة السفير الرابع عام (٣٢٩ هـ) وتستمر إلى أن يأذن اللّه سبحانه بانتهائها وظهوره(عليه السلام).

رابعا: في عصر الغيبة الصغرى كانت هنالك آلية جديدة للاتصال بالإمام(عليه السلام) واتصال الإمام بالأُمة وذلك من خلال «ايكال الوكالة الخاصة، أو السفارة، إلى أشخاص، يتصفون بدرجة من الاخلاص عظيمة، بحيث يكون من المستحيل عادة أن يشوا بالإمام المهدي(عليه السلام)، أو أن يخبروا بما يكون خطرا عليه..» فالسفارة عن الإمام(عليه السلام) لا تعني إلّا التوسط بينه وبين الآخرين..»[1].

خامسا: وظاهرة الوكالة أو السفارة عن الإمام(عليه السلام) لم تكن وليدة غيبة الإمام المهدي(عليه السلام) وإنما سبقت ذلك بفترة طويلة، ونجدها في فترة امامة الإمام موسى بن جعفر الكاظم(عليه السلام) حيث منعت ظروف سجنه من الاتصال بأُمته فكان له وكلاء في أماكن متعددة، وهكذا نجد هذه الظاهرة في فترة امامة العسكريين(عليهما السلام) وبشكل واسع، فنجد مثلاً الشيخ محمد بن عثمان بن سعيد العَمري وهو السفير الأول من السفراء

---

(١) الصدر ـ محمد، تاريخ الغيبة الصغرى: ٣٧١ ـ ٣٧٢.

الأربعة للإمام المهدي عليه السلام وكان قبلها وكيلاً للإمام الهادي، وبعدها وكيلاً للإمام العسكري عليه السلام، وينص العسكري عليه السلام على سفارته للمهدي عليه السلام[1].

سادسا: تتلخص مهام الوكيل الخاص أو السفير في عصر الغيبة الصغرى في:

«الاضطلاع بالمهمة العظمى في ربط الإمام بقواعده الشعبية وتبليغ توجيهاته وتعاليمه وانحاء تدبيره وإدارته إليهم، وإيصال أسئلتهم ومشاكلهم وأموالهم إليه، وتنفيذ أوامر الإمام وتوجيهاته فيهم»[2] ونجد مفردات هذه المهام ومصاديقها ومهام أُخرى مفصَّلة في تراجم حياة السفراء الأربعة.

فالوكالة الخاصة أو السفارة صيغة تنظيمية مبتكرة أوجدها الأئمة عليهم السلام للاتصال بشيعتهم «فأثمر هذا العمل التنظيمي، وتمّ الرضا به.. إلى درجة أن المذهب الشيعي استطاع أن يتطور وأن يعيش فترة ازدهاره العلمي،.. ولذلك فإنّ إنشاء منصب السفراء لا يدخل في العقيدة الدينية، وإلّا لكانت الكتب الدينية قد تحدثت عن ذلك»[3].

سابعا: أما السفراء الأربعة عن الإمام المهدي عليه السلام في عصر غيبته الصغرى، فقد تكفلت كتب التراجم للتعرّض إلى أحوالهم الخاصة والعامة وأوردت معلومات ضافية عنهم، وخاصة كتاب الغيبة للشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) والذي هو من الكتب القديمة التي يقارب زمان تأليفه عصر الغيبة الصغرى وقد كتبه بناءً على طلب من أُستاذه الشيخ المفيد. فقد جاء في الفصل السادس من هذا الكتاب ذكر لطرف من أخبار السفراء..»[4].

---

(١) الصدر ـ محمد، تاريخ الغيبة الصغرى: ٣٩٧ ـ ٤٠٠.

(٢) المرجع نفسه: ٤٠٠.

(٣) جواد علي، المهدي المنتظر: ٩٥ ـ ٩٧.

(٤) أُنظر: كتاب الغيبة: ٣٤٥ ـ ٤١٥، الفصل السادس.

وفيما يلي ملخص لبعض الجوانب من تراجم أُولئك السفراء، مع التركيز على الجانب العلمي من نشاطاتهم حيث كان: «يخرج على أيديهم الشفاءُ من العلم، وعويص الحكم، والاجابة على كل ما يُسأل عنه ـ أي الإمام ـ من المعضلات والمشكلات»[1].

---

(١) النعماني أبو زينب الغيبة: ٩١.

تراجم حياة السفراء الأربعة

السفير الأول: أبو عمرو عثمان بن سعيد العَمري

كان قبل سفارته عن الإمام المهدي وكيلاً لأبيه الإمام العسكري ومن قبله لأبيه الإمام الهادي عليهما السلام بل قد عدّه بعض من أصحاب الإمام الجواد عليه السلام[1].

عُرِف السفير الأول بالسَّمَّان؛ لأ نّه كان يتّجر بالسَّمنِ تغطية على الأمر، ويقال له العسكري لأنه من عسكر سرّ من رأى[2].

أورد الشيخ الطوسي روايات كثيرة تدل دلالة واضحة على وثاقته وسمو مكانته فيقول فيه الإمام الهادي مخاطبا شيعته: «هذا أبو عمرو الثقة الأمين ما قاله لكم فعني يقوله، وما أداهُ إليكم فعني يؤديه».

وبنفس المضمون ورد عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام ولهذا يقول الحميري: فكنّا كثيرا ما نتذاكر هذا القول ـ أي قول الإمام ـ ونتواصف جلالة محل أبي عمرو[3].

لقد كان سكن الشيخ العَمري مدينة سامراء، حيث كان الإمامان العسكريان مقيمان فيها أيضا، وبعد انتهاء عصر حضور الإمام بوفاة الإمام العسكري وبدء عصر الغيبة، «لم يعد هناك من سبب لوجود السفير الأول في سامراء، فانتقل إلى بغداد وأقام بجانب الكرخ، الذي لا يكاد يسكنه غير الشيعة، وأصبحت بغداد الآن مركز الحركة الشيعية والناحية المقدّسة، التي كانت الشيعة يحملون المال إلى السفير فيها من

(١) أُنظر: ابن شهر آشوب، المناقب: ٤ / ٤٦٩ ـ ٤٨٣، والعلّامة الحلّي، خلاصة الأقوال في علم الرجال: ٢٢٠، تحقيق ونشر الفقاهة ـ قم، ١٤١٧ هـ.

(٢) الطوسي، الغيبة: ٣٥٤.

(٣) المصدر نفسه: ٣٥٥.

مراكز بعيدة ويقدمون له اسئلتهم»[1].

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن نشاط السفير الأول سوى ما ذكره الشيخ الطوسي بنحو الاجمال: «وكانت توقيعات صاحب الأمر عليه السلام تخرج على يدي عثمان بن سعيد وابنه أبي جعفر محمد بن عثمان إلى شيعته وخواصّ أبيه أبي محمد عليه السلام بالأمر والنهي والأجوبة عما يسأل الشيعة عنه إذا احتاجت إلى السؤال فيه بالخط الذي كان يخرج في حياة الحسن عليه السلام»[2].

وهذه (التوقيعات) التي يشير إليها الشيخ الطوسي هي في الواقع أسئلة الشيعة وأجوبة الإمام عليها، وقد جمعت في وقته، جمعها عبد اللّه بن جعفر الحميري، حيث يذكر له النجاشي: مسائل لأبي محمد الحسن عليه السلام على يد محمد بن عثمان العَمري.. مسائل أبي محمد وتوقيعات..»[3]. وعبر عنه الشيخ الطوسي في الفهرست بـ (كتاب المسائل والتوقيعات)[4].

وذكر من هذه التوقيعات الشيخ المجلسي في البحار بعنوان (باب ما خرج من توقيعاته) ضمنه ما وقف عليه منها[5]، والذي يبدو أن صاحب الذريعة تابع صاحب البحار في جمعه وذكر بعنوان: «التوقيعات الخارجة من الناحية المقدّسة..»[6].

ومهما يكن من أمر، فقد قام الشيخ العَمري بمهام السفارة إلى أن توفي (رضوان

---

(١) جواد علي، المهدي المنتظر: ١٠٤.

(٢) الطوسي، الغيبة: ٣٥٦.

(٣) النجاشي، الرجال: ٢٢٠.

(٤) الطوسي، الفهرست: ١٠٢.

(٥) المجلسي، بحار الأنوار: ٥٣ / ١٥٠ وما بعدها من الطبعة القديمة ١١٠ مجلدات و ٢١ / ٦٣٥ وما بعدها من طبعة (٤٤) مجلد.

(٦) أُنظر، آقا بزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٤ / ٥٠٠ ـ ٥٠١.

اللّه اللّه عليه) ولا تذكر لنا مصادر ترجمته سنة وفاته، وإنما يذكر الشيخ الطوسي: «أن قبر عثمان بن سعيد بالجانب الغربي من مدينة السلام، في شارع الميدان، ويقول الشيخ: رأيت القبر في الموضع الذي ذكره.. فكنّا ندخل إليه ونزوره مشاهرة وذلك وقت دخولي إلى بغداد..»[1].

السفير الثاني: أبو جعفر محمد بن عثمان بن سعيد العمري

قال الشيخ: «فلما مضى أبو عمرو عثمان بن سعيد قام ابنه أبو جعفر محمد بن عثمان مقامه بنصّ أبي محمدعليه السلام عليه، ونصّ أبيه عثمان عليه بأمر القائمعليه السلام والنص عن الإمام العسكريعليه السلام هو قوله في حق العمريين الأب والابن: «العَمري وابنه ثقتان، فما أديا إليك فعني يؤديان، وما قالا لك فعني يقولان، فاسمع لهما وأطعهما فإنهما الثقتان المأمونان».

كما أنَّ هنالك توقيعا عن الإمام الحجةعليه السلام إلى محمد بن عثمان بن سعيد وفيه تعزية بأبيه والنص على قيامه مقامه[2].

وكان للسفير الثاني نشاطات كثيرة في بغداد وخارجها نذكر بعضها:

أولاً: النشاط العلمي:

فقد كانت له نشاطات فقهية جمعها في مؤلفات فقهية، فقد روى الشيخ الطوسي «كان لأبي جعفر محمد بن عثمان العمري كتب مصنّفة في الفقه ممّا سمعها من أبي محمد الحسنعليه السلام، ومن الصاحبعليه السلام ومن أبيه عثمان بن سعيد، عن أبي محمد وعن أبيه علي بن محمدعليهما السلام فيها كتب ترجمتها كتب الأشربة.. وإنها وصلت إلى أبي

(١) الطوسي، الغيبة: ٣٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ٣٥٩ـ٣٦١.

القاسم الحسين بن روح‌﵁ عند الوصية إليه، وكانت في يده» قال الراوي.. واظنها.. وصلت بعد ذلك إلى أبي الحسن العمري»[1].

ثانيا: تعيين مجموعة من الوكلاء له في بغداد ينجزون له الأعمال المهمة ويشكّلون حلقة اتصال بالشيعة، ففي رواية ابن قولويه القمي قال: سمعت جعفر ابن أحمد بن متيل القمي يقول: كان محمد بن عثمان أبو جعفر العَمري‌﵁ له من يتصرف له ببغداد نحو من عشرة أنفس، وأبو القاسم بن روح‌﵁ فيهم.. حتى إنه إذا احتاج إلى حاجة أو إلى سبب ينجزه على يد غيره..»[2].

ثالثا: تشكيل مجلس استشاري من وجوه الشيعة وشيوخها:

فقد ورد في أكثر من رواية أن الشيخ العَمري محمد بن عثمان، كان له مجموعة تضم أعيان الشيعة وعلماءها وكانوا على اتصال دائم به، ففي رواية ابن همام قال: «إنَّ أبا جعفر محمد بن عثمان العمري (قدس اللّه روحه) جمعنا قبل موته وكنّا وجوه الشيعة وشيوخها فقال لنا: إن حدث علي حدثُ الموت فالأمر إلى أبي القاسم الحسين بن روح النوبختي، فقد أُمرتُ أن أجعله في موضعي بعدي، فارجعوا إليه وعوّلوا في أُموركم عليه».

وفي رواية أُخرى تذكر أسماء بعض الوجوه اللامعة والشخصيات الكبيرة في ذلك العصر منهم «أبو علي بن همام، وأبو عبد اللّه بن محمد الكاتب، وأبو عبد اللّه الباقطاني، وأبو سهل إسماعيل بن علي النوبختي، وأبو عبد اللّه بن الوجناء، وغيرهم من الوجوه والأكابر..»[3].

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٣٦٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣٦٩.

(٣) المصدر نفسه: ٣٧١.

لقد كانت فترة سفارة السفير الثاني أطول فترة بالنسبة إلى فترات السفراء الآخرين، فإنه وبحسب رواية الشيخ الطوسي عن أبي نصر عن محمد بن أحمد قال: «إنّ أبا جعفر العَمري ﵁ مات في سنة أربع وثلاثمائة، وأنه كان يتولّى هذا الأمر نحوا من خمسين سنة، يحمل الناس إليه أموالهم، ويخرج إليهم التوقيعات بالخط الذي كان يخرج في حياة الحسن ﵇ بالمهمات في أمر الدين والدنيا، وفيما يسألونه من المسائل بالأجوبة العجيبة ﵁ وأرضاه؛ قال أبو نصر هبة اللّه: إنّ قبر أبي جعفر محمد بن عثمان عند والدته في شارع باب الكوفة في الموضع الذي كانت دوره ومنازله فيه، وهو الآن في وسط الصحراء ﵀»[1].

أقول: يعرف الشيخ محمد بن عثمان العَمري عند أهل بغداد بالشيخ الخلاني، وقبره في بغداد اليوم معروف يزوره الناس للتبرك به.

السفير الثالث: أبو القاسم الحسين ابن روح (ت ٣٢٦ هـ)

من المؤكد أن أصل الحسين بن روح من بلاد فارس، وهو ينتمي إلى الأُسرة الشهيرة (آل نوبخت) والتي لعبت دورا في السياسة وفي العلوم بشكل خاص، وكان الجد الأول (نوبخت) قد أسلم في أيام الخليفة المنصور وأصبح منجما في قصر الحاكم»[2].

والأُسرة النوبختيّة تُعدّ من الأُسر البغدادية، والحسين بن روح يُعدّ نوبختيا من جهة الأُم إذ جاءته هذه النسبة بسبب مصاهرة أبيه للأُسرة المذكورة..»[3].

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٣٦٦.

(٢) جواد علي، المهدي المنتظر: ١٣١.

(٣) الآشتياني، آل نوبخت: ٢٤٩.

وفيما يلي بعض الجوانب من شخصية بن روح:

أولاً: وثاقته وعدالته واستقامته:

من نافلة القول الحديث عن وثاقة الشيخ الحسين بن روح «فهو أحد السفراء والنائب الخاص للإمام الثاني عشر (عجل اللّه تعالى فرجه) وشهرة جلالته وعظمته أغنتنا عن الاطالة في شأنه»[1]. فاختياره لمنصب السفارة والوكالة عن الإمام دليل على علو شأنه ووثاقته. بالاضافة إلى وجود النص الواضح الصريح على وثاقته، ففي رواية الغيبة أن جماعة من وجوه الشيعة ومنهم من بني نوبخت، دخلوا على أبي جعفر (العمري) لما اشتدت حاله فقالوا له: إن حدث أمر فمن يكون مكانك؟ فقال لهم: هذا أبو القاسم الحسين بن روح بن أبي بحر النوبختي القائم مقامي والسفير بينكم وبين صاحب الأمر عليه السلام، والوكيل له، والثقة الأمين، فارجعوا إليه في أُموركم وعوّلوا عليه في مهماتكم فبذلك أُمرت وقد بلغت»[2].

كما أن أول كتاب تلقاه ابن روح من الإمام المهدي عليه السلام جاء فيه: «نعرفه، عرّفه اللّه الخير كلّه... وأسعده بالتوفيق، وقفنا على كتابه وثقتنا بما هو عليه وإنه عندنا بالمنزلة والمحل اللذين يسرانه، زاد اللّه في احسانه إليه..»[3].

ثانيا: مكانته الاجتماعية:

لقد كانت لابن روح النوبختي مكانة اجتماعية كبيرة، وله احترام كبير عند أبي جعفر العمري، وكان وكيله المقرب والمفضل قبل أن يستخلفه في السفارة، ففي رواية

---

(١) الخوني، معجم رجال الحديث: ٦ / ٢٥٧.

(٢) الطوسي، الغيبة: ٣٧٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣٧٢.

أم كلثوم بنت أبي جعفر﵀ قالت: كان أبو القاسم الحسين بن روح﵀ وكيلاً لأبي جعفر، سنين كثيرة ينظر له في أملاكه، ويلقى بأسراره الرّؤساء من الشيعة، وكان خصيصا به حتى أ نّه كان يحدِّثه بما يجري بينه وبين جواريه لقربه منه وأُنسه.

قالت: وكان يدفع إليه في كلِّ شهر ثلاثين دينارا رزقا له غير ما يصل إليه من الوزراء والرؤساء من الشيعة، مثل آل الفرات وغيرهم لجاهه ولموضعه وجلالة محلِّه عندهم، فحصّل في أنفس الشيعة محصّلاً جليلاً لمعرفتهم باختصاص أبي إيّاه وتوثيقه عندهم، ونشر فضله ودينه وما كان يحتمله من هذا الأمر. فمهدت له الحال في طول حياة أبي ان انتهت الوصيّة إليه بالنّص عليه، فلم يختلف في أمره ولم يشكّ فيه أحد..»[1].

لقد سَخّر ابن روح وجاهته ومكانته الاجتماعية لخدمة المظلومين وممن يقع عليهم جور الحكام والسلاطين، حيث «كانت دارهُ آنذاك مألفا لكبار الأعيان ورجال البلاط والوزراء السابقين في بغداد، وكان بعضهم يستشفعه إلى السلاطين والأُمراء في انجاز الأعمال كما فعل ذلك أبو علي بن مُقلة سنة (٣٢٥ هـ)» إذ استعان به لقضاء حاجته.. وتوضيح ذلك أن محمد بن رائق حين تولّى تدبير شؤون الحكومة، أمر بالاستيلاء على ضياع ابن مقلة وابنه. وعندما وصل إلى بغداد.. ذهب أبو علي بن مقلة إلى لقائه ولقاء وزيره.. لعلهما يُرجعان إليه ضياعه، فتشبث ابن مقلة بالحسين بن روح من أجل حل مشكلته، فتحدث ابن روح مع ابن رائق بواسطة أبي عبد اللّه النوبختي فأصلح ابن رائق «أمر أبي علي بن مقلة لأنه طرح نفسه على ابن روح النوبختي فكلم له الحسين بن علي بن العباس، كاتب بن رائق فأصلح أمره، وأوصله إلى الأمير فأمره بفتح بابه»[2].

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٣٧٢.

(٢) الآشتياني، آل نوبخت: ٢٥٥، وأُنظر: الصولي ـ محمد بن يحيى، كتاب الأوراق، أخبار الراضي والمتقي: ٨٧، طبعة دار السيرة ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

ثالثا: خبرته في الإدارة المالية:

لقد أذعن الشيعة لسفارة ابن روح النوبختي «وكان الشيعة يأتون إليه من مختلف الانحاء بالأموال الملزمين بتسليمها إليه»[1].

والنصوص التي تحدثت عن مكانة ابن روح عند السفير الثاني محمد بن عثمان العَمري نجد فيها الجانب المالي شاخصا جدا، «فهو وكيله المؤتمن للنظر في أملاكه، وهو الذي يدفع إليه في كل شهر ثلاثين دينارا رزقا له..»[2]. والذي يبدو أن هذا المبلغ الضخم كان يقبضه مقابل جهوده التي يبذلها في تنظيم املاك الشيعة وأموالهم التي كانت عند العَمري، فإذا أخذنا بعين الاعتبار طول مدة سفارة العمري «وإنه كان يتولى هذا الأمر نحوا من خمسين سنة، يجعل الناس إليه أموالهم»[3]، عرفنا حجم الأموال التي انتقلت إلى السفير الثالث الحسين النوبختي، فهي أموال كبيرة احتاج فيها السفير الثاني إلى فترة زمنية قبل وفاته لنقلها إليه، ثمّ الطلب من الشيعة بحمل أموالهم إليه.

ففي رواية ابن بابويه عن أبي جعفر محمد بن علي الأسود، قال: «كنت أحمل الأموال التي تحصل في باب الوقف إلى أبي جعفر محمد بن عثمان العمري‬ؓ فيقبضها منّي، فحملت إليه يوما شيئا من الأموال في آخر أيامه قبل موته بسنتين أو ثلاث سنين، فأمرني بتسليمه إلى أبي القاسم الروحي‬ؓ، فكنت أُطالبه بالقبوض فشكا ذلك إلى أبي جعفر‬ؓ فأمرني أن لا أُطالبه بالقبوض، وقال: كلّ ما وصل إلى أبي

---

(١) الآشتياني، آل نوبخت: ٣٥٣.

(٢) الطوسي، الغيبة: ٣٧٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣٦٦.

القاسم فقد وصل إليّ، فكنت أحمل بعد ذلك الأموال إليه ولا أُطالبه بالقبوض»[1].

وعندما نعود إلى الفترة التي سجن فيها المقتدر العباسي الحسين بن روح، نجد أن إحدى التُهم التي وجهت إليه هي الأموال التي كانت تجبى إليه: «ووضع السفير.. في السجن ببغداد بسبب الوسائل المالية المثيرة للشبهات، زيادة على الاتهامات العادية المتمثلة في التآمر مع القرامطة، ومع أنه دافع عن نفسه، وقدم حججا دامغة على براءته فقد ظل في السجن خمس سنوات»[2].

يقول مؤرخ آل نوبخت: «وكان للحسين بن روح منزلة سامقة عند الشيعة في القسم الأكبر من أيام حكومة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) وبسبب كثرة المال الذي كان يأتي به الشيعة إليه والمكانة التي كان يتمتع بها عندهم، توجهت إليه أنظار السلطان العباسي وعمّال الديوان الذين كانوا يعانون من ضائقة ماليّة، وكان السلطان يذكره غالبا، يقول الصولي ـ والذي كان معاصرا للحسين بن روح ـ «وكان الراضي ربما يذكر بأن الإمامية يحملون إليه الأموال، فنرد عنه ونكذبه، فيقول لنا: وما في هذا؟ واللّه لوددت أن مثله ألفا تحمل الإمامية أموالها إليه فيفقرهم اللّه، ولا أكره غنى هؤلاء من أموالهم»[3].

ومهما يكن من أمر، فهنالك نشاط مالي للشيعة في عصر الغيبة الصغرى أسهم في إدارته السفراء الأربعة ووكلاؤهم وخاصة السفير الثالث الحسين بن روح، وفي كتاب الغيبة للطوسي وغيرها من الكتب التي تتحدث عن هذه الحقبة الزمنية روايات كثيرة

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٣٧٠.

(٢) جواد علي، المهدي المنتظر: ١٤٤.

(٣) الآشتياني، آل نوبخت: ٢٥٦ وقد نقل عبارة الصولي بالمضمون، ونقلناها نحن بنصها من كتاب الأوراق: ١٠٤. وأُنظر أيضا جواد علي، المهدي المنتظر: ١٢٥.

تتحدث عن أموال وافرة كان يحملها الشيعة عن طيبة نفس إلى السفراء و «يمكن أن نستخلص من هذه الأخبار أن الناس، من جميع الطبقات من الأُمراء إلى الناس البسطاء، كانوا يحملون إلى السفير قدر استطاعتهم: كل الأشياء القيِّمة من الدنانير الذهب إلى قطع الثياب، مع اختلاف المانحين والأشياء الممنوحة ليس من السهل تقدير القيمة الاجمالية لذلك»[1].

رابعا: مواجهة التيارات المنحرفة:

عند حديثنا عن نشاطات أبي سهل النوبختي تحدّثنا عن جانب من نشاطه في التصدي لأدعياء النيابة والسفارة والقائلين بالتناسخ والحلول والربوبية من أمثال الحلّاج والشلمغاني، وقد أشرنا هناك إلى دور الحسين بن روح في هذه المواجهة باعتبارها حصلت في سني سفارته.

ولقد ابتلي السفراء ببعض أدعياء السفارة والبابوية من أمثال الشريعي الذي كان من أصحاب الإمامين العسكريين «وهو أول من ادّعى مقاما لم يجعله اللّه فيه، وكذب على اللّه وعلى حججه عليهم السلام فخرج توقيع الإمام بلعنه والبراءة منه..».

ومنهم: محمد بن نصير النميري وهو من أصحاب الإمام العسكري عليه السلام وعاصر السفير الأول «فلمّا توفي أبو محمد ادّعى مقام أبي جعفر محمد بن عثمان، وأنه صاحب صاحب الزمان وادّعى (له) البابية، وفضحه اللّه تعالى بما ظهر منه من الالحاد والجهل..».

ومنهم: أحمد بن هلال الكرخيّ الذي وقف على سفارة السفير الأول ولم يعترف بالثاني، «ثمّ ظهر التوقيع على يد أبي القاسم بن روح بلعنه والبراءة منه في جملة من لعن».

---

(١) جواد علي، المهدي المنتظر: ١٢٦ وما بعدها.

ومنهم: أبو طاهر محمد بن علي بن بلال وقصته معروفة مع أبي جعفر محمد بن عثمان العَمري حيث تمسك بالأموال التي كانت عنده للإمام وامتناعه من تسليمها.. وخرج فيه من صاحب الزمان عليه السلام ما هو معروف»[1].

ومنهم: الحسين بن منصور الحلّاج وقد تحدثنا عن مواجهة أبي سهل النوبختي له، وكشفه لأمره وتنفير الشيعة منه، وكان للحسين بن روح دور في بيان انحراف الحلّاج عن أصل الإسلام، فضلاً عن دعوى النيابة والبابوية، فقبض عليه وأفتى الفقهاء بقتله، من دون حاجة إلى صدور توقيع من المهدي عليه السلام بشأنه[2].

ومنهم الشلمغاني أبو جعفر بن أبي عزاقر، والذي له قصة طويلة مع الحسين بن روح تحدّثنا عنها سابقا. والذي لم نذكره سابقا أنّ الحسين بن روح قد تصدى للشلمغاني وهو في محبسه، ففي رواية صالح الصيمري قال: أنفذ الشيخ الحسين ابن روح رضي الله عنه من محبسه في دار المقتدر إلى شيخنا أبي علي بن همام في ذي الحجة سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة، وأملاه أبو علي (عليّ) وعرّفني أنّ أبا القاسم رضي الله عنه راجع في ترك اظهاره فإنه في يد القوم وحبسهم، فأمر باظهاره وأن لا يخشى ويأمن، فتخلص وخرج من الحبس بعد ذلك بمدّة يسيرة، والحمد للّه»[3].

وهذا التصدي ومن داخل السجن إن دلّ على شيءٍ فهو يدل على عظم الخطر المحدق بالكيان الشيعي اليافع من أُولئك الأدعياء، والشعور العالي بالمسؤولية من قبل الحسين بن روح باعتباره السفير والوكيل الخاص للإمام.

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٣٩٧ ـ ٤٠١.

(٢) الصدر ـ محمد، تاريخ الغيبة الصغرى: ٥١٥.

(٣) الطوسي، الغيبة: ٤١٠ وما بعدها.

خامسا: مرجعيته الفكرية للشيعة:

لقد كان الحسين بن روح وريث النيابة والسفارة عن السفير الثاني بما فيها الوراثة الفكرية حيث ورث كتبه ومصنفاته[1]، فكان يمثل مرجعية فكرية للشيعة، وكان مفزعا للشيعة عند بروز الشبهات العقائدية والفكرية.

ففي رواية داود القمي قال حدّثني سلامة بن محمد قال: أنفذ الشيخ الحسين ابن روحﷺ كتاب (التأديب) إلى قم، وكتب إلى جماعة الفقهاء بها وقال لهم: «أُنظروا في هذا الكتاب، وأُنظروا فيه شينا يخالفكم؟ فكتبوا إليه: إنه كلّه صحيح، وما فيه شيء يخالف إلّا قوله في الصاع في الفطرة نصف صاع من الطعام، والطعام عندنا الشعير من كل واحد صاع»[2].

وقد نقلت لنا الروايات طرفا من نشاطاته في هذا المجال، فيما يلي بعضها: ففي قضية الشلمغاني والحلّاج نجده يقول لأُم كلثوم بنت أبي جعفر العمري بعد أن أخبرته بزيارتها لبني بسطام وما نقلته لها أُمهم من مقولات الشلمغاني فيقول لها: «يا بنيّة إيّاك أن تمضي إلى هذه المرأة بعد ما جرى منها.. فهذا كفر باللّه تعالى وإلحاد، قد أَحكمه هذا الرجل الملعون في قلوب هؤلاء القوم، ليجعله طريقا إلى أن يقول لهم: بأن اللّه تعالى اتّحد به وحلّ فيه، كما يقول النصارى في المسيحعليه السلام، ويعدو إلى قول الحلّاج لعنه اللّه.

قالت: فهجرت بني بسطام وتركت المضيّ إليهم، ولم أقبل لهم عذرا ولا لقيت

---

(١) أُنظر الطوسي، الغيبة: ٣٦٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣٩٠.

أُمهم بعدها...»[1].

فنلاحظ في هذه الرواية أن ابن روح يتابع باهتمام مقولات الشلمغاني ويحذر من خطرها لأنها من الحلول والتناسخ وادعاء الربوبية.

وأيضا في نفس موضوع الشلمغاني الذي ابتلى به الحسين بن روح نجده يتابع النتاج الفكري للشلمغاني وبدقة متناهية وبحذر من مواضع الكذب منها.

ففي رواية الشيخ يقول الراوي: سمعت روح بن أبي القاسم بن روح يقول: لما عمل محمد بن علي الشلمغاني كتاب التكليف، قال] الشيخ] يعني أبا القاسم: اطلبوه إليَّ لأنظره، فجاؤوا به فقرأه من أوله إلى آخره، فقال: ما فيه شيءٌ إلّا وقد روي عن الأئمة إلّا موضعين أو ثلاثة، فإنّه كذب عليهم في روايتها لعنه اللّه»[2].

وفي رواية إنه أشرف بنفسه على عمل الشلمغاني عندما أ لّف كتاب التكليف.

يقول الراوي: «سمعت أبا جعفر.. وقد ذكرنا كتاب التكليف وكان عندنا انّه لا يكون إلّا مع غال، وذلك أنه أول ما كتبنا الحديث، فسمعناه يقول: وأيش كان لابن أبي عزاقر في كتاب التكليف، إنما كان يصلح الباب ويدخله إلى الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح، فيعرضه عليه ويحككه، فإذا صحّ الباب خرج فنقله وأمرنا بنسخه، يعني إنّ الذي أمرهم به الحسين بن روح»[3].

لقد كانت كتب الشلمغاني قبل ارتداده تمثل المرجعية الفكرية والفقهية عند الشيعة الإمامية، وكانوا يتداولونها بينهم ويرجعون إليها ويأخذون منها، ولهذا احتاروا بأمر هذه الكتب بعد ارتداد الرجل، فتوجهوا بالسؤال إلى الحسين بن روح «عن كتب

(١) الطوسي، الغيبة: ٤٠٣ ـ ٤٠٥.

(٢) المصدر نفسه: ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٣) المصدر نفسه: ٣٨٩.

ابن أبي العذاقر بعد ما ذمّ وخرجت فيه اللعنة، فقيل له: فكيف نعمل بكتبه وبيوتنا منها ملاء؟ فقال: أقول فيها ما قاله أبو محمد الحسن بن علي صلوات اللّه عليهما وقد سُئل عن كتب بني فضال فقالوا: كيف نعمل بكتبهم وبيوتنا منها ملاء؟

فقال صلوات اللّه عليه: «خذوا بما رووا وذروا ما رأوا»[(١)].

وبنو فضال الذين أشارت إليهم الرواية هم أحمد المتوفى سنة (٢٦٠ هـ) ومحمد، وأبو الحسن علي، ابناء أبي محمد الحسن بن علي بن فضال الكوفي (المتوفى سنة ٢٢٤ هـ)، وكانوا في عداد فقهاء الفطحية كأبيهم، وكان الفطحية يعدّونهم من فقهائهم الكبار، وقد صنفوا كتبا كثيرة في تأييد هذا المذهب، وبخاصّة علي الذي بلغت كتبه قرابة ثلاثين كتابا»[(٢)].

سادسا: الحسين بن روح والتقية:

لقد عاصر الحسين بن روح‌ﷺ وفي مقاطع من عصر سفارته أياما مضطربة في ظل الحكم العباسي، واستبدال وزارة بأُخرى وخاصة في خلافة المقتدر العباسي حيث أخذ وسجن بعد الاطاحة بوزارة آل فرات من قبل الوزير حامد بن عباس، الذي سجن آل الفرات وصادر أموالهم «حتى وقعت حوادث مرة بينه وبين الحسين بن روح لم تصل إلينا تفاصيلها»[(٣)].

في ظل هكذا ظروف كان على الحسين بن روح أن يتخذ أُسلوبا في التعامل يجنبه

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٢) الآشتياني، آل نوبخت: ٢٦٧ ـ ٢٦٨ الهامش وللتوسع أُنظر النجاشي، الرجال: ٨٠، ٢٥٧ ـ ٢٥٩.

(٣) المرجع نفسه: ٢٥٣، وأُنظر: الصولي، كتاب الأوراق: ١٠٤ وما بعدها.

والشيعة الإمامية مشاكل الاصطدام مع السلطة وعلماء البلاط، ولهذا لجأ إلى أُسلوب التقية، ولهذا تصفه الرواية: «وكان أبو القاسمﷺ من أعقل الناس عند المخالف والموافق ويستعمل التقية»[1].

وينقل الشيخ الطوسي بعض مواقف التقية للحسين بن روح وضمن روايات منها: ما رواه ابن أبي الطيب قال: ما رأيتُ من هو أعقل من الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح، ولعهدي به يوما في دار ابن يسار، وكان له محل عند السيّد[2]، والمقتدر عظيم، وكانت العامة أيضا تعظمه، وكان أبو القاسم يحضر تقية وخوفا..»[3].

وفي المصدر نفسه قال الراوي: بلغ الشيخ أبا القاسمﷺ أنّ بوابا كان له.. قد لعن معاوية وشتمه، فأمر بطرده وصرفه عن الخدمة، فبقي مدّة طويلة يُسأل في أمره، فلا واللّه ما ردّه إلى خدمته.. كلّ ذلك للتقية»[4].

ومن طريف ما ينقل من مواقفه هو جوابه عندما «سأله بعض المتكلمين وهو المعروف بترك الهروي فقال له: كم بنات رسول اللّهﷺ؟

فقال: أربع، قال: فأيهن أفضل؟ فقال: فاطمة.

فقال: ولم صارت أفضل وكانت أصغرهن سنا وأقلهن صحبة لرسول اللّهﷺ؟

فقال ابن روح: لخصلتين خصّها اللّه بهما تطوّلاً عليها وتشريفا وإكراما لها:

احداهما: أنها ورثت رسول اللّهﷺ ولم يرث غيرها من ولده.

والأُخرى: أنّ اللّه تعالى أبقى نسل رسول اللّهﷺ منها، ولم يبقه من غيرها، ولم

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٣٨٤.

(٢) في نسخة: السيّدة وهي أُم المتوكل.

(٣) المصدر نفسه: ٣٨٤.

(٤) المصدر نفسه: ٣٨٦.

يخصّصها بذلك إلّا لفضل إخلاص عرفه من نيتها. قال الهروي: فما رأيت أحدا تكلّم وأجاب في هذا الباب بأحسن ولا أوجز من جوابه»[1].

رحم اللّه أبا القاسم الحسين بن روح فقد عاش سعيدا ومات سعيدا، فقد توفي ببغداد في شعبان سنة ست وعشرين وثلاثمائة، وقبره في النوبختية في الدّرب الذي كانت فيه دار عليّ بن أحمد النوبختي«رضي الله عنه»[2].

السفير الرابع: علي بن محمد السَّمري (ت ٣٢٩ هـ)

ليس بين أيدينا الشيء الكثير عن تفاصيل حياة السفير الرابع«رضي الله عنه»، سوى ما ذكره الشيخ الطوسي أنه من أصحاب الإمام العسكري«عليه السلام»[3].

وفي كتاب الغيبة عن الصفواني قال: أوصى الشيخ أبو القاسم«رضي الله عنه» إلى أبي الحسن علي بن محمد السمري، فقام بما كان إلى أبي القاسم.

ولم تدم سفارة السمري سوى ثلاث سنوات.

«ولم يُتح للسمري، خلال هذا الزمان القصير، بالنسبة إلى أسلافه، القيام بفعاليات موسعة، كالتي قاموا بها، ولم يستطع أن يكتسب ذلك العمق والرسوخ في القواعد الشعبية كالذي اكتسبوه، وإن كان الاعتقاد بجلالته ووثاقته كالاعتقاد بهم»[4].

والذي يستفاد من سياق الأحداث أنّ السفير الثالث قام بالنيابة عن الإمام ومثل القيادة العامة للملايين بالنيابة عن إمامهم، في ظروف معاكسة خطرة، ودولة مراقبة

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٣٨٨.

(٢) المصدر نفسه: ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

(٣) الطوسي، الرجال: ٤٠٠ بعنوان: علي بن محمد الصيمري.

(٤) الصدر ـ محمد، تاريخ الغيبة الصغرى: ٤١٣.

ومطاردة لهذا الخط وللسائرين عليه.. فكان يتلقى التعليمات والتوقيعات من الإمام عليه السلام مباشرة ويبلغها إلى قواعده الشعبية.

«نعم، لا يبعد.. من كون تلك السنوات «المليئة بالظلم والجور وسفك الدماء» دخل كبير في كفكفة نشاط هذا السفير، وقلة فعاليته، فإنّ النشاط الاجتماعي يقترن وجوده دائما، بالجو المناسب والفرصة المواتية، فمع صعوبة الزمان وكثرة الحوادث وتشتت الأذهان، لا يبقى هنالك مجال مهم لمثل عمله المبني على الحذر والكتمان»[1].

وتحدثنا رواية وفاة السمري عن أبي محمد الحسن بن احمد المكتّب قال: كنت في مدينة السلام في السنة التي توفّي فيها الشيخ أبو الحسن علي بن محمد السمري رضي الله عنه فحضرته قبل وفاته بأيام، فأُخرج إلى الناس توقيعا نسخته: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، يا عليّ بن محمد أعظم اللّه أجر اخوانك فيك، فإنّك ميّت ما بينك وبين ستّة أيام، فاجمع أمرك ولا توص إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامّة، فلا ظهور إلّا بعد إذن اللّه تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جورا..».

قال [الراوي]: فنسخنا هذا التوقيع وخرجنا من عنده، فلمّا كان اليوم السادس عدنا إليه وهو يجود بنفسه، فقيل له: من وصيك من بعدك؟ فقال: للّه الأمر هو بالغه، وقضى. فهذا آخر كلام سمع منه رضي الله عنه وأرضاه»[2].

توفي السمري في سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، ودفن في بغداد وقبره في الشارع

---

(١) الصدر ـ محمد، تاريخ الغيبة الصغرى: ٤١٤.

(٢) الطوسي، الغيبة: ٣٩٥.

المعروف بشارع الخلنجي من ربع المحول قريب من شاطئ نهر أبي عتاب[1].

وبوفاة الشيخ السمري انتهت فترة الغيبة الصغرى «التي دامت على التحديد تسعا وستين عاما وستة أشهر وخمسة عشر يوما»[2] وبدأت الغيبة الكبرى، «فالغيبة التامة هي التي وقعت بعد مضي السمري‌رضي الله عنه»[3].

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٣٩٦.

(٢) الصدر، الغيبة الصغرى: ٤١٦.

(٣) الطوسي، الغيبة: ٣٩٤.

الفصل الثاني:
الحوزة العلمية في بغداد
من بداية الغيبة الصغرى إلى هجرة الشيخ الطوسي
الدور الثاني: دور التوسع والإزدهار

المدخل

المبحث الأول: أصحاب مدرسة الحديث ودورهم في مدرسة بغداد

الاتجاه الروائي عند الشيخ الكليني والصدوقين ودورهم في مدرسة بغداد:

١ ـ محمد بن يعقوب الكليني الرازي

٢ ـ علي بن الحسين بن موسى بن بابويه (الصدوق الأول)

٣ ـ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه (الصدوق الثاني)

المبحث الثاني: الاتجاه العقلي عند القديمين ودورهما في مدرسة بغداد:

١ ـ الحسن بن علي بن أبي عقيل العماني

٢ ـ محمد بن أحمد بن الجنيد الاسكافي

المبحث الثالث: الشيخ المفيد وتلامذته ودورهم في مدرسة بغداد

١ ـ محمد بن محمد بن النعمان (المفيد)

تلامذة الشيخ المفيد:

٢ ـ علي بن الحسين الموسوي (الشريف المرتضى)

٣ ـ حمزة بن عبد العزيز الديلمي (سلّار)

٤ ـ القاضي ابن البراج

٥ ـ أبو الصلاح الحلبي

٦ ـ محمد بن الحسن الطوسي

المبحث الرابع: تقويم عام لمدرسة بغداد منذ تأسيسها إلى هجرة الشيخ الطوسي عنها:

أولاً: بغداد دار السلام وعاصمة العلم والعلماء

ثانيا: الأُسر والبيوتات العلمية في بغداد ودورها

ثالثا: مدرسة الكلام وأبرز أعلامها في مدرسة بغداد

رابعا: مدرسة المحدثين وأبرز أعلامها في مدرسة بغداد

خامسا: مدرسة الاجتهاد العقلي في مدرسة بغداد

سادسا: أهم العلوم والمعارف التي برزت في مدرسة بغداد:

١ ـ علم الكلام. ٢ ـ علم الحديث. ٣ ـ علم الفقه. ٤ ـ علم الأُصول. ٥ ـ التفسير وعلوم القرآن. ٦ ـ التراجم والرجال. ٧ ـ علم النجوم. ٨ ـ علوم أُخرى.

سابعا: أماكن التعليم في مدرسة بغداد

ثامنا: طرق التعليم في بغداد

تاسعا: النظام المالي في بغداد

عاشرا: أدوار مدرسة بغداد:

١ ـ دور التأسيس. ٢ ـ دور التوسع والازدهار. ٣ ـ دور الأُفول.

حادي عشر: مدرسة بغداد بعد رحيل الشيخ الطوسي عنها

المدخل

بعد انتهاء عصر غيبة الإمام عليه السلام الصغرى بوفاة السفير الرابع سنة (٣٢٩ هـ) ـ والتي كان الشيعة يعيشون فيها عصر النص بوجود الإمام المعصوم بين أظهرهم، حيث كان الاتصال به من خلال سفرائه ـ بدأ عصر الغيبة الكبرى وأصبح الشيعة أمام واقع آخر أكثر حساسية بالنسبة إلى واقعهم العقائدي والتشريعي، إذ كان عليهم أن يواصلوا مسيرتهم من خلال الاستقلال بأنفسهم، وذلك من خلال الرجوع إلى أهل التخصص في الدنيا، وعلماء الشريعة، والذين اصطلح عليهم بنواب الإمام (عجل اللّه تعالى فرجه).

إلّا أنّ نيابة هؤلاء النواب تختلف عن نيابة سلفهم النواب والسفراء الأربعة المباشرين، حيث كان أُولئك النواب والسفراء الأربعة نوابا بالنيابة الخاصّة من قبل الإمام، وكانت وظيفتهم الاتصال المباشر بالإمام رافعين له أسئلة الشيعة واستفساراتهم المكتوبة ليجيب عنها مباشرة من خلال التوقيعات الصادرة عنه، وليبلغها بعد ذلك السفير إلى أصحابها.

وأما في عصر الغيبة الكبرى فالنيابة نيابة عامة عن الإمام لمن تتوفر فيه المواصفات التي حددها الإمام في الرواية المروية عنه والتي جاء فيها: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة اللّه عليكم».

والنص الآخر الذي يقول فيه: «من كان من الفقهاء صائنا لنفسه مخالفا لهواه،

فعلى العوام أن يقلدوه»[1]، فمن تنطبق عليه هذه المواصفات التي ذكرها الإمام عليه السلام فهو نائبه بالنيابة العامة.

وقد «تلقى الأصحاب مضمون الروايتين بالقبول، واتفقوا على دلالتهما في وجوب الرجوع إلى الفقهاء في القضاء والافتاء (بالجملة) واختلفوا في دلالتهما على أبعد من هذا من حيث شمولها لولاية الفقيه التي تعني الحكومة الإسلامية، فأفاد منها بعضهم هذا» بالاضافة إلى أدلة أُخرى[2].

وخلاصة الأمر؛ إنّ الغيبة الصغرى كانت بمثابة التمهيد اللازم لمرحلة جديدة يستقل بها الشيعة في مجال التشريع من خلال فقهائهم، والذين يعتمدون بدورهم على الاجتهاد الشرعي في اطار النصوص والأدلة الشرعية لمعرفة الحكم الشرعي.

وقد أدرك علماء الإمامية الذين عاصروا عصر الغيبة الكبرى عِظَم المسؤولية التي أُلقيت على عاتقهم والتي يجب الاستعداد لها من خلال تهيئة مستلزماتها العملية، والتي تتمثل بما يحتاج إليه الفقيه في عملية الاجتهاد لاستنباط الحكم الشرعي بشكله الفني والمعمَّق.

وأما من عاصر منهم عصر الغيبة الصغرى والتي تعني حضور الإمام ومرجعيته الفكرية والفقهية والتشريعية، فلم يكونوا يشعرون بضرورة الرجوع إلى الاجتهاد ـ والذي فُتح على مصراعيه عند علماء السنة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله لاعتقادهم بانتهاء عصر النص ـ ولاعتقادهم أنّ قول الإمام المعصوم وفعله وتقريره يمثل النص الشرعي وحجة شرعية قطعية، فلا حاجة معها إلى اللجوء إلى الاجتهاد الشرعي الذي يعتمد في بعض

(١) أُنظر مصادر الحديث في التفسير المنسوب للإمام العسكري: ٢٩٩ ـ ٣٠٢، والاحتجاج للطبرسي: ٢ / ٥١١ وعنهما في البحار: ٢ / ٨٨.

(٢) الفضلي، تاريخ التشريع الإسلامي: ٢٢٣.

موارده على الأدلة الظنية.

وهذا يعني أن فقهاء عصر الغيبة الصغرى من الشيعة الإمامية لم يكونوا من أهل الاجتهاد بالكامل «إلّا في بعض الظروف الخاصّة الناشئة عن بُعدهم عن المركز وعدم تمكنهم من الوصول إلى النائب الخاص للإمام، وكانوا يلجأون إلى الاجتهاد بصورته الابتدائية البسيطة، فكانوا مثلاً يعتمدون على خبر الثقة الظني، في صورة عدم تمكنهم من الحصول على واقع قول المعصوم أو فعله أو تقريره والذي يحصل من خلاله العلم القطعي الوجداني، أو كانوا مثلاً يعتمدون على ظواهر الآيات القرآنية أو ظواهر الروايات المروية عن النبيﷺ أو الأئمةعليهم السلام، أو كانوا مثلاً في حالات فقدان النص الشرعي أو إجماله يعتمدون على حكم العقل الذي يرشدهم إلى البراءة أو الاحتياط بحسب اختلاف الموارد.

ومن البديهي أنّ الاجتهاد في مثل هكذا موارد لم يكن يحتاج إلى جهد كبير، ولم يكن من الأُمور المعقدة والصعبة، وكل ما كان يستلزمه هو حكم العقل أو السيرة العقلائية للوصول إلى ظاهر الحكم الشرعي»[1].

وأما في عصر ما بعد الغيبة الصغرى، حيث انقضاء عصر النص بغيبة الإمامعليه السلام، فلابد من الانتقال من الاجتهاد الميسر ذي المؤونة الخفيفة، إلى الاجتهاد الموسع والعميق والذي يتطلب وسائل كثيرة وجهدا أكبر.

وهذه الوسائل اللازمة للاجتهاد الموسع والمعمق يمكن إجمالها بما يلي:

١ ـ إتمام حلقات الحديث الفقهي تأليفا.

٢ ـ مواصلة التأليف في رواة الحديث وطبقاتهم.

---

(١) كرجي ـ أبو القاسم، تاريخ فقه وفقهاء: ١١٣.

٣ ـ وضع الفهارس لمؤلفات الشيعة إحصاءً وبيانا.

٤ ـ كتابة المتون الفقهية.

٥ ـ تأليف الكتب الفقهية الاستدلالية.

٦ ـ استخلاص القواعد الأُصولية من معطيات النقل ومدركات العقل.

٧ ـ بلورة خطط ومناهج البحث في العلوم الشرعية المذكورة، من حديث ورجال وفقه وأُصول.

٨ ـ استقراء مصادر الأحكام الشرعية والوظائف الشرعية والعقلية.

٩ ـ تكوين المراكز العلمية للدراسة والبحث.

١٠ ـ تطوير دائرة المرجعية الدينية[١].

هذه الأُمور وغيرها سوف نلمسها بوضوح في مدرسة بغداد من خلال استعراض الجهد العلمي الذي قام به علماء الإمامية بعد عصر الغيبة الصغرى، وفي مختلف اتجاهاتها ومناحيها العلمية؛ وذلك ضمن المباحث التالية:

---

(١) الفضلي، تاريخ التشريع: ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

المبحث الأول: الاتجاه الروائي ومدرسة المحدثين ودورهم في بغداد

لقد تنوعت العلوم والمعارف في مدرسة أهل البيت ببغداد فشملت علم الكلام، والفقه، والحديث، والفلسفة والحكمة، وعلم النجوم، بالاضافة إلى بعض المباحث المتفرقة في علم أُصول الفقه...

إلّا أنّ الطابع العام لمدرسة بغداد في دورها الأول كان محوره علم الكلام؛ والكلام الإمامي في هذه المدرسة كان محوره «الإمامة» وتثبيت الإمامة الإلهية، ثمّ توسعت البحوث والمناظرات لتشمل الجبر والتفويض والتجسيم، وغيرها من البحوث التي تناولتها مؤلفات وكتب ورسائل العلماء الذين استعرضنا بعض أوجه نشاطاتهم.

ولم تنقطع البحوث الكلامية في مدرسة بغداد في عصر ما بعد الغيبة الصغرى، بل استمرت إلى جانب العلوم الأُخرى التي وجدت مساحة واسعة لها في هذه المدرسة من خلال جهود علمائها الذين قلَّ من تجد منهم مَن لا يحمل ميزتي كونه متكلما إماميا، ومن حملة الحديث وعلومه أيضا.

لقد أبدى علماء الشيعة الإمامية اهتماما كبيرا «بالحديث» تدوينا وضبطا ورواية.. مقتدين في ذلك بالإمام عليعليه السلام صاحب «أوّل كتاب ـ في الحديث ـ أُلف في الإسلام، والذي أملاه رسول اللّهصلى الله عليه وآله وخطه عليعليه السلام على صحيفة، فيها كلُّ حلال وحرام...»[1].

«لقد كان علماء الشيعة، ورواة أخبار آل محمد ـ ولا يزالون ـ يتوارثون العناية برواية الحديث، وحمله، ونقده، وترتيبه، وفنون درايته، وتعديل رواته؛ وتحقيق تواريخ

(١) الصدر ـ حسن، تأسيس الشيعة: ٢٩٤.

وطبقات رجاله، واجازاتهم المبسوطة في هذا الباب جمّة، وقد بلغ بعضها مقدار بضع مجلّدات..»[1].

ومن أبرز ما نلاحظه في الدور الثاني من أدوار مدرسة بغداد والتي تبدأ من نهاية عصر الغيبة الصغرى وتنتهي بانتقال الشيخ الطوسي إلى النجف سنة (٤٤٨ هـ) هو الاهتمام الكبير بتدوين الكتب والمجاميع الحديثية، والفقهية، والكتب الأُصولية التي عنيت بتدوين القواعد الأُصولية والعناصر المشتركة في استنباط الأحكام الشرعية.

وهذا الدور من ناحية تدوين الحديث، يتصل بما سبقه عن طريق كتب الحديث التي جمعت أُصولها في المراحل السابقة من قبل قدماء المحدثين من علماء الشيعة وفي القرنين الثاني والثالث، وكانت الستة آلاف كتاب والاربعمائة الأُصول كما نص على ذلك الحر العاملي في الوسائل[2].

وقد صارت هذه الكتب والأُصول بمثابة الأُسس التي ابتني عليها الجوامع الحديثية التي دونت في القرنين الرابع والخامس.

لقد كان لمدرسة المحدثين واتجاههم الروائي حضور كبير في هذه المرحلة، وأثمرت جهودهم عن تدوين موسوعات وجوامع حديثية من أهمها موسوعتان حديثيتان هما:

١ ـ الكافي، لثقة الإسلام الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩ هـ).

٢ ـ من لا يحضره الفقيه، للشيخ محمد بن علي بن بابويه الصدوق (ت ٣٨١ هـ).

وفي مرحلة لاحقة أردفهما الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (٤٦٠ هـ) بكتابين

---

(١) محفوظ ـ حسين علي، مقدمة أُصول الكافي للكليني: ٦.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٢٠ / ٤٩ الفائدة الرابعة.

هما: الاستبصار، والتهذيب.

فلابد من التوقف عند مدرسة المحدثين واتجاههم الروائي في مدرسة بغداد والتي عرفت بمدرسة الصدوقين ـ الأب والابن ـ بالاضافة إلى الشيخ الكليني محمد بن يعقوب، السابق لهما في تدوين الحديث.

١ ـ الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩ هـ) وكتاب الكافي

للشيخ الكليني ترجمة وافية في كلِّ كتب التراجم الإمامية تقريبا، وفي أغلب كتب التراجم السنية، وكلُّ من ترجم له أثنى عليه وعلى كتابه الحديثي الكافي.

قال عنه النجاشي: «محمد بن إسحاق أبو جعفر الكليني.. شيخ أصحابنا في وقته بالريّ ووجههم، وكان أوثق الناس في الحديث، وأثبتهم، صنّف الكتاب الكبير المعروف بالكُليني يُسمّى (الكافي) في عشرين سنة...» ثمّ يضيف النجاشي الذي لم يدرك عصر الشيخ الكليني فيقول: «كنتُ أتردّد إلى المسجد المعروف بمسجد اللؤلؤيّ، وهو مسجد نفطويه النحوي، أقرأ القرآن على صاحب المسجد، وجماعة من أصحابنا يقرأون الكافي على أبي الحسين أحمد بن أحمد الكوفي الكاتب حدّثكم محمد بن يعقوب الكليني، ورأيتُ أبا الحسن (الحسين) العقراني، يرويه عنه، وروينا كتبه كلها عن جماعة شيوخنا محمد بن محمد، والحسين بن عبد اللّه، وأحمد بن علي بن نوح عن أبي القاسم جعفر بن محمد بن قولويه عنه.

ومات أبوجعفر الكليني؆ ببغداد، سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، سنة تناثر النجوم.. ودفن بباب الكوفة، وقال لنا أحمد بن عبدون: كنت أعرف قبره وقد دُرس؆»[1].

---

(١) النجاشي، الرجال: ٣٧٧ ـ ٣٧٨، وأُنظر خلاصة الأقوال للعلامة الحلي، ورجال ابن داود في ترجمة الشيخ الكليني.

وذكره الشيخ الطوسي في الفهرست وقال: «... ثقة عارف بالأخبار، له كتب منها، كتاب الكافي يشتمل على ثلاثين كتابا.. أخبرنا بجميع كتبه ورواياته الشيخ المفيد.. عن أبي هاشم جعفر بن محمد بن قولويه، وأخبرنا الحسين بن عبيد اللّه قرأت عليه أكثر كتبه من الكافي عن جماعة.. وتوفي محمد بن يعقوب سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ببغداد، ودفن بباب الكوفة في مقبرتها، قال ابن عبدون: رأيت قبره في صراة الطائي وعليه لوح مكتوب فيه اسمه واسم أبيه»[1].

إلّا أنّ الشيخ في رجاله الذي كتبه بعد الفهرست، أرّخ وفاة الكليني بسنة (٣٢٩ هـ)[2].

ومما يؤسف له أن لا تجد ترجمة للشيخ الكليني في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ولا في المنتظم لابن الجوزي، مع تخصص كلا الكتابين في بيان أحوال العلماء والفقهاء الذين نزلوا بغداد أو حدثوا بها.. والكليني بغدادي المسكن والمثوى والمدفن!

في الوقت الذي نجد ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) يترجم له لزيارة قام بها لبلاد الشام فيقول: «محمد بن يعقوب.. أبو جعفر الكليني، من شيوخ الرافضة، قدم دمشق وحدث ببعلبك عن أبي الحسين محمد بن علي الجعفري السمرقندي، ومحمد بن أحمد الخفاف النيسابوري، وعلي بن إبراهيم بن هاشم، روى عنه أبو سعد الكوفي شيخ الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن الحسين بن موسى الموسوي.

ثمّ أخرج عنه حديث الإمام الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إعجابُ

---

(١) الطوسي، الفهرست: ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) أُنظر الطوسي، الرجال: ٤٣٩.

المرء بنفسه دليل على ضعف عقله»[1].

وكتب عنه الشيخ حسين علي محفوظ مقالة مهمة سلط فيها الاضواء على مختلف جوانب حياته، ضمنها كمقدمة للجزء الأول من موسوعة الكافي جاء فيها:

«الكليني هو محمد بن يعقوب بن إسحاق؛ الكليني، الرازي، ويعرف بالسلسلي، البغدادي، أبو جعفر.. وكان هو شيخ الشيعة في وقته بالريّ ووجههم، ثمّ سكن بغداد في درب السلسلة بباب الكوفة، وحدث بها سنة (٣٢٧ هـ)، وقد انتهت إليه رئاسة فقهاء الإمامية في أيام المقتدر، وقد أدرك زمان سفراء المهدي، وجمع الحديث من مشرعه ومورده، وقد انفرد بتأليف كتاب الكافي في أيامهم، إذ سأله بعض رجال الشيعة أن يكون عنده «كتاب كاف يجمع من جميع فنون علم الدين، ما يكتفي به المتعلم، ويرجع إليه المسترشد».

وكان مجلسه مثابة أكابر العلماء الراحلين في طلب العلم، كانوا يحضرون حلقته لمذاكرته، ومفاوضته، والتفقه عليه.

وكان رحمه الله عالما متعمقا، محدثا ثقة، حجة عدلاً، سديد القول، يعدّ من أفاضل حملة الأدب، وفحول أهل العلم، وشيوخ رجال الفقه، وكبار أئمة الإسلام، مضافا إلى أنه من أبدال الزهادة والعبادة والمعرفة والتألّه والاخلاص...»[2].

وذكره ابن الأثير في الكامل في حوادث سنة (٣٢٨ هـ) فقال عنه: «وفيها توفي

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٥٩ / ٢١٧، طبعة دار احياء التراث ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م.

(٢) محفوظ ـ حسين علي، مقدمة كتاب الكافي: ١ / ١٣ ـ ١٤ طبعة أُفست دار الأضواء ـ بيروت.

محمد بن يعقوب... وهو من أئمة الإمامية وعلمائهم»[1].

وذكره أيضا في جامع الأُصول فقال: «أبو جعفر محمد بن يعقوب الرازي الإمام على مذهب أهل البيت عليهم السلام، عالم في مذهبهم، كبير، وفاضل عندهم، مشهور، له ذكر فيمن كان على رأس المائة الثالثة»[2].

كما أ نّه عدّه في حرف النون من كتاب النبوة من مجددي مذهب الإمامية على رأس المائة الثالثة وقد أشار إلى ما هو المشهور عن النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ اللّه يبعث لهذه الأُمة على رأس كلِّ مائةِ سنةٍ من يُجدِّد لها دينها»[3].

وعدّه الطيِّبي من مجدّدي الأُمة على رأس تلك المائة، قال: «.. ومن الفقهاء.. أبو جعفر الرازي الإماميّ»[4].

وقال عنه ابن حجر في لسان الميزان: «وكان من فقهاء الشيعة، والمصنّفين على مذهبهم»[5].

وحسب نقل صاحب الروضات عن ابن حجر انه قال عنه: «أبو جعفر محمد ابن يعقوب الكليني، من رؤساء فضلاء الشيعة في أيام المقتدر»[6].

وهنالك كلمات كثيرة وردت في مدحه والثناء عليه لا يسعنا استيعابها.

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥ / ٢١٣ تحقيق: علي شيري، طبعة دار احياء التراث ـ بيروت، ١٩٨٩ م.

(٢) المؤلف نفسه: تتمة جامع الأُصول القسم الثاني: ٨٩٥ طبعة دار الفكر ـ بيروت، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م.

(٣) المصدر نفسه: ٩ / ٢٧٢ ـ ٢٧٤.

(٤) الخوانساري، روضات الجنات: ٥٥١ نقلاً عن شرح مصابيح البغوي للطيبي.

(٥) ابن حجر، لسان الميزان: ٥ / ٤٤٣.

(٦) الخوانساري، روضات الجنات: ٥٥١.

* **مشايخه والرواة عنه:**

أما مشايخه وتلامذته والرواة عنه، فهو (رضوان اللّه عليه) يروي عمّن لا يتناهى كثرة من علماء أهل البيتعليهم السلام ورجالهم ومحدّثيهم، كما أنه يروي عنه فئة كثيرة أيضا[1].

* **تأليفه وآثاره العلمية:**

لقد ذكر للكليني كل من النجاشي والطوسي وابن شهر آشوب مجموعة من المؤلفات منها:

١ ـ كتاب التفسير.

٢ ـ كتاب الرجال.

٣ ـ كتاب الردّ على القرامطة.

٤ ـ كتاب الرسائل؛ رسائل الأئمةعليهم السلام.

٥ ـ كتاب ما قيل في الأئمةعليهم السلام من الشعر.

٦ ـ كتاب الكافي[2].

* **الكليني وكتاب الكافي:**

لم يصلنا من تراث الشيخ الكليني سوى كتاب الكافي، وفي الكافي الكفاية من حيث دلالته على فضل مؤلفه.

لقد كان هذا الكتاب معروفا بـ «الكليني» ويسمى أيضا بـ «الكافي»، ولا ندري

---

(١) أُنظر مقدمة الشيخ حسين علي محفوظ على الكافي: ١ / ١٤ ـ ٢٣.

(٢) أُنظر، النجاشي: ٣٧٧، الطوسي، الفهرست: ١٣٥، ابن شهرآشوب، معالم العلماء: ٨٨.

هل أن هذا الاسم قد اختاره المؤلف لكتابه؟ أم أنه مستنبط من مقدمته التي يذكر فيها استجابته لمن طلب منه أن يكتب له بقوله: «وقلت: إنّك تحبُّ أن يكون عندك كتاب كافٍ يجمع [فيه] من جميع فنون علم الدين، ما يكتفي به المتعلِّم، ويرجع إليه المسترشد...»[1].

الاحتمال الثاني هو الأقرب. وقد عُرف هذا الكتاب بهذا الاسم في عصر مؤلفه، الذي يسّر اللّه له تأليف هذا الكتاب الكبير في عشرين سنة[2].

وأما ما يعتقده بعض العلماء من أنّ الكتاب قد «عُرض على القائم ـ صلوات اللّه عليه ـ فاستحسنه» وقال: «كافٍ لشيعتنا»[3] فمحلٌّ نقد من قبل العلماء، وأشبه ما تكون بالقصة الروائية[4].

وقد حظي هذا الكتاب بعناية علماء عصره والعصور التالية له وإلى يومنا هذا، «وقد كان شيوخ أهل عصره يقرأونه عليه، ويروونه عنه، سماعا وإجازة، كما قرأَهُ على تلميذه أبي الحسين أحمد بن أحمد الكوفي الكاتب، ورواه جماعة من أفاضل رجالات الشيعة عن طائفة من حملته، ومن رواته الأقدمين: النجاشي، والصدوق، وابن قالويه، والمرتضى، والمفيد، والطوسي، والتلعكبري، والزراري، وابن أبي رافع، وغيرهم.

وقد ظلَّ حجة المتفقهين عصورا طويلة، ولا يزال موصول الاسناد والرواية مع تغير

(١) الكليني، الكافي: ١ / ٨ المقدمة.

(٢) النجاشي، الرجال: ٣٧٧.

(٣) الخوانساري، روضات الجنات: ٥٥٣، وأُنظر: منتهى المقال: ٢٩٨، ومستدرك الوسائل ٢ / ٥٣٢.

(٤) نفس المصادر.

الزمان، وتبدل الدهور.

وقد اتفق أهل الامامية وجمهور الشيعة، على تفضيل هذا الكتاب والأخذ به، والثقة بخبره...»[1].

يقول الشيخ المفيد: «.. الكافي، وهو من أجلِّ كتب الشيعة، وأكثرها فائدة»[2].

وقال المجلسي: «كتاب الكافي.. أضبط الأُصول وأجمعها، وأحسن مؤلّفات الفرقة الناجية، وأعظمها»[3].

وقد ذكر لكتاب الكافي خصائص ومميزات كثيرة حثت العلماء على الاهتمام به كثيرا منها:

أولاً: ان مؤلفه قد عاصر زمن السفراء وعصر الغيبة مما يجعل «تصانيفه ورواياته في زمن الوكلاء المذكورين يجد طريقا إلى تحقيق منقولاته» بحسب تعبير السيّد بن طاووس[4].

ثانيا: التزام المؤلف في أن يذكر في كلِّ حديث ـ إلّا نادرا ـ جميع سلسلة السند بينه وبين المعصوم، وقد يحذف صدر السند ولعلّه لنقله عن أصل المروي عنه، من غير واسطة، أو لحوالته على ما ذكره قريبا، وهذا في حكم المذكور»[5].

ثالثا: ومن طريقة الشيخ الكليني وضع الأحاديث المخرجة الموضوعة على

---

(١) محفوظ ـ حسين علي، مقدمة الكافي: ٢٤ ـ ٢٦.

(٢) المفيد، تصحيح الاعتقاد: ٢٧.

(٣) ابن طاووس، كشف المحجة: ١٥٩.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الفيض الكاشاني، الوافي: ١ / ١٣.

الأبواب على الترتيب بحسب الصحة والوضوح..»[1].

رابعا: إنّ المؤلف قد جمع فنون العلوم الإلهية، واحتوى على الأُصول والفروع، وإنه يزيد على ما في الصحاح الستة.. فإنّ عدّة أحاديث الكافي (١٦١٩٩) حديثا، وجملة ما في كتاب البخاري الصحيح (٧٢٧٥) حديثا، بالأحاديث المكرّرة، وقد قيل: «أنها باسقاط المكرّرة (٤٠٠٠) حديث»[2]. قال ابن تيمية: «إنّ أحاديث البخاري ومسلم سبعة آلاف حديث وكسر»[3].

خامسا: تأني المؤلف في تأليفه الذي بلغ عشرين سنة، قال الوحيد البهبهاني: «ألا ترى أنّ الكليني رحمه الله مع بذل جهده في مدة عشرين سنة، ومسافرته إلى البلدان والأقطار، وحرصه في جمع آثار الأئمة، وقرب عصره إلى الأُصول الأربعمائة والكتب المعوّل عليها، وكثرة ملاقاته، ومصاحبته مع شيوخ الاجازات، والماهرين في معرفة الأحاديث، ونهاية شهرته في ترويج المذهب وتأسيسه...»[4].

لهذه المزايا، ولمزايا أُخرى، حظي كتاب الكافي باهتمام العلماء رواية وشرحا وتعليقا وتحشية، فكتبت عليه كثير من الشروح ومن قبل كبار العلماء والفقهاء والمحدثين، بالاضافة إلى التعليقات والحواشي الكثيرة جدا، والتي ذكر بعض منها في المقدمة التحقيقية للكتاب[5].

---

(١) الخوانساري، روضات الجنات: ٥٥٣.

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة: ٤ / ٥٩.

(٣) مقدمة ابن صلاح: ١٠.

(٤) محفوظ ـ حسين علي: المقدمة ٢٨ ـ ٢٩، وأُنظر: نهاية الدراية: ٢٢٠.

(٥) المرجع نفسه: المقدمة: ٣٠ ـ ٣٩.

فقه الشيخ الكليني:

لقد عرف الشيخ الكليني بالحديث وبكتابه الشهير (الكافي) والذي بذل جهدا استثنائيا في جمع أحاديثه وتبويبه وضمن منهجية علمية دقيقة.

ولم يعرف أو يشتهر الكليني كفقيه له آراؤه الفقهية من بين آراء الفقهاء المعروفين، ولعل ذلك يعود لسببين:

الأول: عدم تصنيفه في مجال الفقه، إذ لم يترك أثرا فقهيا في عداد مؤلفاته.

الثاني: اشتهار كتابه الكبير (الكافي) وطغيان سمعة هذا المصنَّف على سائر الجوانب العلمية الأُخرى ومنها علم الفقه والفتوى.

ومن أجل هذا وذاك قد يستبعد الجانب الفقهي من حياة الشيخ الكليني، ويقتصر في شهرته على دائرة الحديث فقط.

إلّا أنّ ثمة وجهة نظر أُخرى ترى أنّ ما كتبه الكليني في باب الفروع من الكافي ـ والذي استوعب الجزء الأكبر من كتابه ـ قد توفر على خبرة علمية وفقهية لا يستهان بها إذا ما قورنت بخبرات الآخرين من فقهاء عصره من امثال علي بن بابويه وولده محمد (الصدوقان).

ومما يعزز ذلك تعاطي الفقهاء آراءه ونقلهم أقواله في بحوثهم مما يعكس اهتمامهم بفقهه وآرائه، حتى أنهم يستظهرون من روايته للرواية أو عنونته للأبواب الافتاء بذلك.

ولهذا قام بعض الباحثين بجهد علمي قيّم من خلال تسليط الأضواء على البعد الفقهي والأُصولي في حياة الشيخ الكليني العلمية، ووصل إلى نتائج تثبت فقاهته وعمق آرائه[1].

---

(١) أُنظر مجلة فقه أهل البيت، العدد ٢٢ / ٢٣٧ ـ ٢٦٠ والعدد ٢٣ / ٢٤٥ ـ ٢٧٢ مقال: فقه الكليني، بقلم: الشيخ صفاء الخزرجي.

*** وفاته ومدفنه:**

توفي الشيخ الكليني ببغداد سنة (٣٢٩ هـ) بحسب رواية النجاشي، سنة تناثر النجوم، وهي السنة التي توفي فيها السفير الرابع السمري، إلّا أنّ بعضهم يذكر وفاته سنة (٣٢٨ هـ). ورجح الشيخ محفوظ الرواية الأُولى لقرائن ذكرها[1].

وأما مدفنه؛ فهو في بغداد بباب الكوفة بمقبرتها في الجانب الغربي، وكان ابن عبدون يعرف قبره، قال: «رأيت قبره في صراة الطائي، وعليه لوح مكتوب فيه اسمه، واسم أبيه، وقد درس»[2].

والأخبار عن اندراس قبر الشيخ الكليني يعود إلى أواخر القرن الرابع الهجري.

إلّا أنّ قبره اليوم قائم في الجانب الشرقي، على شاطئ دجلة عند باب الجسر العتيق (جسر المأمون الحالي) بالقرب منه، على يسار الجائي من جهة المشرق، وهو قاصد الكرخ، قال الميرزا عبد اللّه الأفندي: «قبره ببغداد ولكن ليس في المكان الذي يعرف الآن بقبره»[3].

ويقول السيّد محمود شكري الآلوسي وهو يتحدث عن جامع الآصفية: «.. وداخل هذا المسجد مشهد لبعض صلحاء الأُمة.. وقد اشتهر بين الناس، أنّ الدفين هو.. أبو الحارث المحاسبي؛ ومن الشيعة من يقول: إنه الكليني، من أكابر علماء الإمامية ورواة أحاديثهم.

ثمّ يقول: وكلا القولين لا يصح، ولا سيّما الثاني، فإنه بعيد جدا، على أن المحققين

---

(١) المرجع نفسه: ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) النجاشي: ٣٧٧، والطوسي، الفهرست: ١٣٦.

(٣) رياض العلماء: ٢٢٦.

من الإمامية لم يعترفوا بذلك، بل الذي يفهم من كلام بعض المؤرخين، أنه قبر أبي جعفر المستنصر باللّه، الخليفة العباسي، باني المدرسة المستنصرية.

وذكر محقق الكتاب في هامش الصفحة نفسها: الكليني، محمد بن يعقوب توفي سنة (٣٢٩ هـ) ببغداد، ودفن في باب الجسر (باب الكوفة) وهو أقرب إلى القبول، وربما دفن في تربة براثى [هكذا]، إذ إنه كان من أعيان من درس وأفتى وحدّث فيه»[١].

وللسيّد محمد مهدي الكاظمي صاحب كتاب أحسن الوديعة ردّ على الآلوسي لا يسع المجال لذكره[٢].

ومهما يكن من أمر، فيقول الشيخ حسين علي محفوظ: «وطريقة سلفنا، وآبائنا المتقدمين، واستمرار سيرتهم في زيارة الموضع المعروف المنسوب إليه في (جامع الآصفية) قرب رأس الجسر من المشرق، يضطرُّ إلى احترام هذا المزار كـ «تمثال الجنديّ المجهول عند الأُوربيين» وإن كان في الحقيقة لم يرمس فيه، وذلك، احياءً لذكره، واخلادا لاسمه، واستبقاءً له»[٣].

رحم اللّه الشيخ الكليني فقد عاش سعيدا، ومات سعيدا، وخلَّف للأُمة أثرا خالدا، فهو خالد بخلود أثره الكافي.

---

(١) الآلوسي ـ محمود شكري، تاريخ مساجد بغداد وآثارها: ٥٨، تحقيق: عبد اللّه الجبوري، طبعة بغداد، ٢٠٠٦ م.

(٢) للتوسع أُنظر: الكاظمي ـ محمد مهدي، أحسن الوديعة في تراجم أشهر مجتهدي الشيعة: ٢ / ١٤٠، طبعة دار الهادي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م.

(٣) محفوظ ـ حسين علي، المقدمة: ٤٢، وأُنظر السيّد محمد مهدي الكاظمي، أحسن الوديعة: ١٤٠.

اتجاه الصدوقين ودورهما في مدرسة بغداد:

الصدوقان: إذا أطلق لفظ الصدوقين فالمراد بهما؛ الصدوق الأول علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، وابنه الصدوق الثاني أبو جعفر محمد بن علي ابن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، ويقال لهما أيضا (ابنا بابويه) و (الفقيهان)[1].

والصدوقان ينتسبان علميا إلى مدرسة قم العلمية، التي كانت في عصرهما من المراكز العلمية والروائية والفقهية الكبيرة ـ كما سوف يأتينا ـ إلّا أنهما قد وفدا إلى بغداد وحدثا فيها، ولهذا سوف نتحدث عنها لهذا الاعتبار، ولكونهما يمثلان الاتجاه الفقهي الروائي الذي ظهر بقوة في عصرهما، وكان لها الاسهام الأكبر في ترويجه وتوسيع مباحثه.

وسوف نتحدث عن الصدوقين باعتبار القواسم المشتركة في منهجهما الفقهي وما انفرد به أحدهما عن الآخر في هذا المضمار. وقبل ذلك نشير إلى ملامح من ترجمة كلٍّ واحد منهما.

٢ ـ الصدوق الأول، علي بن الحسين بن موسى بن بابويه (٣٢٩ هـ)

ترجم له الشيخ النجاشي فقال: «عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، أبو الحسن.

شيخ القميين في عصره، ومتقدّمهم، وفقيههم، وثقتهم، كان قدم العراق واجتمع مع أبي القاسم بن روح رحمه الله، وسأله مسائل، ثمّ كاتبه بعد ذلك.. يسأله أن يوصل له رقعة إلى الصاحب عليه السلام ويسأله فيها الولد، فكتب إليه: «قد دعونا اللّه لك بذلك، وسترزق ولدين

(١) أُنظر القمي ـ عباس، سفينة البحار: ٥ / ٧٩ طبعة دار الأُسوة ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٤ هـ

ذكرين خيّرين».. له كتب منها: كتاب التوحيد، كتاب الوضوء، كتاب الصلاة، كتاب الجنائز، كتاب الإمامة والتبصرة من الحيرة.. كتاب الشرائع هي الرسالة إلى ابنه أخبرنا أبو الحسن العباس بن عمر بن العباس بن محمد... الكلوذاني قال: أخذت اجازة علي بن الحسين بن بابويه لما قدم بغداد سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة بجميع كتبه.

ومات علي بن الحسين سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وهي السنة التي تناثرت فيها النجوم.

وقال جماعة من أصحابنا: سمعنا أصحابنا يقولون: كنّا عند أبي الحسن علي ابن محمد السمري رحمه الله فقال: «رحم اللّه علي بن الحسين.. فقيل له: هو حيّ» فقال: «إنه مات في يومنا هذا»، فكتب اليوم، فجاء الخبر بأنه مات فيه»[1].

وفي فهرست الشيخ الطوسي: «.. كان فقيها جليلاً ثقة، وله كتب كثيرة، منها.. أخبرنا بجميع كتبه ورواياته الشيخ المفيد رحمه الله، والحسين بن عبيد اللّه عن أبي جعفر ابن بابويه عن أبيه»[2].

وفي فهرست ابن النديم قال: «ابن بابويه، واسمه: علي بن الحسين بن موسى القمي، من فقهاء الشيعة وثقاتهم، قرأت بخط ابنه أبي جعفر محمد بن علي، على ظهر جزء: قد أجزت لفلان بن فلان، كتب أبي علي بن الحسين وهي مائتا كتاب، وكتبي وهي ثمانية عشر كتابا»[3].

---

(١) النجاشي، الرجال: ٢٦١ ـ ٢٦٢، وأُنظر: الغيبة للشيخ الطوسي: ٣٩٤.

(٢) الطوسي، الفهرست: ٩٣.

(٣) ابن النديم، الفهرست: ٢٤٦، والخطيب في تاريخ بغداد: وأُنظر مقدمة السيّد الجلالي لكتاب التبصرة من الحيرة: ٧٥ ـ ٧٧.

وأُسرة (آل بويه) معروفة في التراجم، خرّجت العديد من رجالات العلم والدين، وانجبت العشرات من فحول الفقهاء والمحدّثين، وهي من الأُسر العريقة، والبيوتات الفاضلة، قال عنها المؤرخ الشهير ابن أبي طي: «بيت العلم والجلالة»[1].

وكان علي بن بابويه القمي؛ وهو العالم الفقيه المحدّث الجليل، بل وشيخ القميين في عصره وفقيههم وثقتهم، وصاحب المقامات العالية والدرجات الرفيعة، يمارس عمل التجارة في قم، كما يظهر ذلك من غيبة الشيخ الطوسي، حيث يروي أن الحلاج صار إلى قم وكاتب قرابة أبي الحسن ـ علي بن الحسين بن بابويه ـ يستدعيه ويستدعي أبا الحسن ويقول: أنا رسول الإمام ووكيله، قال [الراوي] فلما وقعت المكاتبة في يده خرقها وقال لموصلها إليه: ما أفرغك للجهالات؟.. ثمّ نهض إلى دكانه ومعه جماعة من أصحابه وغلمانه.. فلما دخل إلى الدار التي كان فيها دكانه نهض له من كان هناك جالسا، غير رجل رآه جالسا في الموضع فلم ينهض له ولم يعرفه.. فلما جلس وأخرج حسابه ودواته كما يكون التجار أقبل على بعض من كان حاضرا، فسأله عنه فأخبره، فسمعه الرجل يسأل عنه، فأقبل عليه وقال له: تسأل عني وأنا حاضر؟ فقال له أبي: أكبرتك أيها الرجل وأعظمت قدرك أن اسألك، فقال له: تخرق رقعتي وأنا أشاهدك تخرقها؟ فقال له: أنت الرجل إذا.

ثمّ قال: يا غلام برجله وقفاه، فخرج من الدار العدو للّه ولرسوله، ثمّ قال له: أتدعي المعجزات؟ عليك لعنه اللّه؟ قال [الراوي]: «فأخرج بقفاه فما رأيناه بعدها بقم»[2].

ومهما يكن من أمر، فإنّ أسرة آل بويه لها تراجم معروفة في كتب الرجال، ومنها

---

(١) العميدي ـ ثامر، مجلة فقه أهل البيت، العدد الثاني، السنة الأُولى: ١٦٣.

(٢) الطوسي، الغيبة: ٤٠٢ ـ ٤٠٣ وعنه في البحار: ٥١ / ٣٧٠.

يُعلم مكانة هذه الأُسرة العلمية وعظم مجدها، وما قدمته من خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، وهنالك مساحة واسعة للحديث عن جوانب من شخصية الشيخ الصدوق علي بن الحسين منها: الجانب الاجتماعي، والبعد العقائدي والأخلاقي،.. إلّا أننا سوف نتوقف عند البعد العلمي من شخصيته والتي أهلته لتسنم زعامة الفقه والحديث الشيعيين في أزهى مراكز العلم الشيعية (قم) وذلك من خلال استعراض النقاط التالية:

أولاً: الالتزام بمنهج الفقهاء الرواة في الفتوى:

إنّ اتجاه الصدوقين الأب والابن معا ينحو منحا مدرسة أهل الحديث.. فقد عرف عنهما التزامهما بلفظ الحديث وصيغته، فألّف لتحقيق هذا المنحى الشيخ الصدوق الأب رسالته إلى ابنه محمد الصدوق في الفتوى، وهي الرسالة التي ذكر النجاشي والطوسي في مؤلفاته والمعروفة بـ (الرسالة) وبـ (الشرائع) ملتزما فيها متن الحديث بلفظه، ومع اسقاط للسند.

ونجد في تراث الصدوق الابن كتابي (المقنع) و (الهداية) حيث نهج بهما منهاج أبيه في التدوين الفقهي، وهو الالتزام بمتن الحديث واسقاط السند.

ولهذا نجد لفتاوى الصدوقين قيمة علمية كبيرة حتى ذكر أن الأقدمين من الفقهاء إذا أعوزتهم النصوص الشرعية رجعوا إلى هذه الكتب.

قال المحدث النوري في مستدرك الوسائل: «وفي مجموعة الشهيد: ذكر الشيخ أبو علي ابن شيخنا الطوسي ـ قدس سرهما ـ أن أول من ابتكر طرح الأسانيد، وجمع بين النظائر، وأتى الخبر مع قرينه علي بن بابويه في رسالته إلى ابنه».

قال: «ورأيت جميع من تأخر عنه يحمد طريقته فيها ويعول عليه في مسائل لا

يوجد النص عليها لثقته وأمانته وموضعه من العلم والدين»[1].

وقال الشهيد في الذكرى: «إنّ الأصحاب كانوا يأخذون الفتاوى من رسالة علي بن بابويه إذا أعوزهم النص ثقة (به) واعتمادا عليه»[2].

وأشار ابن بابويه (الأب) نفسه إلى هذا المنهج في أول رسالته الموسومة برسالة الشرائع حيث قال: «إنّ ما فيه مأخوذ عن أئمة الهدى، فكل ما فيه خبر مرسل عنهم»[3] وأشار الصدوق (الابن) إلى نفس المنهج في ديباجة مقدمة كتابه (المقنع) وكذلك كتابه الكبير (من لا يحضره الفقيه).

يقول بعض الباحثين في حدود المنهج: «والصدوقان بهذا الاتجاه المذكور كانا يسيران وفق منهج الفقهاء الرواة، مع فارق حذف الأسانيد في كتب الفتيا، وتبويبها التبويب الفقهي المعروف في الأوساط العلمية آنذاك.

ويمكن تلخيص المنهج الذي اتبعه الصدوقان بما يلي:

١ ـ النقلة من الجمع للأحاديث غير المنظم الذي كانت عليه مدرسة الفقهاء الرواة إلى الجمع المنظم، وذلك بتبويب الأحاديث حسب موضوعاتها الفقهية بالجمع بين النظائر، وضمّ القرين إلى القرين.

٢ ـ تقويم السند باختيار الحديث المعتبر المفيد للعلم بصدوره عن الإمام عليه السلام وذلك من خلال احرازه شرطيَّ: وثاقة الراوي، وتلقي الأصحاب له بالقبول.

٣ ـ الالتزام عند الافتاء بنقل الحديث بصيغته ولفظه»[4].

---

(١) النوري، مستدرك الوسائل: ٣ / ٢٨٤.

(٢) الشهيد الأول ـ محمد جمال الدين مكي، ذكرى الشيعة: ١ / ٥١.

(٣) أُنظر: المقنع للصدوق: ٥، ومن لا يحضره الفقيه: ١ / ٣.

(٤) الفضلي ـ عبد الهادي، تاريخ التشريع الإسلامي: ٢٣٩ ـ ٢٤٠ بتصرف.

ثانيا: كثرة مرويات الصدوق الأول في كتب الحديث:

«إنّ من تصفح كتب الشيخ الصدوق الثاني يجد مرويات أبيه الصدوق الأول الأب بكثرة مطردة لاتضاهيها مرويات شيخ آخر من مشايخ الصدوق مطلقا، وإذا علمنا أنّ الشيخ الصدوق (الابن) هو من أكثر محدثي الشيعة رواية على الإطلاق، وأنّ ما يرويه فيها عن أبيه فقط قد يقرب من مجموع ما رواه عن غيره، اتضح لنا مدى الاهتمام البالغ الذي كان يبديه الصدوق الأوّل في الحفاظ على تراث أهل البيت عليهم السلام. بما فيه من أحاديث العقائد والأحكام والسنن والآداب...»[1].

ثالثا: رحلاته العلمية:

لقد انتهل الصدوق الأول العلم من منهله العذب (قم) والتي كانت في ذلك العصر حافلة بعلماء الشيعة ومحدثيهم وفقهائهم، وتشكل مرجعية فكرية يرجع إليها لتقويم النتاج العلمي في بلدان التشيع الأُخرى، كما مرّ بنا سابقا في قضية انفاذ كتاب (التأديب) إلى قم من قبل الحسين بن روح حيث كتب إلى جماعة الفقهاء فيها: «انظروا في هذا الكتاب وانظروا فيه شيءٌ يخالفكم...»[2].

ويذكر العلّامة المجلسي الأول في شرحه على كتاب من لا يحضره الفقيه: «إنّ في زمان علي بن الحسين بن بابويه المتوفى سنة (٣٢٩ هـ) كان في قم من المحدثين مئتا ألف رجل»[3].

إلّا أنّ الشيخ الصدوق الأول كان يتطلع إلى توسيع معارفه من خلال شد الرحال

---

(١) العميدي ـ ثامر، مجلة فقه أهل البيت، العدد الثاني، السنة الأُولى: ١٦٧.

(٢) الطوسي، الغيبة: ٣٩٠، طبعة مؤسسة دار المعارف الإسلامية ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١١ هـ

(٣) اللوامع في شرح من لا يحضره الفقيه فارسي: ١٤٩.

والهجرة في طلب العلم إلى مراكز التشيع الأُخرى وخاصة مدرسة بغداد؛ لمواكبة حركتها العلمية في الفقه والرواية، فكانت له رحلاته وأسفاره المتعددة إليها.

وقد نص النجاشي في ترجمته بأنه: «قدم العراق واجتمع مع أبي القاسم الحسين بن روح..» والذي يبدو من خلال تحقيق بعض الباحثين أنّ هذه السفرات إلى بغداد قد تكررت وتعددت، وتوسعت دائرتها لتشمل مدينتي الكوفة والنجف؛ إذ حدث عن مشايخ الكوفيين، ولعلّه شملت اسفاره بلدانا أُخرى «ولا يبعد رحيله إلى تلك المراكز العلمية في ذلك العصر لغرض اللقاء مع مشايخ الفقه والحديث فيها، ويحتمل اللقاء بهم في مدينة قم نفسها بصفتها مركز استقطاب العلماء والمفكرين والفقهاء والمحدثين في عصره، كما لا يبعد أيضا التقاؤه بعلماء ماوراء النهر وخراسان في زيارته لمشهد الإمام الرضا عليه السلام»[١].

رابعا: مشايخه وتلامذته والرواة عنه:

للشيخ الصدوق الأول علي بن الحسين بن بابويه كثرة من المشايخ روى عنهم، ذكرهم مفصلاً ولده محمد بن علي الصدوق الثاني في مشيخة كتابه من لا يحضره الفقيه، كذلك قام الأُستاذ ثامر العميدي بجهد علمي من خلال استقراء جميع المصادر التي يمكن من خلالها الوصول إلى مشايخ الصدوق ورتب ذلك بحسب ترتيب حروف المعجم، وصل عددهم إلى (٤٨) شيخا[٢].

وأما تلامذته والرواة عنه: فقد تخرّج على يديه وروى عنه مجموعهمن أعلام

---

(١) العميدي، مجلة فقه أهل البيت، العدد الثاني، السنة الأُولى: ١٧٠.

(٢) العميدي، المرجع نفسه: ١٧٠ ـ ١٧٥ وقارن بما كتبه المحدث النوري في خاتمة المستدرك: ٣ / ٢٨٤.

الشيعة، ذكر منهم الشيخ عبد الرحيم الرباني في مقدمته التحقيقية لكتاب معاني الأخبار عشرة من المشايخ[1]، وأوصلهم السيّد الجلالي إلى أربعة عشر شخصا[2].

كما أن السيّد الخوني في معجم رجال الحديث قد ذكر ترجمته، وطبقته من بين الرواة[3].

خامسا: تراثه العلمي:

يعد الشيخ الصدوق الأول من المصنفين الشيعة، وله مؤلفات عدّة، أكثرها في الفقه، وبعضها في الإمامة والتفسير والمنطق والطب.. وقد ذكر له النجاشي ثمانية عشر كتابا، والشيخ وابن شهرآشوب عشرين كتابا[4].

«والذي يؤسف على كتبه ضياع معظمها؛ إذ لم يبق منها إلّا النزر اليسير، وما وصل منها إلى قريب من زماننا هو اليوم في عداد الكتب المفقودة من تراثنا»[5].

ومن أهم ما وصلنا ـ متفرقا ـ من تراث الصدوق الأول الفقهي هو رسالته لولده المعروفة بـ (الشرائع) وهي رسالة فقهية فتوانية كتبها الشيخ لولده بعنوان الوصية ونقل عنها الصدوق الثاني بعنوان (الرسالة)، وللأسف ليس بين أيدينا رسالة الصدوق، وهي من مفقودات التراث الشيعي، إلّا أ نّه يوجد قطع منها في كتب ولده وفي كتب العلّامة الحلّي وخاصة كتاب المختلف.

---

(١) الرباني ـ عبد الرحيم، مقدمة معاني الأخبار: ٨١ ـ ٨٢ طبعة أُفست دار المعرفة ـ بيروت، ١٩٧٩ م.

(٢) الجلالي ـ محمد رضا، مقدمة تحقيق كتاب الإمامة والتبصرة: ٤٦ ـ ٥٢.

(٣) الخوني، معجم رجال الحديث: ١٢ / ٣٩٨، ٥٨١ ـ ٥٨٦.

(٤) أُنظر: رجال النجاشي: ٢٦١ وفهرست الشيخ: ٩٣ ومعالم العلماء: ٦٥.

(٥) العميدي: ١٨١ عن الجلالي في تحقيق التبصرة: ٨١ ـ ٩٠.

وتأتي أهمية (الرسالة) من كونها أقدم متن فقهي روائي يصل إلينا، بالاضافة إلى كون صاحبها من المعاصرين لعصر الغيبة الصغرى، ولتعامل الصدوق الثاني مع رسالة والده معاملة النص، قال المجلسي الأول: «إنّ الصدوق يعتبر رسالة أبيه بمنزلة النص؛ لأ نّه لم ينقل من غير النصوص ولا يعمل بغيرها، ولهذا وزّع هذه الرسالة في الكتاب [أي ـ كتاب من لا يحضره الفقيه] ونقل منها في كلِّ باب سطرا بالرغم من وجود الأخبار المؤيدة»[1].

وقد صرح الشهيد الأول، باعتماد الأصحاب على رسالة علي بن بابويه القمي، فقال: «وقد كان الأصحابُ يتمسكون بما يجدونه في شرائع الشيخ أبي الحسن ابن بابويه عند إعواز النصوص، لحسن ظنهم به، وإن فتواه كروايته وبالجملة تنزل فتاويهم منزلة روايتهم»[2].

ولأهمية رسالة الصدوق فقد اعتمد وعوّل عليها فقهاء الشيعة في كل الأعصار من المفيد إلى المرتضى إلى الطوسي إلى ابن ادريس إلى المحقق الحلّي والعلّامة.. ومن يراجع كتبهم الفقهية يجدهم يستندون إلى الرسالة ونموذج ذلك ما قاله ابن ادريس في السرائر: «وما اخترناه مذهب الشيخ الصدوق، وعلي بن بابويه في رسالته»[3].

ورسالة الشيخ الصدوق الفقهية وإن كانت مختصرة ولم تتجاوز الفروع الفقهية المتعارفة ولم تستوعب جميع مسائل الفقه.. إلّا أنَّ لها منهجية تعتبر مبتكرة في زمان مؤلفها وهو طرح الأسانيد، يقول المحدّث النوري: «وفي مجموعة الشهيد: ذكر

---

(١) المجلسي، شرح الفقيه فارسي: ١ / ١٦٠.

(٢) الشهيد الأول ـ محمد بن جمال الدين مكي العاملي، ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة: ١ / ٥١ مقدمة المؤلف، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، الطبعة الأُولى، محرم ١٤١٩ هـ.

(٣) ابن ادريس، السرائر: ١ / ١٦٩.

الشيخ أبو علي ابن شيخنا الطوسي﵀ إنّ أول من ابتكر طرح الأسانيد وجمع النظائر.. علي بن بابويه في رسالته إلى ابنه، قال: ورأيت جميع من تأخر عنه يحمد طريقته فيها ويعوّل عليه في مسائل لا يجد النصّ عليها لثقته وإمامته وموضعه من العلم والدين»[1].

وهذه الرسالة على أهميتها ومنهجيتها وتعويل العلماء عليها، إلّا أنها تضمنت بعض الفتاوى الشاذة والمخالفة لاجماع الطائفة، بل ولاجماع المسلمين على حد قول صاحب السرائر[2] إلّا أنّ هذا لا يضرّ بعظمة الشيخ الصدوق الأول ورسالته المبتكرة بعد عصر النص.

وفي الختام:

لقد كانت للشيخ الصدوق منزلته العالية ولهذا أثنى عليه كل من ذكره أو ترجم له بأسمى عبارات الثناء والمدح وهو أهل لذلك، إلّا أنّ ما جاء في رسالة الإمام الحسن العسكري﵇ إليه، لا يضاهيها كل آيات المدح والثناء، فهو يخاطبه بقوله: «أُوصيك يا شيخي ومعتمدي أبا الحسن علي بن الحسين القمي، وفقك اللّه لمرضاته وجعل من صلبك أولادا صالحين.. فأعمل بوصيتي، وأمر جميع شيعتي حتى يعملوا بها، وعليك بالصبر وانتظار الفرج.. فاصبر يا شيخي، وأمر جميع شيعتي بالصبر، فإنّ الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، والسلام عليك ورحمة اللّه وبركاته...»[3].

---

(١) النوري، خاتمة مستدرك الوسائل: ٣ / ٢٨٢ من الفائدة الثالثة، طبعة مؤسسة آل البيت ـ قم عن مجموعة الشهيد: ٣٥٥.

(٢) الحلي ـ ابن ادريس، السرائر: ١ / ٤٤٧.

(٣) الأفندي، رياض العلماء: ٤ / ٧ نقلها عن مجالس المؤمنين: ٢ / ٤٥٣ وخاتمة المستدرك للنوري: ٣ / ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

قال الخوانساري في الروضات بعد أن أورد الرسالة: «وقال بعض الأعاظم ـ بعد ذكره لذلك ـ وهذه الرسالة إذا حقت دلّت على عظم شأن عليّ المذكور، واللّه أعلم»[1].

* وفاته: توفي رضوان اللّه عليه في (٣٢٩ هـ) وفي نفس السنة التي توفي فيها السفير الرابع أبو الحسن السمري، ودفن في مدينة قم المقدّسة على مقربة من حرم السيّدة فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام.

٣ ـ الصدوق الثاني، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ)

ترجم له النجاشي في رجاله فقال: «محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي أبو جعفر، نزيل الريّ، شيخنا وفقيهنا ووجه الطائفة بخراسان، وكان ورد بغداد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، وسمع منه شيوخ الطائفة وهو حدث السنّ، وله كتب كثيرة، منها:... أخبرني بجميع كتبه وقرأت بعضها على والدي عليّ بن أحمد بن عباس النجاشي رحمه الله وقال لي: أجازني جميع كتبه لما سمعنا منه ببغداد، ومات رضي الله عنه بالريّ سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة»[2].

وقال عنه الشيخ الطوسي في رجاله: «جليل القدر حَفَظَة، بصير بالفقه والأخبار والرجال له مصنفات كثيرة ذكرناها في الفهرست..».

وذكره الشيخ الطوسي في الفهرست فقال: «محمد بن علي.. جليل القدر، يكنى أبا جعفر، كان جليلاً حافظا للأحاديث بصيرا بالرجال، ناقدا للأخبار، لم يُرَ في

---

(١) الخوانساري، روضات الجنات: ٤ / ٢٧٤.

(٢) النجاشي، الرجال: ٣٨٩ ـ ٣٩٢.

القميين مثله في حفظه، وكثرة علمه، له نحو من ثلاثمائة مصنف، وفهرست كتبه معروف، وأنا أذكر منها ما يحضرني في الوقت من أسماء كتبه، منها... أخبرنا بجميع كتبه ورواياته جماعة من أصحابنا منهم الشيخ المفيد، والحسين بن عبيد اللّه، وأبو الحسين جعفر بن حسكة القمي، وأبو زكريا محمد بن سليمان الحمراني، كلهم عنه»[1].

وذكر كل من الشيخين في ترجمته قائمة طويلة ومنوعة من كتبه، يذهل المرءُ من كثرة عناوينها وتنوع مباحثها.

وحياة الشيخ الصدوق الثاني حياة حافلة بالعلم والعمل والأسفار لا يمكن استيعابها في هذا المختصر، وإنما سوف نتوقف عند بعض ملامحها.

أولاً: وثاقته:

من نافلة القول الحديث عن وثاقة الشيخ الصدوق، فهو في أعلى درجات الوثاقة وأسماها، وهو «شيخ مشايخ الشيعة، وركن من أركان الشريعة، ورئيس المحدّثين، والصدوق فيما يرويه عن الأئمة عليهم السلام، ولد بدعاء الصاحب عليه السلام ونال بذلك عظيم الفضل، وصفه في التوقيع بأنه فقيه مبارك ينفع اللّه به، فعمت بركته الأنام، وانتفع به الخاصّ والعام...».

وقد نص على وثاقته العلّامة في (المختلف) وقبله ابن طاووس في (فلاح السائل)، بل جميع أصحاب الحديث، والشيخ منتجب الدين، وابن ادريس في (السرائر)، والشهيد في (شرح الارشاد) و (الذكرى) والمحقق الداماد، والبهائي، والمجلسيان، والشيخ الحر، وصاحب الحاوي، والعلّامة الطباطبائي وغيرهم.

---

(١) الطوسي، الرجال: ٤٣٩، والفهرست: ١٥٦ ـ ١٥٧.

وممّا دلّ على وثاقته وعلوّ منزلته ما ورد في التوقيع الشريف في شأنه، وأنّهم كانوا يعتنون بمذهبه في الاجماع والخلاف، وبقوله في التوثيق والتعديل، ويعوّلون على كتبه حتّى مراسيله، وقد قيل إنّ مراسيله في الفقيه كمراسيل ابن أبي عمير»[1].

ولهذا يقول العلّامة المجلسي ـ بعد أن يورد كلاما للصدوق ـ: «وإنما أوردناه لكونه من عظماء القدماء التابعين لآثار الأئمة النجباء، الذين لا يتّبعون الآراء والأهواء ولذا ينزل أكثر أصحابنا كلامه وكلام أبيه رحمه الله منزلة النص المنقول والخبر المأثور»[2].

وكلمات التوثيق والاطراء والثناء والمدح الصادرة بحق هذا الشيخ الجليل كثيرة جدا، «.. فوثاقة الصدوق أمر ظاهر جلي، بل معلوم ضروري كوثاقة أبي ذر وسلمان، ولو لم يكن إلّا اشتهاره بين علماء الأصحاب بلقبيه المعروفين ـ يقصد رئيس المحدثين والصدوق ـ لكفى في هذا الباب» على حدر تعبير السيّد بحر العلوم في الفوائد[3].

ثانيا: نشأته العلمية:

لم يضبط لنا التاريخ ولادة الشيخ الصدوق بدقة، وكلُّ ما قيل في ولادته أنه ولد بدعاء الإمام الحجة عليه السلام إذ إن والده كتب إلى الشيخ الحسين بن روح يطلب منه أن يسأل الإمام أن يدعو اللّه أن يرزقه أولادا فقهاء فجاء الجواب: «إنك لا ترزق من هذه، وستملك جارية ديلمية وترزق منها ولدين فقيهين»[4].

(١) المامقاني، تنقيح المقال: ٣ / ١٥٥.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ١٠ / ٤٠٥.

(٣) بحر العلوم، الفوائد الرجالية: ٣ / ٢٩٢، ٣٠١.

(٤) الطوسي، الغيبة: ٣٠٨.

والذي يبدو أن قضية ولادة الصدوق بدعاء الإمام كان من الأُمور المشهورة والذائعة الصيت في المحافل القمية ولهذا يقول الشيخ الطوسي: «كان أهل قم يتعجّبون من حفظهما ـ الصدوق وأخيه ـ فكلما رويا شينا قال الناس: هذا الشأن خصوصية لكما بدعوة الإمامعليه السلام، وهذا أمر مستفيض في أهل قم»[1].

وقد حاول السيّد بحر العلوم في فوائده أن يحدد سنة ولادة ووفاة الصدوق من خلال بعض القرائن وكذلك تحديد من أدرك من طبقة الرواة[2].

ومهما يكن من أمر، فقد ولد الصدوق في أُسرة كريمة عرفت بالفضل والعلم والشرف والسؤدد والمجد،ونبغ فيها ثلة من أئمة العلم والفقه وعلى رأسهم والده المكرم علي بن الحسين بن موسى بن بابويه، الذي أجمعت الطائفة على فضله وعلمه وعلو مرتبته موصولاً بجده موسى، وبجده الأعلى بابويه القمي الذي عُرفت الأُسرة به، وكذلك باخوته الذين: «كلهم كانوا من أكابر العلماء» بحسب تعبير صاحب الرياض[3].

فكان معلمه الأول هو والده شيخ مشايخ قم في عصره، فنشأ برعاية أبيه، حيث أدرك من أيامه أكثر من عشرين سنة، اقتبس خلالها من أخلاقه وعلمه[4].

ثمّ انتهل بعدها أو معها من زلال ينبوع علماء قم ومحدثيهم، والتي كانت في عصره آهلة بالعلم والعلماء وحملة الحديث، فأخذ عنهم العلوم والمعارف، وحاز إجازة الحديث والرواية عن كثير من مشايخها كما سوف يأتينا لاحقا.

---

(١) الطوسي، الغيبة: ٣٠٩.

(٢) بحر العلوم، الفوائد الرجالية: ٣ / ٣٠١.

(٣) الأفندي، رياض العلماء: ٢ / ١٤٨.

(٤) الخرسان ـ السيّد حسن، مقدمة من لا يحضره الفقيه: ل.

وكانت (الريّ) موطنه الثاني، وكانت أيضا آهلة بالعلماء والمحدثين من كلا الفريقين، عامرة بمكتباتها، كمكتبة الصاحب بن عبّاد، ومكتبة ابن العميد، ومكتبة شرف الدين أبي الفضل محمد بن علي بن المطهر نقيب النقباء في الري[١].

ثالثا: رحلته العلمية وأسفاره:

لقد كانت للشيخ الصدوق﵀ أكثر من هجرة من وطنه (قم) إلى مدن وبلدان كثيرة بعيدة، ولم تقتصر على مدينة (الريّ) المجاورة لمدينته، والتي عاد إليها في نهاية المطاف وبقي فيها إلى أن توفي ودُفن بها سنة (٣٨١ هـ).

«ولم تكن همة الشيخ الصدوق مقصورة على الأخذ من مشايخ بلده فحسب، بل تعالت همته حتى حملته وعثاء السفر، فسافر في رجب سنة (٣٣٩ هـ) لطلب الحديث، وتتابعت أسفاره فطاف فيها كثيرا من البلدان، يبادل العلماء السماع والأخذ في أُمهات الحواضر العلمية، وما أكثرها في عصره، فقد كان من عصور العلم الزاهية في التقدم وشيوع العلم وإذاعة الأدب...»[٢].

والذي يبدو أن مدينة «الري» كانت أول محطات سفره حيث استدعاه إليها ركن الدولة البويهي.. وشاركه أهالي بلده (الري) في تلك الرغبة.. فلبّى طلبهم.. سافر إلى (الري) وأقام هناك فالتف حوله جماهير أهلها يأخذون عنه أحكامهم.. فافاض عليهم من علومه ومعارفه.. كما أنه أخذ من شيوخ البلد فسمع في رجب (٣٤٧ هـ) من البردعي، وابن يعقوب، والصائغ، والقطان الرازي[٣].

---

(١) الخزرجي ـ صفاء، مجلة فقه أهل البيت، السنة الأُولى، العدد الرابع: ١٦٢.

(٢) الخرسان ـ السيّد جسن: المقدمة: م.

(٣) المرجع نفسه: س.

وللشيخ الصدوق أسفار أُخرى طاف فيها كثيرا من البلدان وسمع بها من جماعة من الشيوخ وأولي الفضل، ويمكن الاطلاع على تفاصيل أسفاره من خلال كتبه وأماليه والتي يؤرخ بها وبدقة لمكان وزمان أماليه، كما يمكن أن نستفيد بعض التواريخ من بعض أسانيد العيون والمحاسن للمرتضى.

وقد استقرأ السيّد الخرسان في مقدمته القيِّمة لكتاب من لا يحضره الفقيه، أسفار الشيخ الصدوق والبلدان التي نزلها وحدث بها أو أخذ من مشايخها، فثبت قائمة طويلة من البلدان تشمل: خراسان، استرآباد وجرجان، نيشابور، مرو الرود، سرخس، سمرقند، بلخ، إيلاق، فرغانة، همدان، بغداد ـ التي دخلها سنة (٣٥٢ هـ) وحدث بها وسمع منه الشيوخ كما أنه سمع من الشيوخ، ودخلها مرة ثانية بعد منصرفه من الحج سنة (٣٥٥ هـ) ـ والكوفة، ومكة والمدينة، فيد...»[١].

رابعا: شيوخه وتلامذته ومن روى عنه:

لقد أخذ الشيخ الصدوق الرواية عن كثير من أعلام عصره من الخاصة والعامة وتحمل منهم الحديث في مختلف الفنون، وكان جلُّ أُولئك المشايخ من أفذاذ العلماء الذين كانت تُشدُّ إليهم الرحال للتحمل والرواية في مختلف الحواضر العلمية في القرن الرابع كبغداد والكوفة والري وقم ونيشابور وطوس وبخارى؛ تلك البلدان التي سافر إليها الشيخ وحُدِّث بها كما حَدَّث فيها.

وللشيخ النوري شرح وافي على مشيخة الصدوق لكتابه من لا يحضره الفقيه، وأحصى الكثير من مشايخ الصدوق وذكرهم في خاتمة المستدرك، كما أنّ السيّد الخرسان استدرك على خاتمة المستدرك فذكر من عثر عليه في بعض أسانيد الشيخ،

---

(١) للتوسع أُنظر، الخرسان ـ حسن: المقدمة: س، ع، ف، ص، ق.

فذكر قائمة طويلة من الأسماء[1].

إلّا أنّه كان يعول كثيرا على شيخه محمد بن الحسن بن الوليد، وعلى أبيه[2].

ويذكر الخطيب البغدادي في تاريخه: «أنّ الصدوق عندما ورد بغداد حدّث فيها عن أبيه»[3].

وأما تلامذته ومن روى عنه فهم مما لا يمكن إحصاؤهم لكثرتهم، «فلو أردنا أن نستقصي على التحقيق والاستقراء جميع من روى عن شيخنا المترجم له، وأخذ عنه العلم، لطال بنا البحث، ولاحتجنا إلى زمن كثير.. وذلك لأنّ شيوخ الطائفة سمعوا منه وهو حدث السن، وإنه كانت له رحلات كثيرة إلى البلدان والحواضر العلمية وكان يبادل السماع والأخذ فيها، وإنّه عمّر نيفا وسبعين سنة.. على ضوء هذه المعطيات: «لا يسعنا الاحاطة ـ تماما ـ بجميع من أخذوا عنه، مع أن كثيرا من مترجميه لم يذكروا إلّا بعض أعيان تلامذته من الذين طار صيتهم وسطع نجمهم وذاعت أسماؤهم على الألسنة»[4] ومن أبرز أُولئك الشيخ المفيد، محمد بن محمد النعمان، والشيخ الغضائري أبو عبد اللّه الحسين بن عبيد اللّه، والشيخ التلعكبري أبو محمد هارون بن موسى، والسيّد الشريف أبو عبد اللّه محمد بن الحسن المعروف بـ (نعمة)، والذي اقترح عليه تصنيف كتاب من لا يحضره الفقيه..[5]، بالاضافة إلى الشيخ علي بن أحمد والد الشيخ النجاشي الذي سمع منه ببغداد كما مرّ بنا في ترجمته للصدوق

(١) للتوسع أُنظر المرجع نفسه: ر، ش، ت، ث، خ، ذ، ض، ظ، غ، أب، أج، أد.

(٢) واعظ زاده، بحوث ودراسات: ٢ / ٢٢٠.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٣ / ٨٩.

(٤) الخرسان ـ حسن، المقدمة: أه وما بعدها.

(٥) المرجع نفسه: ص.

يضاف إلى ذلك أخاه الحسين بن علي بن موسى بن بابويه، وابن أخيه الحسن بن الحسين..»[1].

خامسا: آثاره العلمية:

يذكر أن الشيخ الصدوق قد صنّف نحو ثلاثمائة مصنّف على ما في الفهرست للشيخ الطوسي[2]، وفي شتى فنون العلم وأنواعه.

لقد وهب اللّه سبحانه للشيخ الصدوق موهبة قوة الذكاء، وشدة الحفظ، واتقاد الذهن، بالاضافة إلى وقوفه على موارد المعرفة من خلال مكوثه في (الري) حيث مكتبة الصاحب بن عباد الغنية بالنفائس والآثار، والتي كان فهرسها عشرة مجلدات، ذكر ذلك ياقوت في معجمه، سوى غيرها من خزائن الكتب التي عثر عليها في أسفاره.. وهو الذي كانت مدرسته العلمية سيارة قائمة بشخصه الكريم، فهو أينما حلَّ وأي بلد نزل، أملى بها وحدث، ونسخت أكثر مصنفاته في عصره، فقد نسخ منها الشريف ـ عبد اللّه ـ نعمة مائتي كتاب وخمسة وأربعين كتابا!

ويا للأسف لم يصل لأيدينا من تلك الثروة الضخمة إلّا النزر اليسير، وفيما بقي من آثاره دليل صدق على عظمته..»[3].

هذا وقد استقصى السيّد الخرسان أسماء مصنفات الشيخ الصدوق، ورتبها بحسب حروف الهجاء، مع ذكر موضوعاتها غالبا، والتنبيه على المطبوع منها، كما نبه

---

(١) الخرسان ـ حسن، المقدمة: ا هـ

(٢) الطوسي، الفهرست: ١٥٦.

(٣) الخرسان ـ حسن، المقدمة: أز.

على ما عكف عليه العلماء بالشرح والترجمة[1].

ومن أهم كتبه الموجودة والمطبوعة والمتداولة:

١ ـ كتاب الاعتقادات والذي شرحه الشيخ المفيد ونقد بعض موارده وسماه (تصحيح الاعتقاد).

٢ ـ الأمالي، وهو المعروف بالمجالس ومطبوع بعنوان أمالي الصدوق.

٣ ـ التوحيد، وردَّ فيه على من نسب إلى الشيعة القول بالتشبيه والجبر....

٤ ـ ثواب الاعمال وعقاب الأعمال، وقد طبع مكررا، وترجم إلى الفارسية.

٥ ـ الخصال، في الأخلاق وذكر فيه الخصال المحمودة والمذمومة على حسب الاعداد.

٦ ـ علل الشرائع، والأحكام والأسباب.

٧ ـ عيون أخبار الرضاعليه السلام وقد طبع مرارا وترجم إلى الفارسية وله حواشي وشروح متعددة.

٨ ـ اكمال الدين واتمام النعمة، وهو من كتب الغيبة وطبع مرارا كما اعتنى به بعض المستشرقين.

٩ ـ معاني الأخبار، وقد طبع مع علل الشرائع، وطبع وحده.

١٠ ـ من لا يحضره الفقيه، وهو من أحسن كتب الصدوق وأتقنها، وهو رابع الأُصول الأربعة، التي عليها مدار الشيعة في أخذ الأحكام الشرعية، وللكتاب حواشي وشروح ومشيخة.

هذه أهم مؤلفات الشيخ الصدوق الموجودة والمشهورة، وأما باقي مصنفاته فهي

---

(١) المرجع نفسه: أز ـ أح.

من المفقودات، ومن أهمها كتاب (مدينة العلم) والذي يقع في عشرة اجزاء، وهو أكبر من كتاب (من لا يحضره الفقيه) والذي عدّه والد الشيخ البهائي في درايته خامس الأُصول الأربعة فقال: «وأُصولنا الخمسة، الكافي، ومدينة العلم...»[1].

قال الشيخ الطهراني آغا برزك في الذريعة: «فالأسف على ضياع هذه النعمة العظمى من بين أظهرنا وأيدينا من لدن عصر والد الشيخ البهائي ـ الذي مرت عبارته الظاهرة في وجوده عنده أو في زمانه ـ إلى يومنا هذا، حتى أن العلّامة المجلسي صرف أموالاً جزيلة في طلبه وما ظفر به...»[2].

ومهما يكن من أمر، «فقد دلّت آثار شيخنا الصدوق؟ على سمو مقامه الكريم في الفضل، ورسوخ قدمه في فنون العلوم التي كان مشاركا فيها، فقد ذكر مترجموه أنه كثير العلم جليل القدر، عديم النظير محدث بصير،.. وقد كان يرجع إليه أهل كثير من البلدان في أخذ الأحكام؛ كأهل الكوفة والبصرة وواسط وبغداد والري وقم ونيشابور وقزوين، وحتى في مصر كان بها من يرجع إليه ويأخذ عنه، ولا تخلو بعض أسماء كتبه عن دلالة على ذلك.

وإذا ما قرأنا شيخنا ـ الصدوق ـ من خلال أسماء مؤلفاته.. نجده مع المفسرين مفسرا واسعا، ومع المحدثين محدثا جامعا، ومع الفقهاء فقيها بارعا، ومع المتكلمين متكلما صادعا، كما لا نعدمه في ميادين أُخرى من حقول العلم وفنونه، فمع المؤرخين والفلاسفة والأُدباء والمتطببين.. فإنّ له في كل تلك الفنون تأليفا واحدا أو أكثر، وان دل ذلك على شيءٍ فإنما يدل على المام تام واحاطة وافية وسعة اطلاع يتسنى له بها

(١) الخرسان ـ حسن، المقدمة: أر، نقلاً عن دراية الشيخ حسين بن عبد الصمد والد الشيخ البهائي.

(٢) آغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢٠ / ١٦٦.

التأليف والتصنيف، وإن فيما بقي من تآليفه المطبوعة والمخطوطة لدلالة واضحة على موفقية الشيخ في تآليفه، ونجاحه وجهاده المستمر أكثر من نصف قرن»[1].

سادسا: وفاته ومدفنه:

لقد كانت حياة الشيخ الصدوق‌ﷺ حياةً حافلة بالعطاء، وسلسلة متصلة الحلقات في الكدح والجهاد العلمي المتواصل؛ وعلى مختلف الأصعدة العلمية، فقد تجشم المصاعب وركب الأهوال لقطع المسافات البعيدة في سبيل خدمة الدين.. فإنه طيب الله ثراه قضى حياته بين زوايا الشيوخ للسماع والإسماع، وبين حلقات الدرس في الجوامع والمجامع للافادة والاستفادة، وبين بطون الكتب وأُصول الحديث عاكفا على التأليف والتصنيف، مجاهدا صادقا وعاملاً ناصحا.

ولقد ختم الزمن ـ بأسف بالغ ـ آخر صفحة من تاريخه المجيد وطوى صحيفة أعماله بإكبار وتقدير، حين دعي شيخنا فأجاب نداء ربه في سنة (٣٨١ هـ) مخلفا له جميل الذكر وحسن الأُحدوثة خالدا بحسناته الباقيات الصالحات. وقبره بالري بالقرب من قبر عبد العظيم الحسني‌ﷺ، في بقعة شرفت به وأضحت مزارا، وظهرت لهذا القبر الشريف كرامات لصاحبها سجلها بعضهم في ترجمته[2].

رحم الله الشيخ الصدوق ووالده، فقد أسسا مدرسة فقهية عرفت بمدرسة الصدوقين، لها منهجها في بيان الأحكام الشرعية المبتنية على النصوص الشرعية مع تجريدها عن أسانيدها.

---

(١) الخرسان ـ حسن، المقدمة: أزا ـ أحا.

(٢) أُنظر الخوانساري، روضات الجنات: ٦ / ١٤٠ ـ ١٤١.

المبحث الثاني: اتجاه القديمين ودورهما في مدرسة بغداد

قلنا فيما سبق، إنّ المسؤولية الكبرى في رعاية شؤون شيعة أهل البيت فكريا وعقائديا وتشريعيا قد أناطها الإمام المهدي عليه السلام في عصر غيبته الكبرى بفقهاء أهل البيت عليهم السلام من خلال التوقيع الصادر منه.

وقلنا أيضا إن طبيعة غيبة الإمام تفرض الانتقال إلى العمل بالاجتهاد المعمق والموسع وفي اطار النص الشرعي؛ وان هذا اللون من الاجتهاد يستلزم تهيئة وسائل عملية كثيرة والتي ذكرنا بعضها سابقا.

وقد انبثق من أجل القيام بمسؤولية تحقيق هذه المستلزمات في الوسط الفكري والفقهي الإمامي اتجاهان:

مَثَّل أحدهما اتجاه الصدوقين، وسبقهما الشيخ محمد بن يعقوب الكليني، في نفس الاتجاه، حيث كان هذا الاتجاه ينحو منحى مدرسة الحديث والأثر، والفقه الروائي الذي يستند على نص الروايات مع تجريدها عن أسانيدها، فبرز لدينا منهج الفقهاء الرواة والفقه الرواني، الذي يمكن تلخيصه بما يلي:

أ ـ جمع وتبويب الأحاديث بحسب موضوعاتها الفقهية من خلال ضم النظير إلى النظير والقرين إلى قرينه، لتشكل بذلك وحدة موضوعية منظمة.

ب ـ تقويم السند من خلال اختيار الأحاديث المعتبرة المفيدة للعلم أو الاطمئنان المتاخم للعلم بصدورها، وذلك من خلال احراز وثاقة الراوي أو تلقي الأصحاب له بالقبول.

ج ـ الالتزام عند الافتاء بنقل الحديث بصيغته ولفظه[1].

وقد تحدثنا عن هذا الاتجاه من خلال نموذج الصدوقين (رضوان اللّه عليهما) ومن قبلهما الشيخ محمد بن يعقوب الكليني.

الاتجاه العقلي عند القديمين:

وإلى جانب اتجاه المحدثين ومنهج الفقهاء الرواة، برز اتجاه آخر متزامنا معه يعرف تاريخيا باتجاه (القديمين) والذي يمثله:

١ ـ الحسن بن علي بن أبي عقيل العماني (الحذّاء) المعاصر للصدوق الأول (الأب).

٢ ـ ومحمد بن أحمد بن الجنيد الاسكافي البغدادي، المعاصر للصدوق الثاني (الابن).

فلابد من التوقف عند هذين العلمين واستجلاء معالم اتجاههما ومنهجهما الفقهي، وأثر تراثهما المدون لدى المدرسة الفقهية الإمامية في عصرهما والعصور الآتية:

الحسن بن علي بن أبي عقيل العماني

قال النجاشي: الحسن.. أبو محمد العماني الحذّاء، فقيهٌ متكلّم ثقة، له كتب في الفقه والكلام منها: كتاب المتمسّك بحبل آل الرَّسول، كتاب مشهور في الطائفة. وقيل: ما ورد الحاج من خراسان إلّا طُلب واشتري منه نُسخ، وسمعتُ شيخنا أبا عبد اللّه‌ﷺ يكثر الثناء على هذا الرجلﷺ، أخبرنا الحسين بن أحمد بن محمد، ومحمد بن

(١) أُنظر، الفضلي ـ عبد الهادي، تاريخ التشريع الإسلامي: ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

محمد، عن أبي القاسم جعفر بن محمد قال: كتب إليّ الحسن بن علي بن أبي عقيل يجيز لي كتاب المتمسك وسائر كتبه، وقرأت كتابه المسمّى كتاب الكرّ والفرّ على شيخنا أبي عبد الله‌ﷺ وهو كتاب في الإمامة مليح الوضع مسألة وقلبها وعكسها»[1].

وذكره الشيخ الطوسي في موضعين من الفهرست بعنوان الحسن بن [عيسى يكنى أبا علي المعروف بابن أبي عقيل العماني.. وله كتب، وهو من جملة المتكلمين إمامي المذهب، فمن كتبه المتمسك بحبل آل الرسول في الفقه وغيره، وهو كتاب كبير حسن، وكتاب الكر والفر في الامامة وغير ذلك من الكتب[2].

فالحسن بن علي بن أبي عقيل الحذّاء المعروف بـ (ابن أبي عقيل العماني)، هو شيخ فقهاء الشيعة، والظاهر أن الزعامة الدينية الشيعية كانت له بعد الغيبة الصغرى وانتقلت إليه بعد آخر السفراء الأربعة.

وهذا العَلَم هو أول من أدخل الاجتهاد بشكله المعروف إلى الأبحاث العلمية وصنف كتاب (المتمسك بحبل آل الرسول) وهذا الكتاب كان في القرنين الرابع والخامس من اهم المراجع الفقهية عند الشيعة، وهو أول من حرّر المسائل الفقهية وذكر لها الأدلة وفرع عليها الفروع في ابتداء الغيبة الكبرى[3].

وبحسب تعبير صاحب الكنى والألقاب: «إنه أول من هذّب الفقه، واستعمل النظر، وفتق البحث عن الأُصول والفروع في ابتداء الغيبة الكبرى»[4].

ومما يؤسف له أنّ كتاب ابن أبي عقيل قد ضاعت نسخته وفقدنا بذلك ثروة علمية

---

(١) النجاشي، الرجال: ٤٨.

(٢) الطوسي، الفهرست: ٥٤، ١٩٤. وأُنظر هامش رقم ٢ في الصفحة ٥٤ من المصدر نفسه.

(٣) مقدمة جامع المقاصد: ١ / ١٣.

(٤) القمي ـ عباس، الكنى والألقاب: ٢ / ٢٦.

في الفقه الإسلامي على مذهب أهل البيت عليهم السلام، إلّا أن آراءه الفقهية بقيت مبثوثة في ما نقله الفقهاء في أهم المصادر الفقهية، وقد قام مركز المعجم الفقهي في قم باعداد وجمع ما نقله الفقهاء من كتاب: «المستمسك بحبل آل الرسول» فبلغت مجلدا كبيرا، يضمُّ مجموعة فقهية تدلُّ على غزارة المادة الفقهيّة عند الفقيه العُمَاني، وإن كانت دلالتها وقيمتها تبقى دون قيمة نفس كتابه المفقود.

ومهما يكن من أمر فإن السِّمة البارزة في منهج ابن أبي عقيل انه جمع بين التقيّد بالنصوص الشرعية، الكتاب والسنة، وبين تأصيل منهج أُصولي عقلي، استطاع من خلاله «ان يهذب الفقه ويستعمل النظر، ويفتق البحث عن الأُصول والفروع» بحسب تعبير السيّد بحر العلوم في ترجمته للعماني[1].

وقد اثنى الشيخ المفيد على كتاب (المتمسك بحبل آل الرسول) كثيرا. كذلك أثنى علماء الرجال عليه وعلى كتابه المذكور وعدّه النجاشي من كتب الشيعة المشهورة.

كذلك اثنى عليه وعلى كتابه كل من: «الشيخ الطوسي في الفهرست كما مرَّ، والعلّامة في الخلاصة[2]، وينقل ان السيّد البروجردي رحمه الله كان يتأسف كثيرا لعدم وصول الكتاب إليه. كما أنه رحمه الله كان يحث الطلّاب على مراجعة المتون الفقهية المؤلفة بيد الفقهاء القدامى، وكان يعتبر الشهرة الفتوائية على وجه لا يقل عن الاجماع المحصل[3].

---

(١) بحر العلوم ـ محمد مهدي، رجال السيّد بحر العلوم، المعروف بالفوائد الرجالية: ٢ / ٢٢٠، طبعة منشورات مكتبة الصادق ـ طهران، إيران.

(٢) رجال النجاشي: ٤٨. وفهرست الشيخ الطوسي: ٥٤ و ١٩٤، ورجال العلّامة الحلّي: ٤٠.

(٣) السبحاني ـ جعفر، مقدمة كتاب المهذب البارع: ١ / ١٤.

ويقول السيّد بحر العلوم في ترجمته للعماني:

«إنَّ حال هذا الشيخ الجليل في الثقة والعلم والفضل والكلام والفقه اظهر من أن يحتاج إلى بيان، وللأصحاب مزيد اعتناء بنقل أقواله وضبط فتاواه خصوصا الفَاضِلَين ومن تأخر عنهما، وهو أول من هذّب الفقه واستعمل النظر وفتق البحث عن الأُصول والفروع في ابتداء الغيبة الكبرى وبعده الشيخ الفاضل ابن الجنيد، وهما من كبار الطبقة السابعة، وابن أبي عقيل أعلى منه طبقة، فإنّ ابن الجنيد من مشايخ المفيد، وهذا من مشايخ شيخه جعفر بن محمد بن قولويه..»[1].

وقال السيّد الگلپايگاني: «... ومِن أقدم الذين ألفوا في علم الفقه في الغيبة الصغرى: الحسن بن أبي عقيل العماني، وابن الجنيد الرازي اللذان عبر فقهاؤنا عنهما بـ (القديمين والأقدمين) قدس اللّه أسرارهم، وكان كتاب ابن أبي عقيل كتابا فقهيا جامعا لأبواب الفقه، مشهورا عند الخاص والعام وينقل عنه العلماء في مصنفاتهم إلى زمن العلّامة الحلي، بل إلى زمن الشهيد الثاني ـ قدس سرهما ـ كما يلوح من بعض عباراته، ولكن الظروف القاسية أضاعت فيما أضاعت نسخة هذا الكتاب، وأوجبت حرمان المتأخرين من الاستفادة منه...»[2].

وكان ابن ابي عقيل أول من طرح مسألة (عدم انفعال الماء القليل بمجرد الملاقاة) وتبعه على ذلك آخرون منهم العلّامة الحلّي في المختلف الذي عبر عن اختيار ابن أبي عقيل بقوله: «وهو الحقّ عندي»، مع ان المعروف بين أكثر علمائنا انفعاله

---

(١) بحر العلوم ـ محمد مهدي، رجال السيّد بحر العلوم المعروف بالفوائد الرّجالية: ٢ / ٢٢٠، طبعة منشورات مكتبة الصادق ـ طهران، إيران.

(٢) الگلپايگاني، محمد رضا: مقدمة كتاب حياة ابن أبي عقيل وفقهه: ٦.

بمجردها وطهره بنزح المقدر[1].

وقد أدرك العماني﵀ زمان (السمريّ) آخر السفراء الأربعة، وعاصر الكليني والصدوق علي بن بابويه، وقد استجازه جعفر بن قالويه صاحب كامل الزيارات المتوفى (٣٦٨ هـ)[2].

ومن المعروف أنّ جعفر بن محمد بن قالويه ـ كبير علماء قم وأُستاذ الشيخ المفيد ـ لا يروي إلّا عن الثقاة من أصحابنا، المشهورين بالحديث والعلم، فعندما يكتب إلى ابن أبي عقيل ويستجيزه رواية كتبه وعلمه، فهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على مرجعية ابن أبي عقيل ومكانته العلمية وعلو شأنه.

ومما يؤسف له جدا اننا مهما بحثنا في كتب التراجم والرجال فانا لانعثر إلّا على نتفٍ يسيرة من أبعاد شخصيته، لا تروي غليل المتعطش لمعرفة ابعاد شخصية هذا الشيخ الجليل والفقيه الكبير، ولعل بُعدَ داره عن الحواضر العلميّة هيالسبب في ذلك.

والمعروف في ضبط لقبه وشهرته أنه «العُماني» نسبة إلى عُمان، البلد المعروف، وأما اشتهاره بالحذّاء، فلم نعرف له وجها محدّدا.

وقد وصف لنا الحموي بلاد عمان بقوله: «... أكثر أهلها في أيامنا خوارج اباضية ليس فيهم من غير هذا المذهب إلّا طارئ غريب، وهم لا يُخفون ذلك»[3].

ففي مثل هكذا بلاد نشأ، وترعرع ضمن اقلية شيعية هناك، «وحينئذٍ سوف نواجه

---

(١) الحلي ـ الحسن بن يوسف، مختلف الشيعة: ١ / ٢٥، طبعة مركز الأبحاث والدراسات ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤٢٣ هـ

(٢) النجاشي، الرجال: ٤٨، وللتوسع أُنظر المامقاني، تنقيح المقال: ٢٠ / ٥٥ وما بعد و ٢٠ / ٦٠ ـ ٦١، طبعة مؤسسة آل البيت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٧ هـ

(٣) الحموي، معجم البلدان: ٤ / ١٥٠.

جوانب غامضة في حياة العماني خصوصا في نشأته وتحصيله، ومع بُعد عمان عن مراكز العلم الشيعيّة الإسلامية، فهل رحل إلى حواضر العلم الأُخرى وحاز على شرف العلم فيها؟ وإذا كان الأمر كذلك فَلِمَ لم ينعكس هذا الأمر على مصادر حياته؟ ولماذا لم يذكر مشايخه وتلامذته المستفيدين من علمه؟

أو انه حاز ذلك المقام العلمي الشامخ في موطنه عمان؟ ولكن كيف تمّ ذلك مع أنّ أكثر أهلها من الخوارج ولا يرى فيهم إلّا طارئ غريب من غير هذا المذهب ـ بحسب تعبير الحموي ـ فضلاً عن وجود كيان علمي للشيعة فيها قادر على تخريج فقيه رابع، ومتكلم ضليع كابن أبي عقيل»[1] وتبقى هذه الأسئلة وغيرها من دون اجابة لدى الباحثين؛ لعدم وجود مصادر الاجابة عنها.

ومهما يكن من أمر، فإنّ العماني وإن لم يكن حاضرا بشخصه في بغداد آنذاك إلّا أ نّه كان له حضوره العلمي وشهرته الواسعة بين ابناء الطائفة وفي بلاد المشرق، وفي حاضرة العلم والعلماء بغداد، فنجد ابن قولويه يستجيزهُ، وإن كتبه تطلب من قبل ابناء المشرق، فما ورد الحاج من خراسان إلّا وطلب نسخا من كتابه.

ونختتم حديثنا عن ابن أبي عقيل بقول المحقق الكبير السيّد الخوئي في معجمه إذ يقول عنه: «إنّ شهرة وجلالة الرجل وعظمته العلمية والعملية بين الفقهاء الأعلام اغنتنا عن الإطالة والتعرّض لكلماتهم»[2].

هذا ولم نظفر على تاريخ محدد لوفاته سوى أنه كان معاصرا للشيخ الكليني المتوفى (٣٢٩ هـ).

---

(١) الخزرجي ـ صفاء، مجلة فقه أهل البيت، السنة الثانية العدد الثامن: ١٦١ ـ ١٦٢.

(٢) الخوئي ـ أبو القاسم، معجم رجال الحديث: ٥ / ٢٣.

أبو علي، محمد بن أحمد بن الجنيد المعروف بـ (الاسكافي): المتوفى عام (٣٨١ هـ)

وهو من أبرز اعلام القرن الرابع الهجري ومؤلف كتاب (تهذيب الشيعة لأحكام الشريعة) و (الأحمدي في الفقه المحمدي) وغيرهما من الكتب الكثيرة. والكتاب الأخير من الكتب التي كانت موجودة حتى عصر العلامة الحلي ولكنها فقدت بعد ذلك ولم يَعُدْ لها أيّ خبر يذكر.

١ ـ وثاقته:

مما لا شك فيه أنَّ ابن الجنيد من كبار علماء الشيعة في القرن الرابع الهجري، وقد وثّقه وأثنى عليه كل من ترجم له من علماء الرجال. قال عنه النجاشي: «.. وجه في أصحابنا، ثقة جليل القدر، صنّف فأكثر..». وذكره ابن النديم المعاصر له في كتاب الفهرست[١]، فلا كلام في وثاقة الرجل ومكانته.

٢ ـ آثاره العلمية:

ولابن الجنيد كثير من المصنفات والكتب وفي مختلف شؤون المعرفة، إلّا أنه لم يصلنا من تراثه شيء، إلّا بعض آرائه الفقهية وفتاواه المبثوثة في كتاب العلّامة الحلّي (المختلف) والتي جمعها أحد علماء قم وطبعت تحت عنوان فتاوى ابن الجنيد[٢].

ومما تجدر الاشارة إليه، أنّ مصنّفات ابن الجنيد من الكثرة بمكان إلى درجة أن وضع بنفسه فهرسا لكتبه، وقد فرقها بحسب الأبواب، يقول الشيخ الطوسي: «وفهرست

---

(١) النجاشي، الرجال: ٣٨٥.

(٢) جمعها الشيخ الاشتهاردي، وطبعت من قبل مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٦ هـ.

كتبه صنّفها هو بابا بابا، وهو طويل ولم نذكره لأنه لا فائدة فيه»[1]. ولو أن الشيخ الطوسي قد نقل لنا هذا الفهرست لأطلعنا على كتبه ومؤلفاته وموضوعاتها بنحو أفضل وأتم.

ومما اشتهر من كتبه الفقهية كتاب: «تهذيب الشيعة لأحكام الشريعة» الذي قيل عنه إنه كتاب كبير يقع في عشرين مجلّدا؛ ويشتمل على عدد كتب الفقه على طريقة الفقهاء. وله كتاب فقهي آخر يعرف بـ (المختصر الأحمدي للفقه المحمدي) في الفقه مجردا[2]، ولعله اختصار لكتابه المطول.

ومن الواضح ان تدوين مُؤَلف بسعة كتاب (تهذيب الشيعة) في ذلك الزمان يدل على تبحر الرجل وسعة علمه، بالاضافة إلى الاستناد إلى منهج فقهي استدلالي يتوافق مع منهج مدرسة أهل البيت في الاستدلال، بعيدا عن مسالك القياس والاستحسان... وغيرها.

٣ـ منهجه العلمي:

لقد كان لابن جنيد منهج علمي متميز في الاستنباط الفقهي، واعتبره المحقّق الحلّي في المعتبر: «من الأفاضل المعروفين بفقه الأخبار وصحة الاختيار وجودة الاعتبار من أصحاب كتب الفتوى»[3]. ومن خصائص هذا المنهج هو قدرته على تفريع بعض المسائل الفقهية وتفصيل أحكامها بصورة غير معهودة عندغيره من الفقهاء، بل واستعراضه لمسائل جديدة غير مطروحة لدى الفقهاء المقاربين لعصره.

---

(١) الطوسي، الفهرست: ١٣٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المحقق الحلي، المعتبر: ١ / ٣٣.

وهذا ما يَسِم منهجه الفقهي بطابع خاص يميزه عن غيره من الفقهاء..»[١].

ومما يؤسف له أن تراث ابن الجنيد الفقهي لم يصلنا حتى يتضح لنا منهجه في الاستدلال والاستنباط الفقهي، إلّا أن معاصره الشيخ النجاشي ذكر في ترجمته بعد أن مدحه وأثنى عليه وعدد مصنفاته ثمّ قال: «وسمعت شيوخنا الثقاة يقولون عنه انّه كان يقول بالقياس...»[٢].

كذلك قال الشيخ الطوسي في الفهرست: «... كان جيد التصنيف إلّا أنه كان يرى القول بالقياس فتركت لذلك كتبه ولم يعوّل عليها...»[٣] وصنف الشيخ المفيد كتابا للرد على ابن الجنيد سماه: «الرد على ابن الجنيد في اجتهاد الرأي».

فهل كان ابن الجنيد يعمل بالقياس؟

ينبغي أن نجيب بنعم، ولا يمكن انكار ذلك بعد أن نص عليه النجاشي والطوسي والمفيد وغيرهم من أعلام الإمامية، وحتى السيّد بحر العلوم في رجاله؛ بعد أن دافع عمّا نسب إليه من ترك الأصحاب فتاواه... إلّا أنه لم ينكر نسبة القياس إليه، ووجهها بقوله: «... ومن هنا يعلم أنّ القول بالقياس ممّا لم ينفرد به ابن الجنيد من علمائنا وانّ له فيه سلفا من الفضلاء... فلا يمكن عدّ بطلانه من ضرورات المذهب في ذلك الزمان»[٤]. والقضية تحتاج إلى مزيد من البحث ليس هذا محله المناسب.

وقد أُطْلِقَ اصطلاح القَدِيمَين على هذين العلمين (العمّاني، والاسكافي) وهو من

---

(١) السعيدي ـ علاء، الشيخ ابن الجنيد: ٧٧ طبعة مركز ابن ادريس ـ بيروت، ٢٠٠٨ م.

(٢) رجال النجاشي: ٣٨٨.

(٣) الفهرست: ١٣٤.

(٤) رجال السيّد بحر العلوم: ٣ / ٢٢٠.

ابداع ابن فهد الحلي العلم الشيعي في القرن التاسع الهجري[1].

وقد ظهر نتيجة الاختلاف بين مسلك المحدثين، ومسلك القديمين في الفقه، مسلك ضعيف لم يستمر طويلاً، وهو مسلك يعتمد الظاهر في الاحكام الفقهية، ومن اهم القائمين عليه: (ابو الحسين الناشيء علي بن عبد اللّه بن وصيف) المتوفى (٣٦٦ هـ) وقد انقرض هذا المسلك ولم يبق له اثر في الفقه الشيعي[2].

٤ ـ وفاة الاسكافي ومدفنه:

لم يضبط لنا التاريخ وبدقة سنة ولادته، ولا سنة وفاته، فهو قد ولد في ناحية من نواحي بغداد تسمى (اسكاف) فنسب إليها وعرف بـ «الاسكافي» إلّا أنّ بعض القرائن تشير إلى أنَّ ولادته في العقد الأخير من القرن الثالث[3].

أما وفاته فقيل إنه توفي بالري سنة احدى وثمانين وثلاثمائة.

إلّا أنّ السيّد بحر العلوم استبعد ذلك وقال إنّ وفاة ابن الجنيد قبل ذلك[4].

ومهما يكن من أمر، فابن الجنيد ثاني القديمين، وهو بغدادي البيئة والنشأة، وله دور كبير في تكوين المدرسة البغدادية الإمامية في القرن الرابع الهجري، ولم تنحصر شهرته ومرجعيته العلمية ببغداد فحسب، بل سرت إلى بلاد المشرق ومصر، وكانت تصله منها بعض الأموال[5].

---

(١) جامع المقاصد: ١ / ١٣، مصدر سابق.

(٢) المصدر نفسه: ١٤. وأُنظر؛ موسوعة طبقات الفقهاء: ٤ / ٢٩٦.

(٣) الخزرجي، مجلة فقه أهل البيت: ٩ / ٢٠٩.

(٤) طبقات الفقهاء: ٤ / ٣٤٨.

(٥) المفيد، المسائل الصاغانية: ٣ / ٥٨.

المبحث الثالث: الشيخ المفيد وتلامذته ودورهم في مدرسة بغداد

يعتبر العصر الذي مرَّ على مدرسة بغداد في عهد الشيخ المفيد وتلامذته والذي امتد إلى أكثر من قرن من الزمن من أهم عصور هذه المدرسة ازدهارا، بل ومن أهم عصور مدرسة أهل البيت عليهم السلام كما سوف يتبين لنا من خلال مفردات هذا البحث.

وفي البداية لابد من التوقف عند مفردات ترجمة الشيخ المفيد، وعصره، وأساتذته، ونتاجه العلمي، وتلامذته والراوين عنه، ومن خلال نقاط محددة.

١ ـ الشيخ المفيد

للشيخ المفيد ترجمة واسعة في أغلب كتب التراجم والسِير والطبقات والمعاجم، حيث فرض حضوره بقوة في الموسوعات الرجالية، نتوقف عند بعضها، والتي من أهمها ترجمة تلامذته له:

قال النجاشي في ترجمته: «محمد بن محمد بن النعمان.. ابن يَعرُب بن قحطان، شيخنا وأُستاذنا رضي الله عنه، فضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية والثقة والعلم، له كتب: الرسالة المقنعة، الأركان في دعائم الدين، كتاب الايضاح في الإمامة، الإرشاد، العيون والمحاسن.. مات رضي الله عنه ليلة الجمعة لثلاث ليال خلون من شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وأربعمانة، وكان مولده يوم الحادي عشر من ذي القعدة سنة ستّ وثلاثين وثلاثمائة، وصلّى عليه الشريف المرتضى علي بن الحسين بميدان الأشنان، وضاق على الناس مع كبره، ودُفن في داره سنين، ونقل إلى مقابر قريش بالقرب من السيّد أبي جعفر عليه السلام..»[١].

---

(١) النجاشي، الرجال: ٣٩٩ ـ ٤٠٣.

وذكره الشيخ الطوسي في الفهرست فقال عنه: «محمد بن محمد بن النعمان المفيد، يكنى أبا عبد اللّه المعروف بابن المعلم، من جملة متكلمي الإمامية، انتهت إليه رياسة الإمامية في وقته، وكان مقدما في العلم وصناعة الكلام، وكان فقيها متقدما فيه، حسن الخاطر، دقيق الفطنة، حاضر الجواب، وله قريب من مائتي مصنف كبار وصغار، وفهرست كتبه معروف، ولد سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وتوفي لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، وكان يوم وفاته يوما لم ير أعظم منه من كثرة الناس للصلاة عليه، وكثرة البكاء من المخالف والموافق، فمن كتبه كتاب: المقنعة في الفقه وكتاب... سمعنا منه هذه الكتب كلها بعضها قراءة عليه، وبعضها يقرأ عليه غير مرة وهو يسمع»[1].

وذكر له ابن النديم ترجمة مقتضبة ضمن متكلمي الشيعة فقال: «ابن المعلم، أبو عبد اللّه.. في عصرنا انتهت رياسة متكلمي الشيعة إليه، مقدم في صناعة الكلام على مذاهب أصحابه، دقيق الفطنة، ماض الخاطر، شاهدته فرأيته بارعا، وله من الكتب...»[2].

وترجم له الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) في تاريخ بغداد وبروح انفعالية لا تنم عن موضوعية علمية فقال: «محمّد بن محمّد بن النعمان، أبو عبد اللّه المعروف بابن المعلم: شيخ الرافضة، والمتعلم على مذاهبهم، صنّف كتبا كثيرة في ضلالاتهم، والذب عن اعتقاداتهم ومقالاتهم، وطعن على السلف الماضين من الصحابة والتابعين، وعامة الفقهاء المجتهدين، وكان أحد أئمة الضلال، هلك به خلق من الناس إلى أن أراح اللّه المسلمين منه، ومات في يوم الخميس ثاني شهر رمضان من سنة

---

(١) الطوسي، الفهرست: ١٥٧ ـ ١٥٨، والرجال: ٤٤٩ من لم يرو عن واحد من الأئمة.

(٢) ابن النديم، الفهرست: ٢٢٦.

ثلاث عشرة وأربعمائة»[1].

وقال ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في المنتظم: «محمد بن محمد.. المعروف بابن المعلم، شيخ الإمامية وعالمها، صنّف على مذهبهم، ومن أصحابه المرتضى، وكان لابن المعلم مجلس بداره بدرب رياح يحضره كافة العلماء، وكانت له منزلة عند أُمراء الأطراف لميلهم إلى مذهبه، توفي في رمضان هذه السنة (أي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة) ورثاه المرتضى»[2].

وبعيدا عن الموضوعية العلمية وبانفعال شديد ترجم له ابن تَغري بَري الأتابكي (ت ٨١٣ هـ) فقال في حوادث سنة ثلاث عشرة وأربعمانة: «وفيها توفي محمد بن محمد بن النعمان، أبو عبد اللّه، فقيه الشيعة، وشيخ الرافضة، وعالمها، ومصنّف الكتب في مذهبها، قرأ عليه الرضي والمرتضى وغيرهما من الرافضة، وكان له منزلة عند بني بويه وعند ملوك الأطراف الرافضة..».

لم يتوقف قلمه عند هذا الحد وإنما أراد أن يفرغ ما في قلبه من حقد فقال: «قلت: كان ضالّاً مضلّاً هو ومن قرأ عليه ومن رفع منزلته، فإنّ الجميع كانوا يقعون في حقّ الصحابة رضوان اللّه عليهم أجمعين، عليهم من اللّه ما يستحقونه، ورثاه الشريف المرتضى، ولو عاش أخوه لكان أمعن في ذلك، فإنهما كانا أيضا من كبار الرافضة..»[3].

وفي وافي الوفيات للصَّفدي (ت ٧٦٤ هـ): «محمد بن محمد.. ابن المعلم

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٣ / ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

(٢) ابن الجوزي ـ أبي الفرج عبد الرحمن، المنتظم: ١٥ / ١٥٧، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٣) ابن تَغري بري الأتابكي ـ جمال الدين أبي المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٤ / ٤١٤، تقديم وتعليق: محمد حسين شمس الدين، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٢ هـ

المعروف بالشيخ المفيد، كان رأس الرافضة، صنّف لهم كتبا في الضلالات والطعن على السلف، إلّا أنّه كان أوحد عصره في فنونه، توفي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وعليه قرأ المرتضى وأخوه الرضي وغيرهما، وكانت وفاته بالكرخ ودُفن بداره ثمّ نقل إلى مقابر قريش..»[1].

وفي البداية والنهاية لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ): ابن النعمان (وهو أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن النعمان البغدادي الكرخي ويعرف بابن المعلم) شيخ الإمامية الروافض، والمصنف لهم، والمحامي عن حوزتهم، كانت له وجاهة عند ملوك الأطراف، لميل كثير من أهل ذلك الزمان إلى التشيع، وكان مجلسه يحضره خلق كثير من العلماء من سائر الطوائف، وكان من جملة تلامذته الشريف الرضي والمرتضى، وقد رثاه بقصيدة بعد وفاته في هذه السنة[2] (أي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة).

وقال ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) في لسان الميزان: محمد بن محمد النّعمان، الشيخ المفيد، عالم الرّافضة، أبو عبد اللّه ابن المعلّم، صاحبُ التّصانيف البدعيّة[3]، وله مائتا تصنيف، طعن فيها على السَّلف. له صورةٌ] صَولَةٌ] عظيمة بسبب عضُد الدولة، شيّعهُ ثمانون ألف رافضي! مات سنة ثلاث عشرة وأربعمائة...».

ثمّ ينقل بعض كلام الخطيب البغدادي، ثمّ يقول: «قلتُ: وكان كثير التقشُّف

---

(١) الصَّفدي ـ صلاح الدين خليل بن ايبك، الوافي بالوفيات: ١ / ١١٦ باعتناء هلموت رينز، ١٩٩٢ م، طبعة دار النشر، فرانز، ١٩٦٢ م.

(٢) ابن كثير ـ إسماعيل، البداية والنهاية: ١٢ / ١٩ طبعة مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م.

(٣) ذكر محقق الكتاب في هامش الصفحة: في المطبوعة (البديعة تحريف)! انتهى. ولا أدري لماذا كانت كلمة (بديعة) تحريفا، ولم تكن كلمة (البدعيّة) تحريفا!

والتخشُّع والاكباب على العلم، تخرّج به جماعةٌ، وبرعَ في مقالة الإمامية حتى كان يُقال: له على كلِّ إماميٍّ منّةٌ، وكان أبوه معلّما بواسط، وولد المفيد بها.. ويقال: إنّ عضُد الدولة كان يزوره في داره، ويعوده إذا مَرض.

وقال الشريف أبو يعلى الجعفريّ وكان تزوج بنت المفيد: ما كان المفيدُ ينام من الليل إلّا هجعةً، ثمّ يقومُ يصلّي أو يطالعُ أو يدرُس أو يتلو القرآن»[1].

وقال عنه الذهبي (ت ٧٤٨ هـ): «الشيخ المفيد: عالم الرافضة، صاحب التصانيف، الشيخ المفيد.. البغدادي الشيعيّ، ويعرف بابن المعلّم، كان صاحب فنون وبحوث وكلام واعتزال وأدب.

ذكره ابن أبي طي في «تاريخ الإمامة» فأطنب وأسهب، وقال: كان أوحد في جميع فنون العلم: الأصلين، والفقه، والأخبار، ومعرفة الرجال، والتفسير، والنحو، والشعر، وكان يناظر أهل كلِّ عقيدةٍ مع العظمة في الدولة البويهية، والرتبة الجسيمة عند الخلفاء، وكان قويَّ النفس، كثير البرِّ، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، يلبس الخشن من الثياب، وكان مديما للمطالعة والتّعليم، ومن أحفظ الناس، قيل: إنّه ما ترك للمخالفين كتابا إلّا وحفظه، وبهذا قدر على حلِّ شبه القوم، وكان من أحرص الناس على التعليم، يدور على المكاتب وحوانيت الحاكة، فيتلمح الصبيّ الفطن فيستأجره من أبويه ـ يعني فيُضِلُّهُ ـ قال: وبذلك كثر تلامذته.

وقيل: ربما زاره عضد الدولة، ويقول له: اشفع تُشفَّع. وكان ربعةً نحيفا أسمر، عاش ستا وسبعين سنة، وله أكثر من مائتي مصنَّف.. إلى أن قال: مات سنة ثلاث عشرة

---

(١) ابن حجر، لسان الميزان: ٦ / ٥٠٦ طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١ م.

وأربعمائة وشيّعه ثمانون ألفا».

وليس لدينا كتاب ابن طي (تاريخ الإمامة) لنرى أن جملة ـ يعني فيضله ـ هل هي من سياق كلامه؛ أم من اضافات الذهبي. الذي يختتم ترجمة المفيد بقوله: وقيل: «بلغت تواليفه مائتين، لم أقف على شيءٍ منها ولله الحمد!»[1].

والذي يمكن ملاحظته من مجمل مفردات ترجمة الشيخ ما يلي:

أولاً: الملامح السياسية لعصر الشيخ المفيد:

لقد عاش الشيخ المفيد في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس فكانت ولادته في سنة (٣٣٦ هـ)، ووفاته سنة (٤١٣ هـ)، وفي ظل الدولة العباسية أيام ضعفها وذهاب مجدها وقوتها.

وقد زامن عصر الشيخ المفيد، عصر قيام الدولة البويهية بالأمر، والتي عاصر بعض أُمرائها «وكانت له منزلة عندهم، وعند ملوك الأطراف، أو كانت له صولة عظيمة بسبب عضد الدولة الذي كان يزوره في داره، ويعوده إذا مرض، ويقول له: إشفع تُشفع» كما مرّ بنا في بعض مفردات ترجمته.

فلابد من الاشارة إلى أن الدولة العباسية ومنذ ظهورها سنة (١٣٢ هـ) وحتى سقوطها سنة (٦٥٦ هـ) قد مرّت بأدوار وأطوار منها:

١ ـ الطور الأول: طور العظمة والازدهار: والذي امتد منذ تأسيسها وإلى نهاية سنة (٢٤٧ هـ)، وتعاقب على الحكم فيها تسعة من خلفاء بني العباس أولهم ـ بعد أبي العباس السفاح ـ المنصور العباسي، وآخرهم المتوكل، الذي قتله الأتراك بتدبير من أخيه المعتز سنة (٢٤٧ هـ). «وباغتيال المتوكل ختم هذا الطور وطويت آخر صفحة

---

(١) الذهبي ـ شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء: ١٣ / ٢١٩ ـ ٢٢٠ تحقيق: محب الدين العمروي، طبعة دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م.

العظمة التي كانت تظلل خلائف بني العباس»[1].

٢ ـ الطور الثاني: طور استئثار الجيش بالسلطة أو (عصر استبداد المماليك الأتراك) وهو الطور الذي امتد من (٢٤٧ هـ) إلى (٣٣٤ هـ) وتعاقب فيه على كرسي الخلافة ثلاثة عشر خليفة.

«وفي هذا الطور تفاقم تحكم الجنود في سياسة الدولة، واستهانوا بما للخلافة من حرمة، فراحوا يبايعون ويخلعون، وينصبون ويعزلون تبعا لأهوائهم وحسب مصالحهم الخاصة..».

وقد مثل هذه الصورة بعض شعراء ذلك العصر فقال:

خليفــةٌ فــي قفــصٍ ... بــين وصــيفٍ وبُغــا
يقــولُ مــا قــالا لــه ... كمــا تقــولُ الببّغــا[2]

ووصيف وبغا، هما الوزيران التركيان المتنفذان بأمر السلطة في خلافة المستعين بالله.

٣ ـ الطور الثالث: العهد الديلمي (البويهي)

ويبدأ هذا العصر بمعز الدولة أحمد بن بويه سنة (٣٣٤ هـ) وينتهي بآخر حاكم لهم وهو خسرو فيروز الذي لقّب نفسه بالملك الرحيم، والذي ازاله طغرلبك السلجوقي عن ملكه ونفاه إلى قلعة سيرجان وبذلك انقضت مدة آل بوية سنة (٤٤٧ هـ)[3].

---

(١) الراوي ـ طه، بغداد مدينة السلام: ٢٦ وما بعدها، طبعة المدى، ٢٠٠٤ م.

(٢) المرجع نفسه: ٣٣ ـ ٣٤، والخضري، تاريخ الأُمم الإسلامية الدولة العباسية: ٢٧٣.

(٣) الراوي ـ طه، بغداد مدينة السلام: ٣٦.

٤ ـ الطور الرابع: العهد السلجوقي:

ويبدأ بحكم طغرلبك بن سلجوق الذي دخل بغداد سنة (٤٤٨ هـ)، إلّا أنّ ملوك السلاجقة لم يتخذوا بغداد مقرا لهم وكانوا يكتفون بارسال من ينوب عنهم[١].

وآل سلجوق من عشائر الغز الكبير، وكانت هذه العشيرة تُقيم في بلاد تركستان، ثمّ افترقوا في بلاد الري وهمذان، ثمّ غزو البلدان الأُخرى حتى وصلوا بغزوهم إلى العراق، فغزوا الموصل «وعملوا بأهل الموصل الأعمال الشنيعة من الفتك وهتك الحريم ونهب الأموال..»[٢] ثمّ كاتبهم الخليفة العباسي القائم بأمر اللّه، فدخلها طغرلبك وخُطب له بجوامع بغداد في يوم الجمعة ٢٢ محرم سنة (٤٤٨ هـ)، «وقبض على آخر سلاطين بني بويه وهو الملك الرحيم ونقل إلى الري، وسجن هناك داخل قلعة حتى مات عام (٤٥٠ هـ) وبذلك انقضت دولتهم، ووجدت بالعراق وما وراءه هذه الدولة الجديدة وهي دولة السلاجقة»[٣].

٥ ـ الطور الخامس: من سقوط دولة السلاجقة سنة (٥٥٢ هـ) إلى الغزو المغولي لبغداد سنة (٦٥٦ هـ) وسقوط الدولة العباسية في السنة نفسها[٤].

كان هذا خلاصة مقتضبة جدا للتاريخ السياسي لبغداد منذ نشأتها وإلى نهاية الدولة العباسية.

والذي يهمنا من هذه الخلاصة هو الطور الثالث وهو العهد الديلمي البويهي، والذي تزامن مع عصر أقطاب علماء الإمامية الكبار (المفيد، والمرتضى والطوسي)

---

(١) الخضري بك ـ محمد، محاضرات تاريخ الأُمم الإسلامية الدولة العباسية: ٤١٢.

(٢) المرجع نفسه: ٤١٤.

(٣) المرجع نفسه: ٤١٧ وما بعدها.

(٤) أُنظر: طه الراوي، بغداد مدينة السلام: ٢٥ وما بعدها.

في بغداد.

فمن هم البويهيون؟

يذهب بعض الكتّاب إلى القول بأن: «أصل بني بويه من بلاد الديلم الواقعة في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر.. وبلاد الديلم وإن كانت تعد من جملة الولايات الفارسية قبل الإسلام، إلّا أن أهلها ليسوا من الفرس في الصميم، وإنما هم جيل لهم مميزاتهم الخاصة»[1].

بينما يرى بعض آخر: «إن أصل هذه الأُسرة يعود إلى فارس لا إلى الديلم، وإنهم إنما نسبوا إلى الديلم وقيل لهم الديالمة لأنهم سكنوا بلاد الديلم، وكانوا بين أظهرهم مدة، وطال مقامهم ببلادهم»[2].

إلّا أن كلمات المؤرخين القدامى تشير إلى أن أصل هذه الأُسرة يعود إلى فارس لا إلى الديلم، وإن هذه الأُسرة يعود نسبها إلى أصل فارسي عريق، وحسبنا من فارسية هذه الأُسرة ما روى المؤرخون لها من سلسلة نسب طويل، متصل بملوك الفرس القدامى قبل الإسلام، فيروي ابن الأثير عن ابن مسكويه: «ان البويهيين كانوا يدعون: انهم من ولد يزدجرد بن شهريار آخر ملوك فارس»[3].

كذلك اختلف الباحثون في انتمائهم المذهبي، «وتحديد هويتهم المذهبية بعدما اتفقوا على نسبتهم إلى التشيع، فأعتقد بعضهم أ نّهم (زيدية)، ونسبهم آخرون إلى

---

(١) الراوي ـ طه، بغداد مدينة السلام: ٣٥.

(٢) آل ياسين ـ محمد حسن، مقال: البويهيون في العراق، منشور في دائرة المعارف الشيعية: ٨ / ٤١٣ وما بعدها.

(٣) الأمين ـ حسن، دائرة المعارف الشيعية: ٨ / ٤١٣.

المذهب الإسماعيلي، وأكّد طرف ثالث أ نّهم (اثنا عشرية))»[1].

وقد ذهب بعض الباحثين إلى الاعتقاد أن البويهين كانوا على المذهب (الزيدي)، ثمّ تبنّوا المذهب الإثني عشري للملائمة لهم من الناحية السياسية في ايجاد أرض صلبة من العراقيين يستندون إليها في تثبيت أركان دولتهم[2].

وشبهة زيدية المذهب بالنسبة للبويهين جاءت من كونهم كانوا يقيمون في بلاد الديلم، أي في الجبال الواقعة في الجنوب الغربي من شاطئ بحر قزوين، وانهم أسلموا على يد الفقيه الشيعي الكبير (الحسن بن علي الأطروش) الملقّب بالناصر الكبير صاحب الديلم (ت ٣٠٤ هـ) الذي جمعهم، واستولى بهم على طبرستان سنة (٣٠١ هـ)[3]. وبما أن المصادر الزيدية تؤكد زيدية (الناصر الكبير الاطروش) فلهذا نسب إليه البويهيون وقيل بزيديتهم.

مع أنّ السيّد المرتضى في مقدمة الناصريات يؤكد أنّ الاطروش من علماء الإمامية، وان بنيه كانوا على عقيدته[4]. وذكره المحدث النوري في خاتمة المستدرك بقوله: «هو صاحب المؤلفات الكثيرة على مذهب الإمامية، التي منها مائة مسألة صحّحها سبطه علم الهدى، وسماها بالناصريات، وهو الذي خرجَ بطبرستان، والديلم في خلافة المقتدر، وتوفي او استشهد بآمل»[5].

---

(١) القزويني ـ جودت، تاريخ المؤسسة الدينية: ١٧ ـ ١٨ نقلاً عن حسن أحمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي: ٥٢٦، وعلي الشابي، الشيعة في إيران: ١٣٣.

(٢) المرجع نفسه: ١٨.

(٣) المرجع نفسه: ١٦.

(٤) المرجع نفسه: ١٦ الهامش.

(٥) النوري، خاتمة المستدرك: ٣ / ٥١٦ من الطبعة الحجرية المطبوعة في قم سنة ١٣٢١ هـ

وقد حاول بعض المستشرقين ان يشكك في نسب البويهيين أولاً، وان يبعد عنهم عقيدة التشيع الإمامي ثانيا؛ فما يذكر من «شجرة نسب الأُسرة البويهية في مجموعها ليست سوى محاولة لتمجيد هذه الأُسرة»[1]، فهم بنظر أُولئك المستشرقين يفتقدون للأصالة العريقة النسبية! بالاضافة إلى أنهم «ذوي خلفيّة مذهبية زيدية، ويظهرون ودّهم للشيعة الإمامية، بيد أنهم كانوا يؤثرون مصالحهم السياسية على الاعتبارات الدينية»[2].

وعلى أي حال، لا يهمنا كثيرا أن ندخل في جدل حول اثبات نسب البويهيين، ولا في انتمائهم المذهبي بعد وضوحها لذي عينين، وإنما المهم أن نستجلي بعض ملامح العصر السياسي الذي حكم به آل بويه؛ وما قدمته الدولة البويهية للأُمة الإسلامية من خدمات، وما تميز به حكمهم في العراق الذي بدأ سنة (٣٣٤ هـ) وانتهى بسيطرة السلاجقة على الحكم ودخولهم بغداد سنة (٤٤٧ هـ) عن الحكم السابق واللاحق لهم.

لقد ترك آل بويه الأثر الطيب في البلدان التي حكموها حيث امتد سلطان حكمهم ليشمل بلاد إيران والعراق، واشتهر من آل بويه الاخوة الثلاثة أحمد وعلي وحسن، أولاد (بويه) الذي كان صيادا فقيرا على بحر قزوين.

لقد بدأ حكمهم في بغداد في عهد الخليفة العباسي (المستكفي باللّه) وذلك في يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة [سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة]

---

(١) آل ياسين ـ محمد حسن، دائرة المعارف الشيعية: ٨ / ٤١٣ نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المستشرقين.

(٢) مكدرموت ـ مارتن، نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد: ٤٣ المقدمة، تعريب: علي هاشم.

حين نزل الأمير أبو الحسين (أحمد بن بويه) في معسكره بباب الشماسية (ببغداد)، ووصل إلى المستكفي باللّه ووقف بين يديه طويلاً، وأخذت عليه البيعة للمستكفي باللّه....

ثمّ لبس الأمير [أحمد بن بويه] الخلع وكُنّي ولُقّب بمعز الدولة، ولُقّب أخوه أبو الحسن علي بن بويه بعماد الدولة، وأخوه أبو علي الحسن بن بويه بركن الدولة، وأمر أن تضرب القابهم وكناهم على الدنانير والدراهم..»[١].

لم تدم العلاقة بين المستكفي العباسي ومعز الدولة كثيرا، حيث اعتقل المستكفي من قبل: «الديلمان، وسيق ماشيا إلى دار معز الدولة واعتقل فيها. وانقضت أيام خلافة المستكفي باللّه. وأحضر معز الدولة أبا القاسم الفضل بن المقتدر باللّه إلى دار الخلافة في يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وخوطب بالخلافة وبويع له ولقب المطيع للّه»[٢].

والذي يبدو من المصدر نفسه أن السبب في هذا الانقلاب السريع والمفاجئ هو أن معز الدولة اكتشف مؤامرة تحاك من حوله يقودها بعض نساء القصر العباسي، وبعض رجال الدولة، وباشراف من المستكفي نفسه[٣].

وبمعز الدولة البويهي بدأ حكم البويهيين في العراق سنة (٣٣٤ هـ) وبالملك الرحيم أبي نصر خسرو فيروز انتهى حكمهم سنة (٤٤٧ هـ)، بعد أن تعاقب على

---

(١) مسكويه ـ أبو علي الرازي، تجارب الأُمم: ٦ / ١١٤ ـ ١١٥، تحقيق: أبو القاسم امامي، طبعة دار سروش ـ طهران، ٢٠٠١ م.

(٢) المصدر نفسه: ٦ / ١١٧.

(٣) أُنظر: الدكتور مصطفى جواد والدكتور أحمد سوسه: دليل خارطة بغداد المفصل: ٢٧٧.

الحكم أحد عشر أميرا منهم[1].

لقد أَعاد البويهيون للدولة الإسلامية قوتها وأُبهتها بعد أن ضعفت كثيرا ولم يبق لها إلّا الاسم فقط، وهذه الحقيقة صرح بها المؤرخون من أمثال ابن الأثير وابن خلدون، وابن كثير.. وغيرهم من المؤرخين الذين تجد كلماتهم مبثوثة في موسوعاتهم التاريخية، يقول ابن كثير وهو يتحدث عن أحد أُمراء بني بويه وهو عضد الدولة فيقول: «أظهر عضد الدولة من تعظيم الخلافة ما كان دارسا وجدد دار الخلافة حتى صار كل محل منها آنسا»[2].

ولا نريد ان نتوسع كثيرا في بيان خدمات الدولة البويهية في جوانب الحكم والعمران.. وإنما نشير إلى الجانب الفكري والعلمي في عهدهم، وهنا نترك الكلام لمؤرخ بغداد طه الراوي حيث يصف لنا بغداد في العهد البويهي بقوله: «وفي عهد بني بويه وصل العلم والأدب في بغداد إلى القمة العليا، فنشأ أكابر المفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين والمؤرخين والكتّاب والشعراء وأساطين علوم العربية والحذاق في المعارف الكونية.. وكان لبعض ملوكهم آثار في العمران، وحسنات على أهل الفضل وأقمار الأدب، ففي عهدهم تولى الوزارة في إيران أبو الفضل بن العميد، وابنه أبو الفتح، والصاحب بن عباد، وفي بغداد أبو محمد المهلبي الذي أفاض على رجالات العلم والأدب شيئا من حسناته، وفيضا من نعمه»[3].

ويقول السيّد أمير علي في (مختصر تاريخ العرب): «وقد شجع كلٌّ من عضد الدولة وشرف الدولة الروح الأدبية واحيى مدرسة بغداد التي كانت قد أصابها الاهمال

(١) الدكتور مصطفى جواد والدكتور أحمد سوسه: دليل خارطة بغداد المفصل: ٦ / ١١٦.

(٢) الأمين ـ حسن، دائرة المعارف الشيعية: ٨ / ٤٠٦ عن ابن كثير الدمشقي.

(٣) الراوي ـ طه، بغداد مدينة السلام: ٣٦.

في أثناء الثورات التي قامت في وجه الخلافة..».

كما أنه يصف معز الدولة بأنه «كان محبا للآداب والفنون» كما أنه يصف البويهيين بالسخاء «وان حكمهم أدى بوجه عام إلى رفاه الشعب وازدهار الآداب والعلوم.. ومن الأدلة على سخائهم ورعايتهم الآداب والفنون، ذلك العدد من الرجال البارزين الذين تألق نجمهم في ذلك العهد، كالمؤرخ المسعودي، والفيلسوف أبي نصر الفارابي، والشاعر المتنبي، وأبي الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الأغاني، وأبي القاسم التنوخي، والدينوري، وكثير غيرهم من الفلاسفة والعلماء والشعراء والقضاة..»[1].

ويقول كاتب آخر في مؤلفه (الأدب في ظل بني بويه): «امتاز عهد آل بويه بالخصب العلمي والأدبي بتأثيرهم الخاص أو بتأثير وزرائهم، ذلك انهم استوزروا ابرع الكتاب وأبرزهم.. فلمعت اسماؤهم وعظمت وطار صيتهم في الآفاق فقصدهم أهل العلم والأدب فأفادوا منهم كثيرا، وانتجوا كثيرا في ميدان الأدب والفلسفة والعلم، فكان أثرهم في الحياة الفكرية قويا جدا»[2].

وتوقف المستشرق الألماني آدم متز في كتابه القيّم «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» عند بني بويه طويلاً ليصف ثقافتهم وخصائصهم النفسية، ونقاط القوة والضعف عند حكامهم؛ فأثنى على الكثير منهم، وذم البعض الآخر، فهو يقول عن علي بن بويه: «وكان السبب في ارتفاع علي بن بويه سماحته وشجاعته وسعة صدره وحسن سياسته،.. وكان ذا فضل يتسامع به الناس فيميلون إليه، فلا عجب إذن

---

(١) أمير علي، مختصر تاريخ العرب: ٢٦٦ ـ ٢٦٧، ترجمة: عفيف البعلبكي، طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩٠م.

(٢) الأمين ـ حسن، دائرة المعارف الشيعية: ٨/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

أن يسهل عليه الانتصار على جيش الخليفة حتى استولى على جنوب ايران، وكان بنو بويه إلى جانب هذا يحسنون معاملة الأسرى، ويعفون عنهم، ويؤمّنونهم من جميع ما يكرهون، حتى يطمئنوا إليهم، على حين كان اعداؤهم يعدّون للأسرى قيودا وبرانس ليشهروهم بها، ولقد ظفر علي بن بويه بأعداء له معهم هذه الآلات فعدل عن العقاب إلى العفو، وابتعد عن الطغيان»[1].

ويطول وقوف متز عند عضد الدولة البويهي ـ وهو ثالث الأُمراء البويهيين وحكم من (٣٦٧ هـ) إلى (٣٧٣ هـ) ـ والذي لقّب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرّة في الإسلام فيصفه بقوله: «هو الذي يمثل السيّد الحاكم تمثيلاً حقيقيا» حتى يتحدث عن بعض خدماته بإسهاب ودقة فيصف مشاريعه الخدمية الكثيرة، ثم ينتهي إلى مشاريعه وخدماته الثقافية والفكرية فيقول: «وكان قد تعلّم على أحسن المعلمين، وكان يفتخر بمعلميه، وكان يحب العلم والعلماء، ويجري الجرايات على الفقهاء والمحدّثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحُسّاب والمهندسين.. ثمّ يقول: «وقد أفرد عضد الدولة في داره لأهل الخصوص والحكماء والفلاسفة» موضعا يقترب من مجلسه، فكانوا يجتمعون فيه للمفاوضة آمنين من السفهاء ورعاع العامة. وأمر بإدرار الأرزاق على قوّام المساجد والمؤذنين والأئمة والقراء فيها، وإقامة الجرايات لمن يأوي إليها من الغرباء والضعفاء، وبنى مارستانا كبيرا ببغداد وتجاوزت صدقاته أهل الملّة إلى أهل الذمّة، فأذن للوزير نصر بن هارون في عمارة البيع والديرة، واطلاق الأموال لفقراء أهل الذمة»[2].

---

(١) متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ١ / ٣٥ ـ ٣٦، ترجمة عن الأدب في ظل بني بويه للغناوي.

(٢) المرجع نفسه: ١ / ٤٢ ـ ٤٧ وقارن بما كتبه مسكويه في تجارب الأُمم: ٦ / ٤٥٧ ـ ٤٥٨.

وقد استند آدم متز في ايراد معلوماته على مصادر ومراجع كثيرة من أهمها كتاب مسكويه «تجارب الأُمم».

وابن مسكويه قد عاصر الدولة البويهية وروى أخبارها عن حس ومشاهدة إلى نهاية سنة (٣٦٩ هـ) حيث توقف عندها، فيعتبر كتابه من المصادر الأساسية لدراسة القرن الرابع الهجري والعصر البويهي، ذلك لأنه مشاهدة وعيان عن مسكويه، أو نقل مباشر عن الرجال الذين صنعوا تاريخ تلك الحقبة وعاشوها[1].

هذه هي أهم ملامح تكوّن الدولة البويهية، وأبرز خدماتها الفكرية والتعليمية.

يبقى أن نشير إلى أن الدولة البويهية رغم ما عرف عنها أنها دولة شيعية، وأنها نادت لاحياء بعض المراسم العاشورائية، أو كما أشارت النصوص إلى مكانة مرجع الشيعة آنذاك الشيخ المفيد عند رجال هذه الدولة.. رغم كل هذا فإنّ الدولة البويهية: «لم يكن لهم مشروع عقائدي محدد حتى يطالب الرأي العام الشيعي باقرار مشروعه السياسي.. وإنما عمل البويهيون بسياسة الانفتاح، وإطلاق الحريات الفكرية، وهذه السياسة ميّزت العصر البويهي عن غيره من العصور المتقدمة أو المتأخرة عليه. فقد كانت سياستهم قائمةً على أساس التقارب بين المذاهب الفكرية، واعطاء الفرصة الكاملة للتعبير عن الرأي، وفسح المجال لزعماء المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة، وغيرهما من التعبير عن آرائهم ومعتقداتهم في مناقشات حرّة مع أرباب المذاهب والفرق الاعتقادية.. والذي صوّرته أقلام الكتاب أنّ البويهين لم يكونوا حريصين على تأكيد انتمائهم المذهبي بقدر ما كانوا حريصين على الاحتفاظ بمقاليد السلطة السياسية في الحكم..»[2].

---

(١) تجارب الأُمم: ١ / ٣٤ التصدير بقلم محقق الكتاب: أبو القاسم امامي.

(٢) القزويني ـ جودت، تاريخ المؤسسة الدينية الشيعية: ١٧ وقارن بما كتبه الباحث رسول جعفريان حول الموضوع في دائرة المعارف الشيعية: ٨ / ٤٠٣ الطبعة السادسة، ٢٠٠٢ م.

*** موقف المرجعية الشيعية اتجاه السلطة البويهية:**

لقد كان المرجع الفقهي للشيعة في بغداد أيام ظهور الدولة البويهية بواسطة معز الدولة هو ابن الجنيد الاسكافي[1]، إلّا أننا لا نجد تواصلاً بين أُولئك الحكام من آل بويه وبين المرجعية الشيعية! كما أن فقهاء الشيعة ومرجعيتها الدينية لم يصدر منهم ما يدل على مباركتهم أو تأييدهم لظهور هذه الدولة الفتية، كما أنهم لم يطعنوا في شرعية هذه الدولة وإنما: «واصلوا سياسة المصالحة معهم دون أن يتعرّضوا لقضيّة شرعية هذه السلطة»[2].

إلّا أننا بين أيدينا بحث فقهي للسيّد المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦ هـ) تحت عنوان: «مسألة في العمل مع السلطان» أجاب فيها على أسئلة الحسين بن علي المقري، حول الولاية من قبل الظلمة، وكيفية القول في حسنها وقبحها، ويعود تاريخ الرسالة إلى سنة خمس عشرة واربعمائة، أي بعد وفاة الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) بسنتين. «وقد أثبت من خلال أدلة القرآن، والسنة والعقل جواز العمل ـ مع السلطان ـ ضمن دائرة المصلحة الإسلامية العامة»[3] من دون أن يذكر السلطة البويهية بالاسم.

نعم استعان الحكام البويهيون في المرحلة الأُولى لحكمهم والذي امتد إلى نهاية حكم عضد الدولة (ت ٣٧٢ هـ) بشخصية السيّد أبي أحمد الحسين الطاهر (ت ٤٠٠ هـ) والد السيّدين الرضي والمرتضى، وهو من الشخصيّات السياسية

---

(١) دائرة المعارف الشيعية: ٨ / ٤٠٣.

(٢) القزويني، المؤسسة الدينية: ١٨.

(٣) القزويني، المؤسسة الدينية: ١٨، وأُنظر نص رسالة مسألة في العمل مع السلطان ضمن مجموعة رسائل الشريف المرتضى، المجموعة الثانية: ٨٩ وما بعدها، بتقديم السيّد أحمد الحسيني وإعداد السيّد مهدي رجائي، طبعة دار القرآن ـ قم، ١٤٠٥ هـ.

والعلمية الموقّرة، و «عرف بالكفاءة السياسية، وقد صوّرته النصوص بأ نّه كان رسول سلام بين آل بويه، وبين الممالك المحيطة بهم، أمثال الحمدانيين، والأتراك، والديلم. وذكرت النصوص أنّ من مهمات الحُسين أ نّه كان سفير الخلفاء والملوك والأُمراء في الأُمور المهمة، حيث سُفّر أيام معزّ الدولة البويهي ليقوم بوساطة بينه وبين الأتراك. كما توسّط للصلح بين معز الدولة وآل حمدان. ولمّا اختلف بهاء الدولة مع أخيه صمصام الدولة، سافر الحسين والد الشريفين إلى بلاد فارس للإصلاح بينهما»[1].

إلّا أن تقلبات السياسة وأهلها قد طالت الطاهر ذي المناقب، فلم تشفع له مكانته الاجتماعية، ونقابته للطالبيين، إذ قبض عليه عضد الدولة البويهي، وعلى أخيه أحمد، ومعهما بعض الأشراف، وسجنهم في احدى القلاع بفارس، وبقي في السجن قرابة سبع سنوات، ولم يطلق سراحه إلى عام (٣٧٦ هـ) حيث رد إليه اعتباره، وأملاكه المصادرة[2].

ولم تكن استعانة البويهيين بأبي أحمد الحسين بن موسى لمكانته الدينية وإنما لوجاهته الاجتماعية، وحسن تدبيره واصلاحه بين الناس، ولكن سرعان ما انقلب عليه عضد الدولة، استعظاما لأمره، أو طمعا في أملاكه، أو خوفا من ميوله السياسية.. أو لغيرها من الأسباب التي يذكرها المؤرخون[3].

لقد كان تعامل آل بويه مع فقهاء الشيعة وأقطابها الثلاثة (المفيد، والمرتضى،

---

(١) أُنظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١ / ٣١.

(٢) أُنظر تفاصيل ذلك: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥ / ٤٤٠، ٤٦٩ ـ ٤٧٠، وابن الجوزي، المنتظم: ١٥ / ٧١ ـ ٧٢.

(٣) أُنظر ابن أبي الحديد، شرح النهج: ١ / ٣٢ ومسكويه، تجارب الأُمم: ٦ / ٤٤٩، وابن تغري تبردي الأتابكي، النجوم الزاهرة: ٤ / ٢٢٤.

والطوسي) يدور مدار مصالحهم السياسية الدنيوية، فمتى ما اقتضت مصالحهم السياسية التقرب لهم واكرامهم، فعلوا ذلك، وإذا انقلبت الأُمور وتعرضوا لضغوط مذهبية أو سياسية من قبل علماء المذاهب الأُخرى، أو من عوام السنة انقلبوا عليهم، «وكانت القضايا السياسية عندهم أهم من أي أمر آخر..»[1].

لقد كانت بغداد ومنذ تأسيسها مهدا للتشيع والشيعة، ومع مرور الزمن كثر عددهم فيها وتوسع نفوذهم، ولهذا يقول ابن الجوزي في حوادث سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة «.. وكثر الرفض، فنودي ببراءة الذمة ممن ذكر أحدا من الصحابة بسوء»[2]. فمن الطبيعي جدا أن يتقرب آل بويه للشيعة ولمرجعيتها الدينية، ومن الطبيعي أيضا أن ينعتهم خصومهم بالرفض والتشيع.

لقد تميزت المرحلة الأُولى من نفوذ آل بويه والذي امتد إلى نهاية عهد عضد الدولة البويهي سنة (٣٧٢ هـ)، بالاستقرار النسبي لحكمهم، بخلافه في المرحلة الثانية والتي امتدت إلى سقوطهم سنة (٤٤٧ هـ) والتي سادتها الاضطرابات والفتن الداخلية.

وتبعا لذلك اختلفت طريقة تعاملهم مع الشيعة ومرجعيتها الدينية.

والنصوص التي تحدثنا عن الشيخ المفيد ومكانته ومنزلته عند بني بويه، وإن له صولة ونفوذا عند آل بويه.. تتحدث عن المرحلة الأُولى من حكم الدولة البويهية، إذ كانت هذه الدولة بحاجة للتقرب للشيعة ومرجعيتها «فكان عضد الدولة البويهي يزوره في داره، ويعوده إذا مرض»[3]، وهكذا النصوص التي تتحدث عن حضور عضد

---

(١) دائرة المعارف الشيعية: ٨ / ٤٠٣.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم: ١٥ / ٢٧.

(٣) ابن حجر، لسان الميزان: ٦ / ٥٠٦.

الدولة لمجالس الشيخ المفيد الفكرية والتي كانت تعقد لمناقشة الاختلاف بين وجهات نظر التيارات الكلامية المتباينة. فقد كان يحضرها لمحبته لمجالس العلم والعلماء، ولأن الظروف السياسية تقتضي التقرب من المرجعية الشيعية، لسعة نفوذها واتساع قاعدتها الشعبية.

وأما في المرحلة التالية من عصر الدولة البويهية والتي سادها الاضطراب والاحتراب الداخلي على السلطة بين البويهيين أنفسهم، فنجد الأمر يختلف في طريقة تعاملهم مع الشيعة وشعائرهم الدينية، ومرجعيتهم الفقهية المتمثلة آنذاك بالشيخ المفيد «فقد طالت المحنة السياسية للشيخ المفيد، وعموم الشيعة، حيث إتسم الحكم البويهي بعد وفاة عضد الدولة بصراعات بين الأُسرة البويهية، وفتن داخلية أثارتها قوى سياسية ناشطة متخذة من المذاهب السّنية واجهة للصراع. وقد بلغ الضعف أوجه في السنوات العشرة الأخيرة من القرن الرابع الهجري، ونتيجةً لهذا الضعف السياسي حاول البويهيون مواجهة القوى المتخذة من النفوذ السُّني مبرّرا للوصول إلى الحكم بمبادرة التخلّي عن الهوية الشيعية، والظهور بمظهر الخلافة العباسية السنية، حيث عمد الحسن ابن أبي جعفر الملقّب بعميد الجيوش، وهو ممن ولي وزارة بهاء الدولة سنة (٣٩٢ هـ) إلى منع الاحتفالات الشيعية بعيد الغدير، وبالمناسبات الدينية في ذكرى «عاشوراء» خشية إثارة مشاعر السنة، كما نُفي المفيد عن بغداد عام (٣٩٣ هـ) للسبب نفسه»[1].

والذي يبدو من خلال النصوص التاريخية ان الاعتداء على المرجعية الشيعية قد

---

(١) القزويني ـ جودت، المؤسسة الدينية: ٢٢ / ٢٣ وأُنظر ابن الأثير، البداية والنهاية: ٥ / ٥٥١، ٥٥٦.

تكرر لأكثر من مرة، وفي كل مرّة يُنفى الشيخ المفيد من بغداد ولا يعود إليها إلّا بعد وساطة من بعض الأُمراء! «ففي سنة (٣٩٨ هـ) تفاقم الوضع الداخلي للبويهيين، حيث استهدف المفيد بالاعتداء في عملية اثارة مشاعر الشيعة، وهو في مسجده ببغداد، فجوبه هذا الاعتداء باعتداء آخر على اثنين من كبار القضاة السُنّة مما خلق مبررا للدولة بإحراق دور الشيعة التي تجمعت في القسم الغربي من بغداد، ونُفي المفيد عنها. وقد ذكر بعض المؤرخين أنّ رجوع المفيد إلى بغداد مرة ثانية كان بتدخل علي بن مزيد الأسدي الذي كان رئيسا للإمارة «المزيدية» الشيعيّة المتمركزة بمدينة الحلة»[1].

ويرى بعض الباحثين «إنّ حادثة الاعتداء على المفيد، واحراق بيوت الشيعة هما في حدّ ذاتهما عملية لاسكات المعارضة المتمثلة بالتيار السُّني ضد السلطة البويهية نفسها، هكذا اوحت المرويّات»[2].

وخلاصة الأمر، ان حكومة الدولة البويهية والتي امتدت لأكثر من قرن من الزمن، على فرض شيعيتها، إلّا أنها لم تكن من عوامل انتشار التشيع في بغداد، ولم يكن لديهم مشروع سياسي لتسليم السلطة للعلويين، ولم تعترف بولاية معينة للفقهاء والمرجعيات الشيعية، فقد تعرض الشيخ المفيد للنفي لأكثر من مرّة، ولم يسلم الشيخ الطوسي من الغوغاء إلّا بشق الأنفس!

إلّا أنّ العصر البويهي كان ـ وبحق ـ عصر ازدهار العلوم والمعارف وعصر دور العلم والحكمة، وعصر الكتب والمكتبات، وعصر الحرية المذهبية حيث أصبحت

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ٨ / ١١، وابن الأثير، الكامل: ٩ / ٧١.

(٢) القزويني، المؤسسة الدينية: ٢٣ عن مقدمة كتاب الخصال: ٥٧، وبحر العلوم، الدراسة وتاريخها في النجف: ١٦.

بغداد في هذا العصر مركزا استقطب قادة المذاهب الدينية على اختلاف مشاربهم، ومن مختلف بقاع العالم.

وقد حظي الشيعة الإمامية في هذا العصر بظهور فقهاء كبار تناوبوا بنجاح على قيادة الشيعة، وكان محمد بن محمد بن النعمان الملقب بالشيخ المفيد (٣٣٦ ـ ٤١٣ هـ) الفقيه الأول الذي يعتبر الرائد لمدرسة الاجتهاد عند الاثني عشرية، وتبعه اثنان من تلامذته هما؛ الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ)، والشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ).

لقد أدّى هؤلاء الفقهاء الثلاثة أدوارهم العلمية تبعا للظروف التي أحاطت بهم، كما أرسوا أركان المذهب الشيعي، واستفادوا من تنقية التراث الذي وصلهم في ارساء الأُسس العقاندية للطائفة.

ولم يسجل لعلماء هذه المرحلة أي نشاط سياسي يذكر، فلم يساهموا في الحياة السياسية التي كان يدير دفتها الحكم البويهي، «فبالرغم من ظهور الشيعة كمدرسة بدأت تتبلور فكريا في هذه المرحلة، إلّا أنّ المؤسسة الدينية المتمثلة بالفقهاء لم تسجّل أيّ نشاط سياسي يخدم السلطة البويهية بشكل مباشر، او تُسهم في مناصب حكوميّة مهمة، بل حرصت على أداء وظيفتها بطريقة متوازنة مع الظروف السياسية غير المستقرة»[1].

ثانيا: مشايخ الشيخ المفيد:

لقد ولد الشيخ المفيد في احدى نواحي بغداد وفي قرية كانت تعرف بـ (عكبرا)، وترعرع في ظل أُسرة علمية متعلمة، وكان معلّمه الأوّل والده الذي كان معلما بواسط،

---

(١) القزويني ـ جودت، المؤسسة الدينية: ١٩.

فعُرف الشيخ المفيد بابن المعلم، بعدها انتقل إلى حاضرة العلم آنذاك (بغداد) ليبدأ رحلته الطويلة في التعليم والتعلم..»[1].

لقد درس الشيخ المفيد عند كبار علماء ومشايخ بغداد، والتي «كانت في زمانه تزخر بصنوف التيارات والاتجاهات والمذاهب، وتزدحم أروقتها بعشرات العلماء من فقهاء ومتكلمين ومفسرين وفلاسفة وأدباء وشعراء وأطباء...»[2].

لقد «اقترنت حياة الشيخ المفيد بالنبوغ المبكر، فكان شغفا بطلب العلم منذ طفولته» فقد نال اجازة الحديث من شيخه ابن أبي اليابس (ت ٣٤١ هـ) وهو في الخامسة من عمره كما روى بالاجازة عن ابن السمّاك (ت ٣٤٤ هـ) وله من العمر حين موته سبع سنين وأربعة أشهر، وتحمَّل الرواية أيضا عن جماعة من المحدثين وهو بعد لم يتجاوز الاثني عشر عاما. وروى أيضا عن أبي علي الصولي وعلي بن بلال المهلبي وابن الجعابي (ت ٣٥٥ هـ) في سنّ السادسة عشرة، وعن الشيخ الصدوق قبل بلوغه العشرين، وعن الحسن بن حمزة ابن علي المرعشي في الثامنة عشرة أو العشرين..»[3].

ومن أبرز أساتذة ومشايخ المفيد في علم الكلام علي بن عيسى الرماني وهو الذي لقبه بالمفيد في قصة معروفة يرويها ابن ادريس في مستطرفات السرائر[4].

والشيخ المفيد «من أجلة تلاميذ ابن الجنيد، وقد استفاد منه كثيرا، وكان يؤكد على مدى استعداده، وعظمة فكره، ولكنّه عارض طريقته في الاستدلال، وخطّأه في موارد

---

(١) أُنظر: أعيان الشيعة: ٩ / ٤٢٠.

(٢) الخزرجي ـ صفاء، مجلة فقه أهل البيت، السنة الثامنة، العدد ٣١، الصفحة ٢٨٦.

(٣) المرجع نفسه: ٣١ / ٢٩٤ ـ ٢٩٥ عن أمالي الشيخ المفيد: ٢، ٣، ٧، ١٠١، ٣٠٤.

(٤) ابن ادريس، السرائر: ٣ / ٦٤٨.

عديدة، وألف كتبا عديدة في ردّه منها: المسائل الصاغانية، والمسائل السروية، ورسالتان الأُولى في ردّ المسائل المصرية باسم: «نقض رسالة الجنيدي إلى أهل مصر» والأُخرى باسم: «النقض على ابن الجنيد في اجتهاد الرأي».

وتتلمذ المفيد على جعفر بن محمد بن قولويه، ولكنّه تأثر بافكار وآراء ابن ابي عقيل، وقد اعتمد تلاميذ الشيخ المفيد على آراء استاذهم في رد ابن الجنيد.

علما بأن الشيخ المفيد كان صريحا، وشديد اللهجة في ردّ تلك الأفكار التي نشأت عن طريق أهل الاخبار، حتى ظن البعض ان ذلك منه‏ﷺ ليس لصراحة لهجته، ولكنه كان يرى ان لا طريق إلى اصلاح العلم ودوام الدين إلّا بالشدة معهم، وإلا لاندثرت معالم الدين، وقد ألف كتاب «مقابس الأنوار في الرد على اهل الاخبار» في هذا الباب[1].

وقائمة أساتذة الشيخ المفيد قائمة طويلة تشمل جمهور من العلماء والفقهاء والمحدثين، وقد أوصل هذه القائمة المحدّث النوري إلى خمسين شيخا من أساتذته، وأضاف عليها أحد المحققين أحد عشر اسما، وزاد عليها محقق آخر عشرة أسماء ليصل العدد إلى (٧١) اسما[2].

ثالثا: تلامذة الشيخ المفيد:

لقد كانت مدرسة الشيخ المفيد في بغداد مدرسةً نموذجية واسعة المعارف،

---

(١) جامع المقاصد، المقدمة: ١ / ١٥.

(٢) أُنظر النوري، خاتمة المستدرك: ٣ / ٥١٨ ومقدمة التهذيب بقلم السيّد الخرسان، والمقالات والرسالات سلسلة اصدارات مؤتمر الشيخ المفيد: ٩ / ١٠. وللتوسع أُنظر: مجلة فقه أهل البيت: ٣١ / ٢٩٤.

ممنهجة التعليم، مميزة الأهداف، تخرج منها أساطين العلم والمعرفة من أمثال السيّد المرتضى، والرضي، والطوسي، وسلّار، والكراجكي...

وكان الأُستاذ الأول لهذه المدرسة المعطاءة هو الشيخ المفيد نفسه، فقد كان رحمه الله «منهجيا وهادفا في كلِّ خطوات نشاطه العلمي، ومنها اعداد الكادر العلمي الذي انتقاه، إذ كان «من أحرص الناس على التعليم، وإنه كان يدور على المكاتب وحوانيت الحاكة فيلمح الصبي الفطن فيذهب إلى أبويه لاستنجاره منهم وتعليمه، وبذلك كَثُر تلامذته، كما كان يقوم لتلامذته بكل ما يحتاجون إليه»[1].

فهو رحمه الله كان المعلم والمدير والأب لأُولئك الطلّاب من خلال:

١ ـ انتقاء الطلّاب من ذوي الفطنة والنباهة.

٢ ـ تعليمهم وتنمية مواهبهم والكشف عن طاقاتهم وتأهيلها في مجالها المناسب.

٣ ـ القيام بما يحتاج إليه تلامذته من مستلزمات.

٤ ـ تشجيع طلّابه على التدريس بحضوره، فكان يحضر درس السيّد المرتضى، وكان يعجبه كلامه إذا تكلم[2].

فكان المفيد رغم مكانته العلمية ومرجعيته يقوم بهذا الدور المميز لاعداد الكوادر العلمية المؤهلة لمواصلة الحركة العلمية من بعده، «فلم يكن المفيد ليجلس في داره، ومجلس درسه ليقصده الطلّاب، اطمئنانا منه بسمعته وركونا إلى شهرته، بل هو العالم الميداني الحريص الجاد في دفع حركة العلم وكشف الطاقات وتأهيلها في المجال اللائق بها»[3].

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ١٧ / ٣٤٤ نقلاً عن ابن أبي طي.

(٢) الأفندي، رياض العلماء: ٤ / ٢٣.

(٣) الخزرجي، مجلة فقه أهل البيت: ٣١ / ٣٠١.

فكان التسديد الإلهي حليفه في هذا المجال، وكانت رعاية اللّه تسدد خطى هذا العالم الرباني، وتتوجيا لإخلاصه وصفاء نيته، وهذا ما نلمسه جليا في قصة تتلمذ السيّدين الشريفين المرتضى والرضي على يديه.

يذكر ابن أبي الحديد هذه القصة في ترجمة الرضي من شرح النهج فيقول: «حدثني فخار بن معدّ العلوي الموسويﷺ، قال: رأى المفيد أبو عبد اللّه محمد ابن النعمان الفقيه الإمام في منامه، كأنّ فاطمة بنت رسول اللّهﷺ دخلت عليه وهو في مسجد بالكرخ ومعها ولداها: الحسن والحسينعليهما السلام، صغيرين، فسلّمتهما إليه، وقالت له: علِّمهما الفقه. فانتبه الشيخ متعجبا من ذلك، فلما تعالى النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرؤيا دخلت إليه المسجد فاطمة بنت الناصر، وحولها جواريها وبين يديها ابناها محمد الرضيّ وعليّ المرتضى صغيرين، فقام إليها وسلّم عليها، فقالت له: أ يّها الشيخ، هذان ولداي، قد أحضرتُهما لتعلِّمهما الفقه، فبكى أبو عبد اللّه وقصّ عليها المنام، وتولّى تعليمهما الفقه، وأنعم اللّه عليهما، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدنيا، وهو باق ما بقي الدهر»[1].

لقد كان ينبغي أن يذكر للمفيد قائمة طويلة من التلاميذ، لسعة عطاء مدرسته، وجهوده المتواصلة في التربية والتعليم، إلّا أنّ كتب التراجم لا تذكر له سوى (٢٣) اسما من التلامذة، مع أنّ نص الذهبي عن ابن أبي طي يقول: «ولهذا كثرت تلامذته».

ويحلل ذلك أحد الباحثين بقوله: «والظاهر وجود فراغ في كتب التراجم حول هذه النقطة»[2].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ٤١ تحقيق أبو الفضل إبراهيم.

(٢) الخزرجي، مجلة فقه أهل البيت: ٣١ / ٣٠٤ وما بعدها.

ويكفي الشيخ المفيد فخرا أن يكون المرتضى والطوسي من تلامذته وامتدادا لمدرسته.

رابعا: تراث الشيخ المفيد:

لقد عُرف الشيخ المفيد بكثرة تأليفاته، وكانت كتبه معروفةً في الأوساط العلمية، مشتهرة عند العلماء، فتراهم يعرّفونه بها لاشتهارها وتداولها، فقالوا عنه: «صاحب التصانيف الكثيرة» وقالوا: «كان كثير التصانيف»، وقالوا: «إنّ له قريبا من مائتي مصنَّف كبار وصغار» وقالوا: «هي مائتا مصنَّف» بل قالوا: «له أكثر من مائتي مصنَّف»[1].

وهنالك فهارس متعددة عُملت لكتبه منذ القديم حتى قيل عنه: «إنّ فهرس كتبه معروف»[2]، ولعل أقدم فهرست وصلنا هو فهرست الشيخ النجاشي الذي ذكره في ترجمته لأُستاذه المفيد، وهو قد اعتمد الفهرست الذي أشار إليه الشيخ الطوسي ولم يذكره، «وبواسطته وصلت إلينا قائمة شبه كاملة من مصنّفات الشيخ المفيد، ولولا ذلك لجهلنا حتى أسماء الكثير منها؛ فإنَّ الشيخ الطوسي لم يذكر في فهرسته منها إلّا ما قرأه هو عليه، أو سمعه عليه بقراءة غيره، ولذلك لم يستوعب كلَّ مصنّفاته، ومجموع ما سجله هو والنجاشي، وابن شهر آشوب في معالم العلماء، والسيّد ابن طاووس في كتبه، من مصنفات الشيخ المفيد يبلغ نحوا من مائتي كتاب..»[3].

---

(١) مرَّ بنا في ترجمته مصادر هذه الأقوال، وللتوسع أُنظر مقال السيّد عبد العزيز الطباطبائي في مجلة تراثنا، العدد ٣٠، الصفحة: ١٦ وما بعدها.

(٢) الطوسي، الفهرست: ١٨٦.

(٣) الطباطبائي ـ عبد العزيز، مجلة تراثنا: ٣٠ / ١٧.

وخلاصة الأمر، إنّ تراث هذا الشيخ الجليل قد فهرس قديما، وقام اثنان من تلاميذه هما: الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) والنجاشي (ت ٤٥٥ هـ) بتصنيف كتابين ببليوغرافيين في ترجمة رجال الشيخ، أوردا فيهما فهرسا لآثار أُستاذهما، بعد ذلك قام ابن شهر آشوب (ت ٥٨٨ هـ) بتأليف كتابه [معالم العلماء] من أجل إكمال كتاب الطوسي. فكلُّ الفهارس الجديدة لآثار المفيد تعتمد على هذه المصادر»[١].

وقد وصلنا من تراث الشيخ المفيد بعض كتبه، وطبعت بطبعات متعددة، ولعلّ أوسعها ما طبع ضمن موسوعته التي نشرت ضمن أعمال مؤتمر الشيخ المفيد في (١٤) مجلدا.

وقد اتسمت مصنفات الشيخ بجملة من السمات نشير إليها باختصار:

أولاً: المنهجية والأصالة:

فالشيخ المفيد صاحب منهج علمي تكاملي متميز في تصنيفات، فهو يمزج بين المنهج الروائي، والعقلي، والأُصولي.. ويستخلص منها نتائج باهرة أصيلة عميقة الغور. وسوف نشير إلى بعض ملامح منهجه لاحقا.

«إنّ اعتماد المنهج العلمي لدى الشيخ المفيد في مؤلفاته قد أَدخل عملية التصنيف الإمامي في كافة اتجاهاته مرحلة حديثة من التأليف والتصنيف، غير ما عرفته مدرسة الحديث من عمليات الجمع والتبويب والعنونه وتجريد الأسانيد، والتي لا تنفذ إلى عمق المادة العلمية لتحليلها ودراستها دراسة علمية موضوعية تخضع لأُصول وقواعد البحث العلمي»[٢].

---

(١) مكدورت ـ مارتن، نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد: ٥٤ تعريب علي هاشم.

(٢) الخزرجي ـ صفاء، مجلة فقه أهل البيت: ٣٢ / ٢٦٣.

ثانيا: الشمولية والاستيعاب:

قد نجد أن الشيخ المفيد، وربما لظروف موضوعية أملت عليه أن يكون الطابع العام لمصنفاته ـ بحسب أغلب عناوينها التي وصلت إلينا ـ هو الطابع الكلامي، إلّا أنّه‌ كان موسوعيا في عطائه فاستوعب الكثير من العلوم والمعارف الشائعة في زمانه آنذاك ودوّن فيها المصنَّفات المتعددة.

يقول أحد الباحثين: «ترك المفيد مؤلفات متنوعة وفي شتى المواضيع، كانت طبيعة عصره بحاجة ملحة إليها، وأكثرها في العقائد والردود والنقوض التي كانت صدى لروح العصر الذي عاشه، وانعكاسا واضحا لطبيعة تلك الحقبة الصاخبة بالجدل الديني والمناظرات المذهبية، يمثل أبرز ثورة عقائدية عرفها المسلمون. يوم كانت بغداد مسرحا رحبا لعقائد وآراء ونزعات ومذاهب في مختلف اشكالها وألوانها، وهي في نقاش وجدل مستمرين؛ يحتضن كل ذلك حرية واسعة، تتسع حتى للملحدين والزنادقة.

وكان على المفيد، وهو زعيم الشيعة الإمامية العلمي والفكري أن ينبري لمصارعة زعماء تلك المذاهب والنزعات، بما وهبه اللّه من طاقة علمية حية وفكر واع رحب. ومن هنا كانت مؤلفاته ـ على الأكثر ـ ذات طابع متميز عن مؤلفات سواه، يظهر عليها روح الجدل والمناظرة، أو روح الدفاع العقائدي أو التقرير»[1].

ثالثا: التأسيسية والابتكار والجدة:

لقد جاءت كتب ومصنّفات الشيخ المفيد في مرحلة تعتبر من أدق مراحل الفكر الإمامي؛ وهي مرحلة تأسيسية تأصيلية، فقام بعبء مهمة التأسيس رجال عظام على

(١) نعمة ـ عبد اللّه، فلاسفة الشيعة: ٥٢٤.

رأسهم شيخنا المفيد.

وعندما نعود إلى فهرست كتبه نجد في عناوينها الجدة والابتكار والتأسيس، بالاضافة إلى التنوع والأصالة والشمول، فأول مصنف يصلنا في علم الأُصول من تلك الحقبة هو كتاب (التذكرة) للشيخ المفيد، يضاف إليه مجموعة من الكتب والأبحاث في أُصول الفقه تصل إلى خمسة كتب[1].

كذلك نجده يؤسِّس للكتابات التاريخية فيكتب أربعة كتب في التاريخ: الإرشاد، والجمل، والتواريخ الشرعية، والمعراج.. كذلك نجده في بحوث علوم القرآن يكتب اثني عشر كتابا، بالاضافة إلى مصنفاته الكلامية والعقائدية التي تجاوزت التسعين كتابا.. ثمّ إن هناك نحوا من أربعين كتابا من مصنفاته المفقودة مجهولة الموضوع، كالتمهيد، والانتصار، والافتخار، والرسالة العلوية، وكشف الإلباس.. وغيرها، وله (٤١) كتابا في الفقه[2].

وأهم كتبه الفقهية كتاب «المقنعة» وهو المتن الذي شرحه الشيخ الطوسي في كتابه الكبير «تهذيب الأحكام»[3].

خامسا: المنهج الاستدلالي للشيخ المفيد:

لقد تميّز الشيخ المفيد بمنهج فقهي استدلالي مُبتكر يجمع بين التمسك بالنصوص الشرعية الكتاب والسنة، وبين الاتجاه العقلي المعتدل بعيدا عن شوائب ما

---

(١) الطباطباني ـ عبد العزيز، تراثنا: ٣٠ / ١٧.

(٢) المرجع نفسه: ٣٠ / ١٧.

(٣) للتوسع في معرفة فهرست كتب الشيخ المفيد، أُنظر: المرجع السابق: ٣٠ / ١٦ وما بعدها، ونظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد: ٥٤ وما بعدها، ومجلة فقه أهل البيت: ٣٢ / ٢٦٣ وما بعدها.

اتصف به منهج أُستاذه ابن الجنيد.

فنجده من جهة يوجه نقدا لاذعا للمحدثين لانهم:

أولاً: بدلاً من التحقيق في مروياتهم، ينقلون كل خبر ينفرد بروايته راو واحد، أو يرويه غير الثقاة.

ثانيا: وبدلاً من ان يُعملوا قدرتهم العقلية للتحقيق في محتوى الأحاديث من أجل التمييز بين ما يوافق العقل عما لا يوافقه، يَرْوُون كلّما صادفهم في طريق قراءتهم ومطالعتهم.

يقول في جواب المسألة الثامنة من «المسائل السروية»: «... وأصحاب الحديث ينقلون الغثّ والسمين، فلا يقتصرون في النقل على المعلوم، وليسوا بأصحاب نظر وتفتيش، ولا فكر فيما يروونه وتمييز، فأخبارهم مختلطة لا يتميّز منها الصحيح من السّقيم إلّا بنظر في الأُصول، واعتماد على النظر الذي يوصل إلى العلم بصحة المنقول»[1].

كان هذا تقييم ونقد الشيخ المفيد للمحدثين، ومنهم الشيخ أبو جعفر بن بابويه القمي المعروف بالصدوق، وهو من مشايخ الشيخ المفيد في الحديث.

أما نقده لاستدلالات ابن الجنيد الفقهية فهي تأخذ لونا آخر أشد قساوة من نقده للمحدثين، فيقول: «فأما كتب أبي علي بن الجُنيد، فقد حشاها بأحكام عمل فيها على الظَّن، واستعمل فيها مذهب المخالفين في القياس الرَّذل، فَخلط بين المنقول عن الأئمة عليهم السلام، وبين ما قاله برأيه، ولم يفرد أحد الصنفين من الآخر، ولو أفرد المنقول من

---

(١) المسائل السروية: ٧٣ المجلد السابع، المطبوع ضمن سلسلة مؤلفات الشيخ المفيد، بتحقيق: صائب عبد الحميد.

الرّأي لم يكن فيه حجّة، لأنه لم يعتمد في النَّقل المتواتر من الأخبار، وإنما عَوّل على الآحاد»[1].

والملاحظ من النصين ان الشيخ المفيد وجّه نقده للمحدثين عامة، وابن بابويه خاصة، لاعتماده على الأحاديث الضعيفة، واخفاقه في تحكيم العقل عند شرحها وتفسيرها، كذلك انتقد ابن الجنيد، بسبب استعماله القياس والرأي الشخصي في الاحكام، مضافا إلى اعتماده على أخبار الآحاد في فتاواه.

ومن هنا يتضح لنا منهج الشيخ المفيد في الاستدلال الفقهي والمباني الأُصولية التي يعتمدها ويسير عليها.

ومن حسن الحظ ان الشيخ المفيد قد ترك لنا من جملة تراثه العلمي ملخصا في علم أُصول الفقه يعرف بكتاب (التذكرة) بيَّن فيه الخطوط العامّة لمنهجه الفقهي الاستدلالي وما يعتمده من الأدلة، فيقول: «اعلم أنّ أُصول الأحكام الشرعية ثلاثة أشياء: كتاب اللّه سبحانه، وسنّة نبيهﷺ، وأقوال الأئمة الطاهرين من بعده صلوات اللّه عليهم وسلامه. والطرق الموصلة إلى علم الشرع في هذه الأُصول ثلاثة:

أحدها: العقل، وهو السبيل إلى معرفة حجية القرآن ودلائل الأخبار.

والثاني: اللسان، وهو السبيل إلى المعرفة بمعاني الكلام.

والثالث: الأخبار، وهي السبيل إلى إثبات أعيان الأُصول من الكتاب والسنة، وأقوال الأئمةعليهم السلام.

والأخبار الموصلة إلى العلم بما ذكرناه ثلاثة أخبار: خبر متواتر، وخبر واحد معه قرينة تشهد بصدقه، وخبر مرسل في الاسناد يعمل به أهل الحق على الاتفاق».

---

(١) المسائل السروية: ٧٣.

ويقول أيضا: «... وليس عندنا للقياس والرأي مجال في استخراج الأحكام الشرعية، ولا يعرف من جهتها شيء من الصواب، ومن اعتمدهما في المشروعات فهو على ضلال...» ويقول عن الاجماع: «وليس في اجماع الأُمة حجة من حيث كان اجماعا، ولكن من حيث كان فيها الإمام المعصوم...»[١].

هذه أهم ملامح منهج الشيخ المفيد، وتحتاج إلى دراسة شمولية واسعة نسأل اللّه التوفيق لذلك.

٢ ـ السيّد علي بن الحسين الموسوي (الشريف المرتضى) علم الهدى (ت ٤٣٦ هـ).

وهو من ابرز تلامذة الشيخ المفيد‏‏.

وصفه تلميذه الشيخ الطوسي بقوله: «متوحّد في علوم كثيرة، مُجمع على فضله، مقدم في العلوم... ثمّ ذكر فهرست كتبه وقال: قرأت هذه الكتب أكثرها عليه وسمعت سائرها يقرأ عليه دفعات كثيرة...»[٢].

ووصفه النجاشي بقوله: «حاز من العلوم ما لم يدانه فيه أحد في زمانه، وسمع من الحديث فأكثر... عظيم المنزلة في العلم والدين والدنيا صنّف كتبا منها.. مات‏ لخمس بقين من شهر ربيع الأول سنة ستّ وثلاثين وأربعمائة، وصلّى عليه ابنه في داره ودفن فيها، وتوليت غسله ومعي الشريف أبو يعلى محمد بن الحسن الجعفري وسلّار بن عبد العزيز»[٣].

---

(١) المفيد، التذكرة في أُصول الفقه: ٢٨، ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) الطوسي، الفهرست: ٩٩.

(٣) النجاشي، الرجال: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

وقال فيه ابن داود الحلّي: «أفضل أهل زمانه وسيد فقهاء عصره، حال فضله وتصانيفه شهير...»[1].

وقد اتبع منهج وطريقة استاذه في ردّ المحدثين والف عدّة رسائل في ذلك من اهمها: جوابات المسائل الموصلية الثالثة، ورسالة في الردّ على اصحاب العدد، ورسالة في إبطال العمل باخبار الآحاد.

ومن اهم كتبه الفقهية: كتاب الانتصار، والناصريات، وعشرات الرسائل الفقهية. ومن اهم كتبه الأُصولية كتاب: «الذريعة إلى أُصول الشريعة» الذي يقول في مقدمته: «فهذا الكتاب إذا أعان اللّه تعالى على إتمامه وإبرامه، كان بغير نظير من الكتب المصنّفة في هذا الباب..»[2].

ومن كتبه المهمة كتاب الشافي في الإمامة الذي يقول عنه الطوسي: «وهو نقض كتاب الإمامة من كتاب المغني لعبد الجبار بن أحمد، وهو كتاب لم يصنّف مثله في الإمامة...»[3].

وقد سار السيّد المرتضى على طريقة أُستاذه المفيد، وأكمل المباحث الأُصولية، وتتبع العناصر المشتركة في الاستنباط، وكان موفقا في تطوير واكمال نظريات أُستاذه الأُصولية، ويظهر ذلك جليا من خلال مطالعة كتاب الذريعة[4].

إلّا أنّه يوجد اختلاف وفوارق في المنهج بين العلمين المفيد والمرتضى، وقد أشار إلى هذه الفوارق بين المنهجين الشيخ سعيد بن هبة الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ) في

---

(١) ابن داود الحلي، الرجال: ١٣٧.

(٢) المرتضى، الذريعة، المقدمة: ٣٢، طبعة مؤسسة الإمام الصادق ـ قم.

(٣) الفهرست: ٩٩.

(٤) للتوسع انظر: مقدمة تحقيق كتاب الذريعة.

كتابه الموسوم بـ (الاختلافات بين الشيخ المفيد والسيّد المرتضى) وقد أحصى تسعين موردا من الاختلاف بينهما، يعود الكثير منها إلى الاختلاف في المنهج الفقهي وأدلة الأحكام الشرعية[1].

وليس بين أيدينا كتاب الراوندي ليتبين لنا بوضوح أوجه الاختلاف بين هذين العلمين.

ومهما يكن من أمر فالسيد المرتضى من كبار علماء بغداد، بل ومن كبار علماء الشيعة على الإطلاق، وكان من نتيجة ابحاث المفيد والمرتضى العلمية ان اندثر مكتب القميين وأهل الحديث[2].

* المنهج التقريبي عند السيّد المرتضى:

لقد عاش السيّد المرتضى في بغداد، وكانت بغداد في القرن الثالث والرابع وإلى منتصف القرن الخامس مصبَّ وملتقى المذاهب الإسلامية الكلامية منها والفقهية، بما فيها المذهب الشيعي الإمامي، الذي كان يحتل السنام الأعلى بين هذه المذاهب.

ولهذا نجد سمة الانفتاح على المذاهب الأُخرى هي السمة البارزة في أغلب التراث الذي وصلنا من هذه الفترة وخاصة عند الأعلام الثلاثة (المفيد، والمرتضى، والطوسي) فنجد الشيخ المفيد يكتب كتاب (الأعلام) والسيّد المرتضى يكتب (الانتصار) و (الناصريات) والشيخ الطوسي يكتب (الخلاف)، وهي من نوع كتب الفقه المقارن الذي يجمع آراء المجتهدين في شتى المسائل الفقهية على صعيد واحد دون اجراء موازنة بينهما، أو من كتب فقه الخلاف الذي يجمع الآراء الفقهية المختلفة

---

(١) انظر: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، لآغا بزرك، حرف الهمزة: ٣٦١.

(٢) الشهرستاني، مقدمة جامع المقاصد: ١ / ١٦.

ويقيمها ويوازن بينها بالتماس ادلتها ثمّ الترجيح بينها.

وعندما نعود إلى كتب السيّد المرتضى وخاصة (الانتصار والناصريات) نجد بوضوح معالم وسمات المنهج التقريبي بين المذاهب الذي سار عليه تلميذه الشيخ الطوسي في كتابه (الخلاف) ومن بعد ذلك العلّامة الحلّي في موسوعته القيّمة (تذكرة الفقهاء).

ففي كتاب السيّد المرتضى (الناصريات) الذي ألفه السيّد وفاءً لجدّه الناصر الأطروشي الزيدي ـ على الرغم من اختلاف المذهب بينهما ـ تتجلّى الروح العلمية وروح التفاهم والتسالم بين هذين العلمين الامامي والزيدي، مما يمكن أن يكون نموذجا صالحا وأُسوة حسنة لدعاة التقريب بين المذاهب.

ولا يكتفي في (الناصريات) بذكر المسائل الخلافية بين الامامية والزيدية فحسب؛ بل يتعرض إلى كثير من الخلافات الفقهية بين المذاهب الأُخرى، بالاضافة إلى ذكر مسائل الوفاق بينها، مما يدل على سعة الاطلاع والانفتاح الواسع على الفكر الآخر والتعامل معه بايجابيه بدل الانغلاق والتقوقع.

ومما يلفت النظر في منهج السيّد المرتضى اذعانه للدليل في تصحيح أو تكذيب ما ينسب إلى الآخرين، وهذا يدل على الروح العلمية الموضوعية، والمعرفة التامة بآراء الآخرين والانصاف لهم؛ ففي مسألة بول الصبي من كتاب الناصريات، وبعد نقل الآراء فيها يقول: «ومن حكى عن الشافعي أ نّه ليس بنجس فقد وهم عليه»[(١)].

وفي مكان آخر من كتابه يقول: «... ولا أعرف فيها نصّا لاصحابنا ولا قولاً

(١) الناصريات، المسألة رقم (١٣) و (١٤) و (٦٩ ـ ٧٠).

صريحا... ويقوى في نفسي عاجلاً... صحة ما ذهب إليه الشافعي...»[1].

وبالاضافة إلى الروح العلمية والموضوعية التي اتصف بها السيّد المرتضى، نجده يحترم الطرف الآخر مهما اختلف معه في المسائل العلمية، فلا ينسب قولهم إلى البدعة ولا يهاجمهم، إلّا في بعض الموارد التي يتضح فيها البدعة بشكل جلي، فيذكر كلمة البدعة ولكن مع رعاية الأدب فيقول: «... وقد اختلف الفقهاء في التثويب ـ وهو قول: الصلاة خير من النوم ـ ما هو؟.. إلى أن يقول: وما لا ذمّ في تركه، ويُخشى في فعله أن يكون بدعة ومعصية يستحق به الذمّ؛ فتركه أولى وأحوط في الشريعة»[2].

لهذه السمات العلمية والأدب الجم والأخلاق السامية أحبه جميع من عاصره من المنتمين إلى مختلف المذاهب الإسلامية؛ بل حتى من غير المسلمين أحبوه وأثنوا عليه، ينقل الخونساري في روضات الجنات عن الغساني الحمصي قوله: «ما رأيت رجلاً من العامّة إلّا وهو يُثني عليه»[3].

٣ ـ حمزة بن عبد العزيز أبو يعلى الديلمي (سلّار) (ت ٤٤٨ أو ٤٦٣ هـ)

وهو من أعلام هذه الحوزة، ومن كبار فقهاء الإمامية الذين يمثلون النشاط الفقهي في القرن الخامس الهجري، سكن بغداد، وتلمذ على الشيخ المفيد، ثمّ على الشريف المرتضى، واختص به، وكان فقيها، أُصوليا، متكلما، أديبا، نحويا، معظما عند أُستاذه المرتضى، وربما ناب عنه في تدريس الفقه ببغداد، وكان ذا شهرة واسعة بين الفقهاء.

قال عنه العلّامة الحلّي: «شيخنا المقدم في الفقه والأدب، كان ثقة وجها»[4].

---

(١) الناصريات، المسألة رقم (١٣) و (١٤) و (٦٩ ـ ٧٠).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) روضات الجنات: ٤ / ٢٩٢.

(٤) أُنظر طبقات الفقهاء للسبحاني: ٥ / ١٢٣.

وله جهود عظيمة في تكامل وتوسعة الأبحاث الفقهية والأُصولية، ومن أهمّ كتبه الفقهية كتاب «المراسم العلوية» وهو كتاب فتوائي يمثل وجهة نظره الفقهية، وله كتاب اصولي عنوانه «التقريب في أُصول الفقه»، وكتاب: «الردّ على أبي الحسين البصري من نقض الشافي» الذي كتبه بطلب من أُستاذه السيّد المرتضى، لنقض النقض الذي كتبه البصري على كتاب الشافي في الإمامة. وكذلك كتاب: «التذكرة من حقيقة الجوهر».

ويبدو أن سلّار ألّف كتابا في الفقه المقارن داخل المذهب وقد أشار إليه في كتابه المراسم[1].

ومما يؤسف له أن الكتاب المذكور وسائر الكتب التي أشرنا إليها لم تصل إلينا خلا كتابه «المراسم». وقد عرف بكتاب (المراسم العلية في الأحكام النبوية)، كما في كتاب الطبقات[2] أو كتاب (المراسم في الفقه الإمامي) كما هو في النسخة المطبوعة، أو هو (المراسم) فقط كما في نهاية الكتاب في قول المؤلف «الحمد للّه الذي وفقنا للمراسم..»[3].

«وهو كتاب فقهي فتوائي يمثل وجهة نظره الفقهية.. ويُعدّ من أصغر الكتب الفقهية الموروثة حجما؛ مع أنه دورة فقهية كاملة، وقد أشار المؤلف إلى طابع المنهجية والاختصار اللذين وسما كتابه في المقدمة والخاتمة...»[4].

---

(١) أُنظر المراسم: ٨٢ في نوافل شهر رمضان ولاحظ قوله: «وكتابنا الكبير يتضمن الخلاف في ذلك».

(٢) السبحاني، طبقات الفقهاء: ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٣) أُنظر النسخة المطبوعة من الكتاب: ٢٦٢ بتحقيق الدكتور: محمود البستاني.

(٤) المراسم، المقدمة: ٧ ـ ١٠.

٤ ـ القاضي ابن البراج (ت ٤٨١ هـ)

وهو سعد الدين عبد العزيز بن نحرير بن عبد العزيز، القاضي أبو القاسم الطرابلسي المعروف بابن البراج.

ويعد ابن البراج من فقهاء مدرسة بغداد في القرن الخامس ومن تلامذة السيّد المرتضى والشيخ الطوسي.

*** وثاقته والثناء عليه:**

أثنى عليه ووثقه علماء الرجال والتراجم بأعلى عبارات الثناء والوثاقة:

١ ـ قال الشيخ منتجب الدين في الفهرست: «.. وجه الأصحاب وفقيههم، وكان قاضيا بطرابلس وله مصنّفات منها: المهذب، والمعتمد، والروضة، والمقرب، وعماد المحتاج في مناسك الحاج..»[(١)].

٢ ـ وقال ابن شهر آشوب في المعالم: «.. من غلمان المرتضىؓ، له كتب في الأُصول والفروع، منها... شرح جمل العلم والعمل للمرتضىؓ»[(٢)].

٣ ـ وقال الحر العاملي في أمل الآمل: «.. وجه الأصحاب وفقيههم، وكان قاضيا بطرابلس، وله مصنفات..»[(٣)].

٤ ـ وقال الأفندي في الرياض: «وقد وجدت منقولاً عن خط الشيخ البهائي عن خط الشهيد أنه تولى ابن البراج قضاء طرابلس عشرين سنة أو ثلاثين سنة، وكان للشيخ أبي جعفر الطوسي أيام قرائته على السيّد المرتضى كل شهر اثنا عشر دينارا، ولابن

---

(١) منتجب الدين، الفهرست: ٧٤ ـ ٧٥ برقم الترجمة: ٢١٨.

(٢) ابن شهرآشوب، معالم العلماء: ٨٠.

(٣) الحر العاملي، أمل الآمل: ٢ / ١٥٢ ـ ١٥٣.

البراج كل شهر ثمانية دنانير، وكان السيّد المرتضى يجري على تلامذته جميعا»[1].

*** أساتذته وتلامذته والراوون عنه:**

لم يحضر ابن البراج درس الشيخ المفيد في بغداد، إذ لا نجد في ترجمته مَن ينصُّ على حضوره عنده، وإنما حضر درس السيّد المرتضى فكان أُستاذه الأول، ثمّ أكمل مشواره العلمي عند الشيخ الطوسي، ثمّ عاد إلى بلاد الشام ـ طرابلس ـ مُوفدا ووكيلاً عن أُستاذه في تلك البلاد، وعيّن قاضيا فيها وبقي في دفة القضاء عشرين أو ثلاثين سنة حتى توفي سنة احدى وثمانين وأربعمائة.

وينقل الأفندي في الرياض عن بعض الفضلاء: «إنّ ابن البراج قرأ على السيّد المرتضى في شهور سنة تسع وعشرين وأربعمائة إلى أن مات المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) وأكمل قراءته على الشيخ الطوسي، وعاد إلى طرابلس في سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، وأقام بها إلى أن مات»[2].

وقال الشيخ التستري في المقابس: «.. الفاضل الكامل، المحقق المدقق،.. وكان من غلمان المرتضى، وكان خصيصا بالشيخ وتلمذ عليه وصار خليفته في البلاد الشامية، وصنّف له الشيخ ـ بعد سؤاله ـ جملة من كتبه معبرا عنه في أوائلها بالشيخ الفاضل[3]، وهو المقصود به والمعهود، كما صرح به الراوندي في «حل المعقود»، وكتب الشيخ أجوبة مسائل له أيضا.. وكان من مشايخ ابن أبي كامل، والشيخ حسكا، والشيخ عبد الجبار، والشيخ محمد بن علي بن محسن الحلبي، وروى عنه ابناه

---

(١) الأفندي، رياض العلماء: ٣/ ١٤١ ـ ١٤٢.

(٢) المرجع نفسه: ٣/ ١٤١ ـ ١٤٢.

(٣) التستري، مقابس الأنوار: ٧ ـ ٩. طبعة حجرية.

الأُستاذان: أبو القاسم وأبو جعفر اللذان يروي عنهما القطب الراوندي، وابن شهر آشوب السروي وغيرهم..»[1].

*** تراثه العلمي:**

عُرف ابن البراج بكتابيه الشهيرين «المهذب» و (جواهر الفقه)[2] بالاضافة إلى شرح جمل العلم والعمل، وهذه الكتب الثلاثة هي كلُّ ما وصلنا من تراثه العلمي، وللقاضي ابن البراج كتب أُخرى مفقودة الأثر منها: روضة النفس في العبادات، الخمس، الكامل، الموجز، المقرب، التعريف، عماد المحتاج في مناسك الحاج، المنهاج في الفروع...»[3] والذي يبدو أن بعض مؤلفات القاضي كانت متونا دراسية، ومحورا للتدريس.

* وفاته: توفي في ليلة الجمعة لتسع خلون من شعبان سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وقد نيف على الثمانين..[4].

رحم اللّه الشيخ ابن البراج وحشره مع السلف الصالح من علماء هذه الأُمة، ومع الصديقين والشهداء.

٥ ـ أبو الصلاح الحلبي

وهو: «أبو الصلاح تقي أو تقي الدين بن نجم الدين بن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن

---

(١) أُنظر الشيخ الطوسي، الرسائل العشر: ١١٧، ١٥٥.

(٢) طبع هذان الكتابان من قبل مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين قم.

(٣) أُنظر فهرست منتجب الدين: ٢١٨، ومعالم العلماء لابن شهر آشوب: ٨٠، ومقدمة كتاب المهذب للشيخ السبحاني: ١٣ ـ ١٤.

(٤) الصدر ـ حسن، تأسيس الشيعة: ٣٠٤.

محمد الحلبي ولد بحلب سنة (٣٧٤ هـ) وتوفي بها سنة (٤٤٧ هـ)»[١].

عبّر عنه الشيخ في رجاله، والعلّامة في الخلاصة بتعبير: «ثقة عين»[٢].

ترجم له الذهبي في تاريخه فقال: «.. أبو الصلاح الحلبي، شيخ الشيعة، وعالم الرافضة بالشام، قال يحيى بن أبي طيّ الحلبي[٣] في تاريخه: هو عين علماء الشام، والمشار إليه بالعلم والبيان والجمع بين علوم الأديان وعلوم الأبدان، ولد سنة أربع وسبعين [وثلاثمائة] بحلب، ودخل العراق ثلاث مرّات، فقرأ على الشريف المرتضى، وقال ابن أبي دوح، توفي بعد عوده من الحجّ في الرملة، في المحرّم. وكان أبو الصلاح علّامة في فقه أهل البيت عليهم السلام.. وكان من أذكياء الناس وأفقههم وأكثرهم تفنّنا..»[٤].

والشيخ تقي الدين أبو الصلاح من علماء وفقهاء ومتكلمي القرن الخامس الهجري، وله حضور فاعل ومؤثر في مدرسة بغداد، فهو تلميذ لأبرز أساطين عصره، وهو أيضا أُستاذ لكبار فقهاء ذلك العصر الحافل بالعلم والعلماء والفقهاء، قال في

---

(١) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١٤ / ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) رجال الشيخ الطوسي: ٤١٧، خلاصة الأقوال للعلّامة الحلي: ٨٤.

(٣) له تأليفات، منها: تأريخ حلب، توفي سنة ٦٣٠ هـ أُنظر؛ الحاج خليفة كاتب جلبي، كشف الظنون: ٢ / ١٠١٣، وشاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون: ٢ / ٢٥٢ ـ ٢٥٥، طبعة دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧ م.

(٤) قال الشيخ رضا الأُستادي في مقدمة تحقيقه لكتاب الكافي في الفقه لأبي صلاح الحلبي: ١٠: «اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ـ وهو في سبعة أجزاء، طبعة حلب ـ ٤ / ٧٧ نقلاً عن الذهبي كما صرّح به في آخر كلامه بهذه العبارة: «الذهبي من وفيات سبع وأربعين وأربعمائة» وكانت عند مؤلف الأعلام نسخة من تاريخ الذهبي، ونسخة من خلاصته المسمّاة بالمنتقى من تاريخ الإسلام للذهبي للشيخ أحمد بن محمد الملّا المتوفى ١٠٠٣ هـ».

الرياض: «أبو الصلاح الحلبي.. تلميذ الشريف المرتضى، والشيخ الطوسي، وأُستاذ القاضي ابن البرّاج، ومع انه تلميذ الشيخ فقد ذكره في رجاله وقال عنه: «إنه قرأ علينا وعلى المرتضى»، ووثقه، وهذا يدل على عظم قدره، وفي بعض الاجازات: إنه خليفة المرتضى في علومه»[1].

ويقول التستري عنه: «.. وهو من أساطين تلامذة المرتضى، والشيخ، والديلمي (يعني سلّار)، وكان خليفة المرتضى في البلاد الحلبية، وكان الديلمي إذا استفتي يقول: عندكم التقي، وكان من مشايخ القاضي، وعبد الرحمن الرازي، والشيخ المقرئ الصالح الفقيه التّواب بن الحسن بن أبي ربيعة الخشاب البصري، والشيخ الفقيه الصالح ثابت بن أحمد بن عبد الوهاب الحلبي وغيرهم..»[2].

فأُولئك هم أبرز أساتذة التقي أبي صلاح، وعنه أخذ أبرز علماء عصره من الفقهاء الذين ذكروا في ترجمته وغيرهم.

وأما آثاره العلمية:

فقد ذُكر لأبي صلاح جملة من المؤلفات «في علوم الأديان، وعلوم الأبدان» بحسب تعبير الذهبي في ترجمته حيث قال: «وله مصنفات في الأُصول والفروع، منها: كتاب الكافي، وكتاب التهذيب، وكتاب المرشد في طرق التعبّد، وكتاب العمدة في الفقه، وكتاب تدبير الصحة..، وكتاب شبه الملاحدة، وكتبه مشهورة بين أئمة القوم..»[3].

---

(١) الأفندي، رياض العلماء: ١ / ٩٩ و ٥ / ٤٦٤. وأُنظر الطوسي، الرجال: ٤١٧.

(٢) التستري، المقابس: ٨.

(٣) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: ٤ / ٧٧ عن الذهبي في تاريخه. وأُنظر ملاحظة الشيخ رضا الأُستادي السابقة.

ومن أبرز كتب أبي صلاح والتي وصلتنا كتابان هما:

الأول: تقريب المعارف في علم الكلام، الذي حقّقه وقدّم له الشيخ رضا الأُستاذي، وطبع في قم سنة (١٤٠٤ هـ).

والثاني: الكافي في الفقه:

ويعتبر هذا الكتاب من أبرز مؤلفات الشيخ الحلبي أبو الصلاح، «وكان مأخذ مذاهبه في الفقه، وفقهاؤنا كابن ادريس في السرائر، والعلّامة في المختلف نقلوا فتاوى الحلبي من هذا الكتاب، وكان من مصادر بحار الأنوار...»[١].

وقد أثنى على المؤلِّف والمؤلَّف ابن ادريس في السرائر حيث قال: «.. وهو كتاب حسن، فيه تحقيق مواضع، وكان هذا المُصَنِّف من جملة أصحابنا الحلبيين من تلامذة السيّد المرتضى»[٢].

كذلك أثنى عليه المحقق الحلي في المعتبر فقال: «.. أبو الصلاح الحلبي، وهو أحد الأعيان ولا بأس باتباع فتواه»[٣].

وقد تأثر بمنهج الشيخ التقي أبي صلاح بعض أعلام مدرسة حلب من أمثال: أبي المجد الحلبي من علماء القرن السادس الهجري في كتابه: اشارة السبق، كذلك أبو زهرة الحلبي (ت ٥٨٥ هـ) في كتابه غنية النزوع..»[٤].

هذا ما يمكن أن نسجله في ترجمة هذا الفقيه الجليل، الذي «مات بعد عوده من

---

(١) التستري، كشف القناع عن حجية الاجماع: ١٢٩. طبعة حجرية.

(٢) السرائر: ١ / ٢٦٦.

(٣) المحقق الحلي، المعتبر: ١ / ١٥٨.

(٤) التستري، قاموس الرجال: ٢ / ٢٥٤.

الحج بالرملة ـ من أرض فلسطين ـ في محرم سنة ست وأربعين وأربعمائة»[1] بعد حياة علمية حافلة عرف فيها بالصلاح والزهد والتقشف والقناعة مع الحرمة العظيمة والجلالة.

٦ ـ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المولود سنة (٣٨٥ هـ) والمتوفى سنة (٤٦٠ هـ)

الشيخ الطوسي في سطور:

ولد الشيخ ابو جعفر محمّد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي المعروف بشيخ الطائفة والشهير بالطوسي في مدينة طوس في شهر رمضان سنة (٣٨٥ هـ) وهاجر إلى بغداد سنة (٤٠٨ هـ). ولم يحدثنا علماء التراجم عن الفترة الزمنية التي قضاها الشيخ في مسقط رأسه (طوس) ولا عن أساتذته او من أخذ العلم عنهم.

إلّا أنه في بغداد لقي محمد بن محمد بن النعمان الشهير بالشيخ المفيد وتتلمذ عليه، وبقي على اتصاله بشيخه «المفيد» حتى اختار اللّه للأُستاذ دار لقائه سنة (٤١٣ هـ)، فانتقلت المرجعية إلى السيّد علم الهدى السيّد المرتضى، فانتقل الشيخ الطوسي إلى حلقة درسه، فأكرمه السيّد المرتضى وبالغ في توجيهه وتلقينه، وعين له في كل شهر اثني عشر دينارا، وبقي ملازما له طيلة ثلاث وعشرين سنة، إلى أن توفي السيّد المرتضى فاستقل الشيخ بالامامة والرياسة، وكانت داره في الكرخ مأوى الناس، ومقصد الوفاد، وقد تقاطر إليه العلماء والفضلاء للتلمذة عليه والحضور تحت منبره، وقصدوه من كل بلد ومكان؛ وبلغت عدة تلاميذه ثلاثمائة من مجتهدي الشيعة.

وبلغ الأمر من الاعتناء به والإكبار له ان جعل له خليفة الوقت القائم بأمر اللّه

(١) الأفندي، رياض العلماء: ١ / ٩٩.

كرسي الكلام والافادة، وقد كان لهذا الكرسي يومذاك عظمة وقدر فوق الوصف، إذ لم يسمحوا به إلّا لمن برز في علومه، وتفوق على اقرانه، ولم يكن في بغداد يومذاك من يفوقه قدرا او يفضل عليه علما فكان هو المتعين لذلك الشرف، وبعد أحداث بغداد المؤلمة التي أدت إلى احراق مكتبات الشيعة سنة (٤٤٧ هـ) التي انشأها أبو نصر سابور وزير بهاء الدولة البويهي، وكانت من دور العلم المهمة في بغداد، ولم يكن في الدنيا أحسن كتبا منها، وقد احرقت هذه المكتبة العظيمة فيما احترق من محال الكرخ، وتوسعت الفتنة حتى اتجهت إلى المترجم له وأصحابه فأحرقوا كتبه وكرسيه الذي كان يجلس عليه للكلام.

ولما رأى الشيخ الخطر محدقا به هاجر بنفسه إلى النجف الأشرف لائذا بجوار أمير المؤمنين عليه السلام، وصيّرها مركزا للعلم وجامعة كبرى للشيعة الإمامية، وأخذت تشّد إليها الرحال وتعلق بها الآمال، واصبحت مهبط رجال العلم ومهوى افئدتهم.

لم يبرح شيخ الطائفة (الطوسي) في النجف الأشرف مشغولاً بالتدريس والتأليف، والهداية والإرشاد، مدة اثنتي عشرة سنة، حتى توفي ليلة الاثنين العشرين من محرم سنة (٤٦٠ هـ). عن خمس وسبعين سنة، ودفن في داره بوصية منه. وتحولت الدار بعده مسجدا في موضعه اليوم في النجف الأشرف حسب وصيته أيضا[1].

مكانته العلمية:

أما مكانته العلمية ومقامه الشامخ فهذا مما لا يمكن استيعابه لسعته، وإنما نشير

---

(١) للتوسع: أُنظر أعيان الشيعة: ٩ / ١٥٩ ـ ١٦٧ مصدر سابق، وأعلام الزركلي: ٤ / ٨٤ ـ ٨٥، طبعة دار العلم للملايين وغيرها من كتب التراجم. وللشيخ الطوسي ترجمة مفصلة في مقدمة تفسير التبيان بقلم العلّامة آقا بزرك الطهراني.

إليها من خلال الحديث عن أهم خصائص الاتجاه الوسطي الذي ورثه الشيخ الطوسي من أُستاذيه المفيد والمرتضى.

من خصائص الاتجاه الوسطي وسماته العلمية:

لقد شهد القرن الخامس الهجري تطورا ملموسا في الفقه الاجتهادي، من خلال جهود المفيد والمرتضى اللذين مثّلا اتجاها جديدا في الجمع بين الاتجاه الحديثي الذي مثله الكليني والصدوقان، والاتجاه العقلي الذي مثله القديمان، وأخذ هذا الاتجاه بالتطور بعد ان تبنّاه الشيخ الطوسي وطوره، وضمّنه عناصر القوة والإبداع العلمي.

وقام الشيخ الطوسي بمهمة تطوير هذا الاتجاه الفقهي الذي ورثه عن أُستاذيه المفيد والمرتضى على عدة اصعدة وفي عدة مجالات:

المجال الأوّل: تقنين عملية الإستنباط وتدوين القواعد الأُصولية

من أبرز ميزات هذا الاتجاه ميزة تدوين القواعد الأُصولية والعناصر المشتركة في الاستنباط الفقهي، وبشكل فني وعلمي.

وكانت الأُصول والقواعد العلمية المتبعة في مقام الاستنباط قد تبلورت بالتدريج من خلال عمليات الاستنباط الفقهي المستمر؛ حتى شهدت العقود الأُولى من القرن الرابع الهجري انفصال الأبحاث الأُصولية عن علم الفقه المعهود وقد تمثل ذلك خلال هذه الدورة في بروز كتابين مهمّين:

الأول: التذكرة باصول الفقه للشيخ المفيد (٤١٣ هـ). وقد أورد مختصره الكراجكي في كنز الفوائد.

الثاني: الذريعة إلى أُصول الشريعة للسيد المرتضى (٤٣٦ هـ).

وهنالك بعض الكتب الأُصولية التي ذكرت في تراجم اعلام هذه الدورة ولكنها لم تصلنا منها:

١ ـ كتاب (كشف التمويه والالتباس على اغمار الشيعة في أمر القياس) لابن الجنيد الاسكافي.

٢ ـ كتاب في القياس للشيخ المفيد[1].

استمرارا على هذا الخطّ الذي بدأه المفيد ثمّ طوره المرتضى في مجال فصل علم أُصول الفقه عن الفقه، واستقلاله بالبحث والتدوين، فقد دون الشيخ الطوسي كتاب «عدة الأُصول» الذي فاق الكتب الأُصولية السابقة عليه، والذي يعدّ من الخطوات العلمية المهمة في مجال الاستنباط الفقهي.

وأصبح هذا الكتاب ـ منذ تأليفه ـ محورا للتدريس إلى قرون متأخرة، وكتبت عليه الشروح والتعليقات الكثيرة، وذلك لأهمية الكتاب حيث افاض فيه القول في تنقيح مباني الفقه بما لا مزيد عليه في عصره.

وتعتبر كتب: التذكرة في أُصول الفقه، والذريعة لأحكام الشريعة، والعدة في أُصول الفقه، للمفيد والمرتضى والطوسي، من أوائل المدوّنات الأُصولية التي وصلتنا، ولا نستبعد أن يكون للقديمين العماني وابن الجنيد مؤلفات في أُصول الفقه إلّا أنها لم تصلنا، وإلّا كيف يمكن أن نتصور ما ينقل لنا من تفريعاتهم الفقهية الواسعة؛ أو ما ينسب إليهم من عملهم بالرأي أو القياس، ان لم تكن لديهما مباني أُصولية ومنهج أُصولي مدون؟!

---

(١) الخوانساري محمد باقر الموسوي، روضات الجنات: ٦ / ١٥٤، (مصدر سابق).

المجال الثاني: تبنّي حجّية أخبار الآحاد:

لقد كان مبنى الشيخ المفيد والسيّد المرتضى[1] وغيرهما من اعلام هذه المرحلة هو ادانة العمل بأخبار الآحاد، ومن الواضح ان اغلب الادلة واكثرها تداولاً بين الفقهاء هي الروايات الحاكية عن السنة، والأغلب الاعم من هذه الروايات هي أخبار آحاد، فالالتزام بهذا المبنى يعني عدم الأخذ وطرح هذه الكثرة من الروايات، مما يؤدي إلى محدودية الاجتهاد والاستنباط الفقهي في دائرة الروايات المتواترة أو المحفوفة بقرائن عالية يمكن الاخذ بها، وهي قليلة جدا ولا تفي وحدها بالأغراض الفقهية.

وخلافا لما كان عليه مبنى المفيد والمرتضى من قبل، حيث انكرا حجية أخبار الآحاد واتجها إلى الإجماع والعقل، نلاحظ ان الشيخ الطوسي قد تبنّى العمل بأخبار الآحاد على أساس علمي.

والعمل باخبار الآحاد تتقوم بدراسة هذه الأخبار والأحاديث دراسة علمية معمقة من حيث السند والدلالة معا. وتعتمد عملية تقويم السَند على ادوات التقويم المتمثلة في مصادر التوثيق الرجالية.

وقد وفق الشيخ الطوسي لتوفير هذه الأدوات، وتقنين عملية التقويم وتطبيقها، فكانت له عدة أعمال موسوعيّة حديثية ورجاليّة تمثلت في تدوين موسوعتين فقهيّتين حديثيتين هما: التهذيب والاستبصار ـ وسيأتي الحديث عنهما ـ ومجموعة كتب رجالية هي: (معرفة الرجال) المعروف (برجال الكشي)، وكتاب (الرجال) المعروف (برجال الشيخ الطوسي). و (الفهرست)؛ إلى جانب فهرست الشيخ النجاشي

---

(١) أُنظر: المسائل التبانيات، والمسائل الرسية، ورسالة في ابطال العمل بخبر الواحد وكذلك الذريعة: ٢ / ٥١٧ للسيّد المرتضى.

المعاصر للشيخ الطوسي والذي ساهم بدورهِ في توفير المادة اللازمة لغرض إكمال عملية التوثيق الرجالي الذي يهم الفقيه الذي يتبنى حجية أخبار الآحاد ويشيد فقهه على أساسها[1].

المجال الثالث: تطبيق منهج الاستنباط الفقهي

لقد سبقت الشيخ الطوسي محاولات محدودة في مجال تطبيق منهج الاستنباط الفقهي، إلّا أنّ الشيخ الطوسي قد رسخ هذا المنهج بشكل عملي، فلم يكتفِ بتدوين القواعد الأُصولية، وتوفير أدوات الاستنباط الأُخرى اللازمة لتقنين عملية الاستنباط، وإنما سعى وبذل جهودا كبيرة لتطبيق المنهج الاستنباطي على أُسس علمية دقيقة، لأن توفير ادوات الاستنباط ـ وحدها ـ لا تكفي للاستنباط الفقهي، بل لابد من التطبيق العملي لمنهج الاستنباط ايضا.

وهذا ما قام به الشيخ الطوسي في ـ كتاب تهذيب الأحكام ـ حين قرّر شرح كتاب ـ المقنعة ـ للشيخ المفيد، شرحا استدلاليا ينحو باتجاه إثبات الآراء الفقهية الواردة في المقنعة او اثبات آرائه الفقهية، لذا فتهذيب الأحكام ليس كتابا حديثيا محضا وإنما هو كتاب جامع بينهما.

أما مشكلة الأخبار المتعارضة فقد عالجها الشيخ الطوسي في كتاب الاستبصار.

وبهذا وفّر الشيخ الطوسي للفقيه كلّ ادوات الممارسة الفقهية الاجتهادية نظريةً وتطبيقا، وهذه خطوة كبيرة وعملاقة في مجال الفقه الاجتهادي، خرج من خلالها الفقه الشيعي عن حدود استعراض السنة ونقل الحديث إلى المجال الأوسع والأعمق.

---

(١) تطور الاجتهاد ـ مجلة فقه أهل البيت: ١٣ / ١٨٠ بتصرف. وللاطلاع على منهج الشيخ الطوسي، أُنظر كتاب عدة الأُصول، الباب الثاني، فصل: في ذكر الخبر الواحد: ١٧٤.

المجال الرابع: التوسّع في بيان المسائل الفرعية الفقهية

لقد قام القديمان العماني والاسكافي بجهود علمية جادة في مجال توسعة عملية الاستنباط وتفريع الفروع، وللمفيد والمرتضى بعض المحاولات في هذا المجال؛ كذلك للشيخ الطوسي انجازات كبيرة في مجال توسعة مجال الاستنباط الفقهي المبتني على القواعد العامة للاستنباط، واستخدام القواعد المشتركة في عملية الاستنباط الفقهي، وتفريع الفروع على الأُصول.

لقد لاحظ الشيخ الطوسي، الآثار العلمية التي دونت في الفترة التي سبقته؛ والتي وصفها علماء السنة بقلة التفريع والجمود على ظواهر الروايات، وقلة استخدام العناصر المشتركة في الاستنباط، وبالتالي محدودية الفروع الفقهية لدى مدرسة الشيعة الفقهية، مما جعل علماء المذاهب الأُخرى يستحقرون فقه الامامية ـ ويستزرونه ـ حسب تعبير الشيخ﵀.

يقول الشيخ الطوسي في مقدمته لكتابه الفقهي ـ المبسوط ـ:

«... لا أزال اسمع معاشر مخالفينا من المتفقّهة والمنتسبين إلى علم الفروع، يستحقرون فقه أصحابنا الإمامية ـ ويستزرونه ـ وينسبونهم إلى قلة الفروع وقلة المسائل، ويقولون: إنهم أهل حشو ومناقضة، وان من ينفي القياس والاجتهاد لا طريق له إلى كثير من المسائل، ولا التفريع على الأُصول، لأن جلّ ذلك وجوهره مأخوذ من هذين الأصلين»[1].

ثم يشير الشيخ إلى نقطة مهمة وهي: «ان من ينسب إلى فقه الشيعة قلة الفروع وبالتالي محدودية الاستنباط الفقهي ناظر إلى الواقع الخارجي، والآثار الفقهية لعلماء

---

(١) الشيخ الطوسي ـ المبسوط في فقه الامامية: ١ / ١ ـ ٢، طبعة المرتضوية.

مذهب الامامية في ذلك الزمان، فإن صح هذا النقد من هذه الجهة، ـ وهو نقد صحيح كما يعترف بذلك الشيخ لاحقا ـ فهو لا يصح بالنسبة للأُصول الموجودة في متون الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام.

وعبارة الشيخ في المبسوط ـ بعد العبارة السابقة ـ واضحة الدلالة يقول:

«... وهذا جهل منهم بمذاهبنا، وقلة تأمل لأُصولنا، ولو نظروا في أخبارنا وفقهنا لعلموا أنّ جلّ ما ذكروه من المسائل موجود في أخبارنا، ومنصوص عليه تلويحا عن أئمتنا، الذين قولهم الحجة يجري مجرى قول النبي صلى الله عليه وآله إما خصوصا أو عموما أو تصريحا أو تلويحا»[١].

فالشيخ الطوسي اوّل من عالج الفقه الاستدلالي مشروحا ومبسّطا في كتابه القيم ـ المبسوط ـ وهي حركة راشدة استطاع من خلالها ان يحقق هدفين مهمّين في آن واحد:

أحدهما: اثبات قدرة الفقه الشيعي على مسايرة الزمن، بالرغم من تحفظه بالنسبة إلى اجتهاد الرأي (القياس والاستحسان) وذلك لإمكان الافتاء على اساس الاجتهاد المتحفظ (الاجتهاد في اطار النص) لا اجتهاد الرأي أو الاجتهاد في مقابل النص.

وثانيهما: اثبات ان الفقه الشيعي بالرغم من اصراره وثباته على اجتهاد النصّ، وتحفظه من ادخال عناصر استحسانية عقلية ظنية إلى مجال الاستنباط، فإنه يستطيع ان يسبق الفقه الآخر هذا المضمار، فالفقه الشيعي فقه ريادي... لم ينحرف عن أُصوله العلمية التي تبنّاها وشيد أسسها الأئمة الأطهار خلال ثلاثة قرون من الممارسة الفقهية

---

(١) الشيخ الطوسي ـ المبسوط في فقه الامامية: ١ / ٢.

الدائبة تحت إشرافهم وتوجيههم المباشر[1].

فالشيخ الطوسي قد وظف الأحاديث المروية عن الأئمةعليهم السلام والتي تتضمن الأُصول الهامة للأحكام، وقام بتفريع الفروع على تلك الأُصول.

وقد اقرّ الشيخ الطوسي في مقدمة المبسوط بان الاتجاه السائد عند فقهاء الإمامية إنهم لم يكونوا يفرعون الفروع على الأُصول إلى زمانه، وكانوا يقفون عند النصوص التي وصلت إليهم من المحدِّثين.

يقول: «... وكنت على قديم الوقت وحديثه متشوق النفس إلى عمل كتاب يشتمل على ذلك ـ التفريع على الأُصول ـ تتوق نفسي إليه، فيقطعني عن ذلك القواطع... ويضعف بنيتي أيضا قلة رغبة هذه الطائفة فيه، وترك عنايتهم به لأنهم الفوا الأخبار وما رووه من صريح الألفاظ؛ حتى ان المسئلة لو غيّر لفظها وعبّر عن معناها بغير اللفظ المعتاد لهم تعجبوا منها وقصر فهمهم عنها...».

ثم يقول: «... وهذا الكتاب ـ المبسوط ـ إذا سهل اللّه تعالى إتمامه يكون كتابا لا نظير له لا في كتب أصحابنا ولا في كتب المخالفين، لأني إلى الآن ما عرفت لأحدٍ من الفقهاء كتابا واحدا يشتمل على الأُصول والفروع مستوفيا مذهبنا، بل كتبهم وإن كانت كثيرة يشتمل عليها كتاب واحد. وأما أصحابنا فليس لهم في هذا المعنى ما يشار إليه بل لهم مختصرات...»[2].

هذا الانجاز العلمي الضخم ـ للشيخرحمه الله ـ فتح آفاقا رحبة للعلماء من بعده حيث اجتاز الفقه الاجتهادي الشيعي منعطفات خطيرة في مسيرته التكاملية، ووصل إلى

---

(١) مجلة فقه اهل البيت، مراحل تطور الاجتهاد: ١٣ / ١٨٢، بتصرف واختصار.

(٢) المبسوط ـ المقدمة: ٢، مصدر سابق.

مراحله الواسعة في الأبحاث الاجتهادية الاستنباطية، وأصبح بإمكانه الإجابة على المسائل الجديدة، والفروع المستحدثة فاتحا بذلك عصرا تكامليا جديدا.

ولا يمكن أن نغمط حقَّ الذين سبقوا الشيخ من أعلام الطائفة، إذ إن حركة الشيخ الطوسي حركة تكاملية واسعة وفي طول وامتداد تلك الخطوات العلمية التي سبقته من خلال فقهاء مدرسة أهل البيت: العماني، وابن الجنيد، والمفيد، والمرتضى، وسلار...

المجال الخامس: تطوير وتدوين الفقه المقارن الموسوعي

علم الخلاف والفقه المقارن من العلوم الجليلة، العظيمة الشأن، الكثيرة الفائدة.

فالفقه المقارن: هو جمع آراء المجتهدين في شتى المسائل الفقهية على صعيد واحد من دون اجراء موازنة بينهما.

واما الخلاف: فهو جمع الآراء الفقهية المختلفة وتقييمها والموازنة بينها بالتماس أدلتها وترجيح بعضها على بعض[1].

أو إنّه «علم يُعرَف به كيفية ايراد الحجج الشرعية ودفع الشبهة وقوادح الأدلة الخلافية بايراد البراهين القطعية»[2].

والفقه المقارن عند الشيعة الامامية قد بدأ به كلّ من الشيخ المفيد، والسيّد المرتضى، وتشير بعض آثارهما الفقهية إلى وجود تطوّر ملحوظ في الطرح، وتوسع في مقدار حجم البحوث المقارنة من المفيد إلى عصر السيّد المرتضى.

ولكنّ الفقه المقارن الموسوعي والمستوعب لكلّ ابواب الفقه، وبشكل موسّع في

---

(١) محمد تقي الحكيم ـ الأُصول العامة للفقه المقارن: ١٣.

(٢) حاجي خليفه مصطفى بن عبد اللّه الشهير بـ (كاتب چلبي)، كشف الظنون: ١ / ٧٢١، مادة (علم الخلاف)، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، (بلا ـ ت).

كل باب، هو الذي قام به الشيخ الطوسي في كتابه القيم «الخلاف في الأحكام» أو «مسائل الخلاف» وهو كتاب فقهي مقارن بين المذاهب الاسلامية،عني بذكر المسائل الفقهية مع النظر بعين الاعتبار لموارد الاختلاف بين أصحاب الحديث والرأي من فقهاء العامة.

ومن خلال تدوين الفقه المقارن برز الفقه الامامي والابحاث الاستنباطية بصورة جلية واضحة، واجيب عن كثير من الشبهات المثارة من قبل علماء العامّة حيث كان الفقه الامامي مورد نقد وتقريع من قبل هؤلاء العلماء.

وربما كان (الخلاف) أول كتاب خلافي عند الامامية[1]. أو ربما يكون الشيخ الطوسي قد اعتمد على كتاب الخلاف (أو مسائل الخلاف في الفقه) لأُستاذه السيّد المرتضى والذي لم يصلنا، ولكن السيّد في كتاب الناصريات ـ الذي بدوره يعتبر من كتب الفقه المقارن لأنه يحوي المسائل الخلافية بين الإمامية والزيدية بالاضافة إلى الخلافات الفقهية على مستوى المذاهب ـ كثيرا ما يحول على كتابه «مسائل الخلاف»[2].

وهذا الجهد المبارك الذي بذله الشيخ الطوسي‌ﷺ كان ضمن محاولاته وجهوده الكبيرة لاثبات الريادة للفقه الشيعي على فقه سائر المذاهب الأُخرى، فإلى جانب جهوده السابقة في التوسع والبسط والتفريع في المسائل الفقهية الاستدلالية، لابد له من أن يقوم بعملية المقارنة بين الفقه الامامي وسائر المدارس الفقهية الأُخرى، وهذا هو الذي انتهى به إلى ان يكتب «الخلاف» وهو كتاب موسّع يعتمد المقارنة، وهو

---

(١) الفضلي الشيخ عبد الهادي، تاريخ التشريع الاسلامي: ٢٨٧.

(٢) للتوسع انظر: الناصريات، المسائل: ٥، ١٣، ٢٥، ٣٢، ٣٥.

يشير في آن واحد إلى خصائص الفقه الشيعي مقارنا مع الفقه غير الشيعي بشتى مذاهبه، كما يشير إلى مدى عظمة الفقه الشيعي وقدرته على مسايرة الزمن؛ بالرغم من تحفّظه تجاه استخدام العقل في مجال الاستنباط[1].

المجال السادس: الاهتمام بالدراسات القرآنية

لقد كان لعلماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام اهتمام واسع بعلوم اللغة وآدابها باعتبارهما لغة القرآن والحديث، ونجد الاهتمام بالقرآن وعلومه في مؤلفات السيّد المرتضى علم الهدى، والشيخ الطوسي هو الوريث لعلوم أُستاذه المرتضى ولهذا نجد الاهتمام بالدراسات القرآنية والافادة منها في المجال الفقهي في مؤلفاته، وذلك باعتبار ان موضوع الاجتهاد هو الأدلة الشرعية التي تضمنت الأدلة التفصيلية للأحكام الشرعية الفقهية، ومن اهم هذه الأدلة هو «الكتاب» إلى جانب الأدلة الأُخرى.

فقد اشتمل القرآن الكريم على آيات تضمنت القواعد العامة في التشريع، وبيان كليات الأحكام الشرعية، فلابد للفقيه من اعتماده، في عملية الاستنباط الفقهي كمصدر اساسي.

وكتاب الشيخ الطوسي التفسيري ـ التبيان ـ من اروع واغنى الكتب التفسيرية، ويعكس مدى الاهتمام البالغ من قبل الشيخ في الجانب القرآني، وهو بلا شك عمل علمي كبير؛ وسم الفقه الشيعي بالطابع القرآني.

وتفسير ـ التبيان ـ وان لم يكن يختص بآيات الأحكام الشرعية وانما هو تفسير شامل لما بين الدفتين، إلّا ان جهود الشيخ الريادية قد أثمرت في ان يحظى الفقه الشيعي بكتاب راشد في فقه القرآن خاصة، وهو ما كتبه قطب الدين الراوندي

---

(١) تطور الاجتهاد: ١٣ / ١٨٣.

(ت ٥٧٣ هـ) بعد قرن من محاولة الشيخ القرآنية.

هذه أهم المنجزات العلمية للاتجاه الوسطي الذي ورثه الشيخ الطوسيﷺ في مجال تطوير الفقه الاستدلالي الاجتهادي.

وللشيخ الطوسيﷺ جهود كبيرة في المجالات العلمية الأُخرى لا تقل اهمية عن مجال الفقه واستنباط الأحكام.

وكان فقه شيخ الطائفة ـ بما فيه من تطوّر ملحوظ ودقّة متناهية وتطوّر في اساليب الاستنباط ـ حاكما على الأوساط العلمية الشيعية لقرون متمادية، ومسيطرا على الفكر الامامي قاطبة.

وبقي علماء الشيعة مدة طويلة لا يتعدّون في منهجهم عن نقل اقوال الشيخ او شرحها، فلذلك سمّوا بالمقلدة لانهم كانوا لا يتعدّون تقليد الشيخ. وسوف يأتينا تفصيل ذلك لاحقا.

المنهج الاستنباطي للشيخ الطوسي في ميزان النقد:

تشكل الأدلة وكيفية التعامل معها ضمن المباني الأُصولية التي يتبناها الفقيه، منهجا علميا يتوقف عليه صحة الاستنباطات وسلامة الفتاوى التي يستنبطها الفقيه.

وكلُّ فقيه يريد أن يمارس الاجتهاد والاستدلال لابد له من مباني ومناهج تشكل منظومة متكاملة في التعامل مع الأدلة.

وتختلف هذه المباني والمناهج من فقيه إلى آخر سعة أو ضيقا، وعلى ضوء ذلك تختلف فتاوى الفقهاء، وهذا من الأُمور الواضحة لمن يمارس الاستنباط والاستدلال الفقهي.

وتتضح معالم المنهج الاجتهادي لكل مجتهد من خلال كتبه الأُصولية بالدرجة

الأُولى، لأنه من خلالها يرسم لنا الخارطة التي يسير عليها في استدلاله واستنباطه، ومن خلال كتبه الفقهية الاستدلالية، يتضح مدى تطبيقه لمبانيه الأُصولية وعدم خروجه عنها.

والشيخ الطوسي كغيره من الفقهاء الذين سبقوه كالصدوقين، والقديمين، والمفيد والمرتضى، رسم لنفسه منهجا متكاملاً شاملاً في الاستدلال، أوسع وأشمل وأكثر تكاملاً من مناهج من سبقه من الفقهاء؛ فبين لنا مبانيه ومناهجه في الأُصول والرجال، والحديث وظواهر الأدلة والنصوص الشرعية... ودوَّن لكل واحد منها كتابا أو أكثر من كتاب، وحاول أن يطبق هذا المنهج في كتبه الفقهية الاستدلالية موضحا ذلك المنهج في بعض مقدمات كتبه الاستدلالية[1].

وتبقى العصمة للّه ولمن ارتضاه سبحانه لذلك، فمادام الفكر الشيعي يأخذ بمبدأ «التخطئة» في الاجتهاد، ومادام عمل المجتهد لا يخرج عن كونه جهدا بشريا إلّا أنه يستند إلى الأدلة والبراهين، فمن الطبيعي ان يُخطأ مجتهدٌ مُجتهدا آخرَ في استنباطاته الفقهية ومبانيه الاستدلالية، ولا يرتضي نتائج ما توصل إليه من استنتاجات وفتاوى.

ولا يشذ عن هذا فقيه حتى لو كان بمنزلة وعظمة شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي رغم مكانته العلمية، وجلالة قدرة، وهيبته في نفوس من خلفه من الفقهاء.

لقد سلم منهج الشيخ الطوسي من اشكالات وانتقادات معاصريه، ومن خلفه من الفقهاء وإلى ما يقارب القرن من الزمن، إلّا أن ذلك لم يدم فجاء من فتح باب النقد على مصراعيه وسجل جملة من النقود على منهجه والتي يمكن تلخيصها بما يلي:

---

(١) أُنظر: مقدمة الشيخ الطوسي في كتاب الخلاف: ١ / ٤٥ ـ ٤٦، طبعة جامعة المدرسين ـ قم، ومقدمة لكتاب المبسوط: ١ / ١ ـ ٣، طبعة المكتبة الرضوية.

أولاً: كثرة الاعتماد على الاجماعات:

ومن الظواهر الملفتة للنظر في اتجاه المفيد وتلامذته كثرة الاهتمام والتمسك بالاجماعات، وقلما تجد حكما شرعيا لا يستدل عليه بالاجماع.

بل نجد السيّد المرتضى في كتابه الناصريات ربما يستدل باجماع أهل البيت بدل اجماع الإمامية، فيقول في مسألة عدم جواز إمامة الفاسق: «هذا صحيح وعليه اجماع أهل البيت كلّهم على اختلافهم، وهذه من المسائل المعدودة التي يتفق أهل البيت عليهم السلام كلّهم على اختلافهم عليها». وفي مسألة التكبير على الجنازة خمس تكبيرات، قال: «دليلنا على صحة ما ذهبنا إليه الاجماع المتردد ذكره، بل اجماع أهل البيت كلّهم». ويبدو منه أنّ اجماع اهل البيت عنده شيء وراء اجماع الإمامية. و «اجماع أهل البيت» تعبير شايع عند الزيدية، ولعلّ السيّد تأثر بهم، أو قاله مسايرة لهم[1].

ومن الواضح أن الاجماع انما يكون حجة وكاشفا عن السنة ووسيلة لاثباتها حين يصلح لذلك، لأن الاجماع عند الامامية ليس حجة مستقلة بنفسهِ في مقابل الكتاب والسنة، بل حجيته بما هو حاك عن رأي المعصوم في المسألة التي قام عليها وبدون ذلك لا حجية له.

والذي يبدو أن الشيخ الطوسي قد تأثر بمنهج أُستاذه في تعامله مع الاجماع، فنجد ظاهرة اعتماد الشيخ الطوسي على الاجماعات كثيرة، ومن أبرز الظواهر الشاخصة في كتبه الفقهية الاستدلالية وخاصة في المبسوط والخلاف.

---

(١) كتاب الناصريات، المسألة: ٩٨ والمسألة ١١٤، وانظر مقدمة الشيخ واعظ زاده على كتاب الناصريات: ٤٢، طبعة المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب.

فقد كان الشيخ﵀ يلجأ إلى الاجماعات عند اعواز النصوص وعدم وجود الدليل معتقدا ان اجماع الطائفة يوحي بوجود قول في الأمر.

وهذا المنهج الذي اعتمده الشيخ الطوسي في تعامله مع الاجماع كدليل يمكن الركون إليه في الاستدلال والاستنباط الفقهي، ما هو إلّا امتداد لمنهج استاذيه المفيد والمرتضى، ولكن الشيخ ومن جاء من بعده من الفقهاء قد توسعوا فيه إلى درجة «إن بعض علماء الشيعة يعمل بالاجماع الذي ينقله «مالك» عن اهل المدينة في «موطأه»! لكشفه عن رأي المعصوم عنده»[1].

ومن الواضح ان قيمة الاجماع كدليل اجتهادي عند الشيعة الإمامية تكمن في احراز كون المعصوم﵇ ضمن المجمعين، وان يكون الاجماع اجماعا محصلاً، ومن دون احراز ذلك، وكون الاجماع «مدركي» فلا قيمة له كدليل يمكن الاستناد إليه في مجال الاستنباط الفقهي.

ثانيا: محاكاة الفقه التفريعي السنّي:

رغم ان الشيخ الطوسي﵀ قد بذل جهودا كبيرة من اجل اثبات ريادة الفقه الشيعي ومقدرته على مسايرة الزمن، من دون الاخلال والانحراف عن أُصوله العلمية التي تبنّاها وشيّد أسسها الأئمة الأطهار﵈.

إلّا ان هذه المحاولة الرائدة ـ باعتبار أنها كانت تحاكي الفقه التفريعي السّني وتحاول الاستباق معه ـ لم تسلم من دخول عنصر التقليد والمحاكاة في بعض الأحيان، وانطباع الفقه التفريعي الشيعي بطابع ومسحة من الفقه السّني، حتى ان بعض كبار فقهاء الامامية يعتقد بأن الفقه الشيعي ناظر في انجازاته العلمية إلى الفقه

---

(١) مقدمة جامع المقاصد: ١ / ١٧.

السّني، ولا يمكن تحقق فهم الفقه الشيعي بشكل تام إلّا لمن يفهم الفقه السني بشكل تام[1].

ولعل من أسباب بروز عنصر التقليد والمحاكاة في الفقه الشيعي للفقه السنّي:

«إنّ الفقه السنّي كان الفقه المتبنى من الدولة، وكان الفقه الحاكم على الساحة، ولم يسع فقهاء الشيعة إلّا أن يأخذوا هذا الفقه بنظر الاعتبار؛ مع اتخاذ المواقف الفقهية المنسجمة مع الأُصول والمباني الفقهية الإمامية في الوسط الذي يعيشون فيه، فان التعايش كان واقعا مفروضا عليهم، والفقه السني الذي كان يسايره فقهاء الشيعة إما للدفاع، أو لاكتساب مقام الريادة، تقتضي وجود موارد الشبه والاشتراك والتقدم كي يمكن تحقق المباراة والاستباق والاقتناع بالتقدم والأفضلية»[2].

وكانت فترة الانتقال هذه من جو المحاكاة إلى جو الاستقلال قد طالت قرنين على الأقل إذ نرى في كتابات المحقق الحلي ومن تلاه تطورا وتميزا على كتابات الشيخ الطوسي من هذه الجهة.

هذان الاشكالان النقديان هما من أهم ما يمكن تسجيله على منهج الشيخ الطوسي، وهنالك اشكالات أُخرى سجلها ابن ادريس الحلّي في كتابه يمكن الاطلاع عليها هناك[3].

---

(١) ينسب هذا القول إلى السيّد البروجردي ت ١٣٨٠ هـ من أعلام الحوزة العلمية الاماميّة ومن روّادها البارزين. وهذا السيّد الجليل هو الذي أمر بطبع ونشر كتاب «الخلاف» للشيخ الطوسي، أيام مرجعيته، وللتوسع: انظر ندوة حوار مع الشيخ لطف اللّه الصافي أحد تلامذة السيّد: كتاب الحياة الطيّبة: ٢ / ١٣٣.

(٢) مجلة فقه اهل البيت، مراحل تطور الاجتهاد: ١٣ / ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٣) للتوسع أُنظر: كتاب السرائر الحاوي لابن ادريس الحلي: ١ / ٤٢٦ و ١ / ٤٥٢ و ٣ / ٨٤ وغيرها.

إلّا أنّ الإشكال الثاني يمكن دفعه بأن التقليد والمحكاة للفقه السنّي في ذلك الوقت لم تكن فيه غضاضة بعد الاعتراف بأسبقية هذا الفقه في التفريع وكونه الفقه الحاكم على الساحة.

فما قام به الشيخ الطوسي خطوة جيدة لأنه اتباع لمنهج جديد ومدروس ومجرب، ولا ضير في الاستفادة والمحاكاة في هذا المجال مع الحفاظ على الأُصول والمباني العلمية ومن دون الاخلال بها، وهذا هو عين ما قام به الشيخ الطوسي، فلم يسجل عليه انه قد أخل أو انحرف عن الأُصول والمباني العلمية التي شيّدها الأئمةعليهم السلام.

ثالثا: تحديد مجال الاستفادة من العقل في استنباط الاحكام:

الملاحظ في عمليات الاستنباط للاحكام الشرعية في الفقه الإمامي ـ وخاصة في منهج الرعيل الأول من علماء القرنين الرابع والخامس باتجاهاتها المتعددة ـ اجتناب التوغّل او التوسع في الاعتماد على العقل والدليل العقلي، وعدم فسح المجال لتدخّل العقل في التشريع او ما يستتبع التشريع من عمليات استظهار النصوص وتوظيفها للوصول إلى احكام القضايا المستجدة، اذ تتحفّظ في استخدام العقل تحفظا يحول دون التدّخل في التشريع[1].

ولعل منشأ هذا التحفظ من الدليل العقلي هو الانسياق التام وراء هذا الدليل من قبل فقهاء المذاهب الأُخرى واعتمادهم على الدليل العقلي الظني من قبيل القياس والاستحسان... او لعل المنشأ هو وجود بعض الروايات التي ظاهرها النهي عن الانسياق وراء العقل والملازمات العقلية من قبيل: ان دين اللّه لا يصاب بالعقول... وأمثالها.

---

(١) مجلة فقه أهل البيت، مراحل تطور الاجتهاد: ١٣ ـ ١٨٢.

إلّا أن هذا التحديد والتضييق في توظيف الدليل العقلي من خلال عمليات الاستنباط قد أضرت كثيرا بالفقه الاجتهادي وحدَّت من إنطلاقه، ولهذا لم تدم طويلاً، فقد اعتمد بعض اعلام الرعيل الثاني والثالث من علماء هذه المرحلة على الدليل العقلي بعد ان حدد مجال الاستفادة من العقل بشكل علمي دقيق.

المبحث الرابع: تقويم عام لمدرسة بغداد منذ تأسيسها إلى هجرة الشيخ الطوسي منها

لقد كان لمدرسة بغداد وحوزتها العلمية والذي امتدت لثلاثة قرون من عمر الزمن، معطيات كثيرة تناسبت مع عمرها العلمي الطويل، ومع أجيال العلماء والفقهاء والحكماء والأُدباء والشعراء والمتصوفة وأرباب المذاهب.. الذين عاصروها جيلاً بعد جيل.

ومن خلال دراستنا لهذه الحوزة المباركة وان لم نستطع أن نواكب تفاصيل حركتها العلمية، إلّا أنّنا يمكن أن نستخلص بعض المعطيات المهمة من هذه الدراسة، والتي تعتبر بمثابة الخلاصة الوافية لما دونّاه حول هذه الحوزة المباركة والمدرسة العلمية المؤسِّسَة.

أولاً: تأسست مدينة بغداد في أواسط القرن الثاني الهجري، وانتقلت إليها الحركة العلمية لمدرسة أهل البيت عليهم السلام من روافد مدرسة الكوفة وقم وبلاد الري.

ثانياً: لقد تزامن حضور الأُسر العلمية الشيعية في بغداد مع بدايات تأسيسها ومن هذه الأُسر، آل نوبخت، وآل يقطين.. وكان لرجالات هذه الأُسر دور كبير في التأسيس لمدرسة أهل البيت عليهم السلام.

ثالثا: كان لبعض أئمة أهل البيت المعصومين عليهم السلام حضور في بغداد، فالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قد مرّ ببغداد قبل تأسيسها وله فيها مقام معروف مشهور إلى يومنا هذا في مسجد براثا، وكان هذا المقام ولا يزال محل احترام وتقديس العامة والخاصة. كما أنّ الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام عاش فترة من حياته في بغداد وقضى شهيدا

فيها في عصر الرشيد العباسي، كذلك مرّ ببغداد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ـ كما في بعض الروايات ـ وسكنها الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام، وقضى فيها ودفن بجوار جدّه عليهما السلام، كما أن الإمامين العسكريين علي بن محمد الهادي، والحسن بن علي العسكري عليهما السلام قد مرا ببغداد بعد أن استقدما من المدينة إلى سامراء.

وقد تحدثنا فيما سبق عن العطاء العلمي لأئمة أهل البيت عليهم السلام والمجالس العلمية التي حضرها الإمام الجواد عليه السلام وما جرى فيها.

رابعا: لقد ظهرت في بغداد تيارات فكرية متعددة، وشهدت نشأة المذاهب الفقهية والكلامية، بالاضافة إلى مدرسة الرواة والمحدثين؛ وكان لعلماء الشيعة حضور فاعل ومؤثر في كل هذه الميادين.

خامسا: استطاعت مدرسة أهل البيت عليهم السلام في بغداد ومن خلال النابهين من علمائها ومتكلميها أن تمتد زمنيا لتشمل فترة حضور بعض الأئمة عليهم السلام، وبعدها فترة الغيبة الصغرى، ثمّ الفترة التي امتدت من نهاية الغيبة الصغرى وإلى هجرة الشيخ محمد بن الحسن الطوسي سنة (٤٤٨ هـ) إلى النجف.

سادسا: لقد كان لكل مرحلة من المراحل التي مرت بها مدرسة أهل البيت في بغداد رجال أفذاذ من علماء أهل البيت عليهم السلام، فهنالك هشام بن الحكم والمدرسة الكلامية التي شيدها وامتدت من خلال تلامذته، وهنالك مدرسة الحديث التي خاض لجة بحرها شيخنا الكليني والصدوقان، وهنالك مدرسة القديمين التي شيدها ابن أبي عقيل العماني، وابن الجنيد الاسكافي، ثمّ تتوجت هذه المدرسة المباركة بجهود العلم الفذ، وشيخ مشايخ الشيعة في زمانه الشيخ محمد بن محمد ابن النعمان المعروف بالمفيد، وبابن المعلم، وامتدت من خلال تلامذته السيّد المرتضى، علم الهدى، والشيخ محمد بن الحسن الطوسي، وغيرهم.

سابعا: لقد ظهرت خلال هذه المراحل من سني عمر حوزة بغداد ومدرستها العلمية، تيارات فكرية منحرفة في داخل الوسط الشيعي، وحمل بوادر انحرافها بعض رجالات العلم، من أمثال الحسين الحلاج، والشلمغاني، ومن قبلهما تيار الوقف والواقفة، وقد تصدى علماء أهل البيت وخاصة النواب الأربعة لهذه التيارات، وتم التعامل معها بحكمة بالغة حتى اضمحلت وانتهت.

ثامنا: شهدت مدرسة بغداد توسعا وعمقا في كثير من العلوم والمعارف الإسلامية.

ففي علم الحديث: ظهرت لدينا مؤلفات موسوعية استندت إلى الأُصول التي توارثتها هذه المدرسة والتي تعرف بـ (الأُصول الأربعمائة) فدونت خلال هذه الحقبة الزمنية المباركة الكتب الأربعة للمحمدين الثلاثة.

وفي علم الفقه: ظهرت لدينا كتب فقهية قيمة، منها كتب استدلالية موسعة فُقد بعضها مع تقادم الزمن، ووصل إلينا بعضها الآخر، كالمقنعة للشيخ المفيد والانتصار والناصريات للسيّد المرتضى، بالاضافة إلى النهاية والخلاف للشيخ الطوسي.

وفي علم أُصول الفقه: الذي كانت جذوره وأُسسه موجودة في كلمات الإمام الصادق عليه السلام وتناقلها بعض تلامذته، إلّا أنّ أول مُدوَّن أُصولي وصلنا مختصرا هو كتاب: التذكرة في أُصول الفقه للشيخ المفيد، ثمّ كتاب الذريعة للسيّد المرتضى، ثمّ توج هذا العلم بكتاب العدّة في علم الأُصول للشيخ الطوسي. وهذه الكتب الأُصولية الثلاثة من نتاج هذه المرحلة.

وفي علم الكلام: ظهرت لدينا نظريات كلامية حمل لواءها هشام بن الحكم، ويونس بن عبد الرحمن، وتلامذتهما، وامتدت من خلال النوبختيين، وتجذرت وتوسعت بواسطة الشيخ المفيد وتلامذته.

وفي التفسير وعلوم القرآن: نجد اولياته عند علمائنا الأوائل وحملت فهارس كتبهم

بعض العناوين المتعلقة بالقرآن وعلومه وتفسيره، وتتوج ذلك عند السيّد المرتضى في اماليه وغرره، وكان قمة العطاء في تفسير التبيان للشيخ الطوسي، والذي يعتبر من الموسوعات العلمية والمرجع الوافي لعلوم القرآن وتفسيره.

وفي علم التراجم والرجال: ظهرت في هذه الفترة أُمهات الكتب الرجالية والتي تعتبر المصدر الأساسي لهذا العلم، كرجال الكشي، ورجال النجاشي، ورجال الشيخ الطوسي وفهرسته.

وإلى جانب هذه العلوم والمعارف، ظهرت لدينا علوم أُخرى وكان لعلماء الشيعة قدم السبق فيها أيضا، من قبيل العلوم اللسانية واللغوية التي برز فيها ابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) من خلال مؤلفاته القيمة (اصلاح المنطق) و (كتاب الألفاظ) و (الأضداد) و (المذكر والمؤنث) وغيرها.

وفي الشعر والأدب العربي برز لدينا شعراء كبار من أمثال عبد اللّه بن الوصيف، والشريف الرضي، ومهيار الديلمي، وغيرهم الكثير.

إلى جانب هذا نجد براعة علماء الشيعة في الفلك، والهندسة، والرياضيات، والنجوم، والطب.. متجلية أيضا.

ثامنا: أماكن التعليم:

وأما أماكن التعلم، فمن السابق لأوانه الحديث عن وجود مدارس نظامية وبنايات في هذه الحقبة الزمنية، وإنما شيدت بنايات بعنوان المدارس في عهد السلاجقة وما بعدها كما سوف يأتينا تحقيقه في محله.

فكانت أماكن التعليم في هذه الحقبة تتلخص في:

١ ـ المساجد

إذ نجد في تراجم الكثير من علماء هذه الحقبة أنهم كانوا يدرِّسون تلامذتهم وطلّابهم في مساجد بغداد ومشاهدها المعروفة.

يذكر النجاشي في ترجمة محمد بن إبراهيم النعماني، المعروف بأبي زينب قال: «له كتب، منها: كتاب الغيبة.. رأيت أبا الحسين محمد بن علي الشجاعي الكاتب يقرأ عليه كتاب الغيبة.. بمشهد العتيق»[١].

وذكر النجاشي أيضا في ترجمة الكليني: «.. كنت اتردد إلى المسجد المعروف بمسجد اللؤلؤيّ، وهو مسجد نفطويه النحوي، أقرأ القرآن على صاحب المسجد، وجماعة من أصحابنا يقرأون كتاب الكافي على أبي الحسين أحمد بن أحمد الكوفي الكاتب..»[٢].

وقال الشيخ الطوسي: أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن هارون بن الصّلت الأهوازي سماعا منه بشارع دار الرقيق ببغداد في سلخ شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعمائة[٣].

وهنالك مساجد أُخرى مشهورة في بغداد اتخذ منها علماء أهل البيت مَدْرَسا للتعليم والتربية ومن أهمها مسجد (براثا) «والذي هو من المساجد الذي يتبرك به الشيعة إلى اليوم، لما ثبت عندهم من أن الإمام علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه،

---

(١) النجاشي، الرجال: ٣٨٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣٧٧.

(٣) الطوسي، الأمالي: ٤٩٢.

بعد فراغه من وقعة النهروان ورجوعه عبر دجلة، فصلى بأصحابه.. فاتخذ شيعته مصلاه مسجدا»[1].

وهكذا اتخذ الشيعة المسجد موضعا لتعليم العلوم، ولم تقتصر وظيفة المسجد على العبادة فقط مقتدين بذلك بالرسول الأكرمﷺ الذي كان يعلم في مسجده الشريف.

«ومن الجدير بالذكر ان الشيعة الإمامية ان فقدوا الحرية الكاملة في تعليم علومهم بالمساجد التي للسلطان أو لعلماء السنة نوع من الرقابة عليها، فإنهم تمتعوا بحرية نسبية في تعليم علومهم بمساجد عرفت بالعتبات المقدّسة، كانت خاصة بهم، لأنّ فيها مراقد أئمتهم.. وأهم تلك المساجد.. مرقد الإمام الكاظم، ويسمى حينذاك بالمشهد، ببغداد..»[2].

٢ ـ دور العلماء:

لقد اتخذ بعض العلماء من منازلهم مَدْرَسا؛ فكانوا يلتقون بطلّابهم ويغدقون عليهم من علمهم في تلك المنازل، مقتدين بذلك بالنبيﷺ الذي اتخذ من دار خديجة (رض)، ودار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي مركزا يلتقي فيه بأصحابه ليعلمهم مبادئ الدين الجديد[3].

وقد حفلت كتب التراجم والرجال بنماذج كثيرة لعلماء ومشايخ من اتباع مدرسة

---

(١) الآلوسي ـ محمود شكري، تاريخ مساجد بغداد وآثارها: ٢٠٠ ـ ٢٠١، تحقيق: د. عبد اللّه الجبوري، طبعة بغداد، ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م.

(٢) الفياض: تاريخ التربية عند الإمامية: ٧٨ وأُنظر أيضا معجم البلدان للحموي: ١ / ٢٨٧.

(٣) الفياض، المرجع نفسه: ٨٣.

أهل البيتعليهم السلام كانوا يعلمون في منازلهم، ونموذج ذلك ما ذكره ابن الجوزي في المنتظم في ترجمة محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ) المعروف بالمرزباني، الذي يقول عنه ابن الجوزي: «كانت آفته.. الميل إلى التشيع»! فيقول في ترجمته: «وكان صاحب أخبار ورواية وأدب.. وكان أشياخه يحضرون عنده في داره، فيُسْمِعُهم ويسمَعُ منهم، وكان عنده خمسون ما بين لحاف ودواج، معدة لأهل العلم الذين يبيتون عنده..»[(١)].

ويذكر ابن الجوزي في ترجمة الشيخ المفيد: «محمد بن محمد بن النعمان أبو عبد اللّه المعروف بابن المعلم، شيخ الإمامية وعالمها.. وكان لابن المعلم مجلس نظر بداره بدرب رياح، يحضره كافة العلماء..»[(٢)].

ويقول النجاشي في ترجمة هارون بن موسى التلّعكبري: «.. كنتُ أحضر في داره مع ابنه أبي جعفر، والناسُ يقرأون عليه»[(٣)].

وفي تاريخ بغداد لابن الجوزي وأمالي الشيخ الطوسي نجد نماذج كثيرة لعلماء قد اتخذوا من منازلهم مَدْرَسا ومنبرا للتعلم والرواية، ونقل نماذج من ذلك لا يسعه هذا المختصر.

ويستنتج أحد الباحثين «ان تدريس العلوم في منازل العلماء كان سببه التقية والخوف من رقابة السلطان، إذ «تعرض شيوخ الإمامية ـ ما عدا الفترة البويهية ـ لرقابة مشابهة لتلك التي تعرض لها الأئمة، لذا فقد آثروا الابتعاد ـ خاصة في الأماكن التي تشتد فيها الرقابة ـ عن المساجد العامة ليقوموا بتدريس علومهم دون مضايقة»[(٤)].

---

(١) ابن الجوزي ـ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم: ١٦ / ٣٧٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٥ / ١٥٧.

(٣) النجاشي، الرجال: ٤٣٩.

(٤) الفياض، تاريخ التربية: ٨٧.

٣ ـ مؤسسات علمية تعليمية:

لقد ظهرت بشكل واضح في بغداد بعض المؤسسات العلمية والتي كانت ذات صلة مباشرة بحركة التعليم عند الشيعة الإمامية، وتمثلت في:

١ ـ دور الكتب.

٢ ـ دور العلم.

وقد تأسست هذه الدور في عصر الدولة البويهية من قبل الشيعة الإمامية بعد أن توفرت الظروف الآمنة لهم تحت ظل الحكم البويهي، مما دعاهم إلى أن يتركوا قاعدة التقية، ويعملوا علنا على نشر قواعد مذهبهم[١].

لقد كان لدور الكتب، ودور العلم اسهام كبير في توسعة نطاق التعليم إلى جانب أماكن التعليم الأُخرى، كالمساجد، ودور العلماء.

أولاً: دور الكتب:

وهي «عبارة عن خزانات عامة للكتب يخصص أحد جوانبها لمطالعة الكتب ونسخها. وتكون الدور المذكورة موئلاً للعلماء والباحثين، يتناقشون فيها ويبحثون مختلف المواضيع، وتقوم تلك الدور أحيانا بمهمة تعليمية، لا سيما وأن بعض روادها، يقصدونها من أماكن بعيدة، ويقيمون فيها مدّة طويلة، وان القائمين على تلك الخزانات يسهمون بنفقات أُولئك الرواد»[٢].

وقد تأسست في بغداد مكتبتان عظيمتان:

الأُولى: مكتبة سابور بن أردشير الوزير البويهي، والتي حوت على أكثر من عشر

---

(١) الفياض، تاريخ التربية: ٩٣ ـ ٩٤.

(٢) المرجع نفسه: ٩٥.

آلاف مجلد، وكانت تحتوي على كتب لأصناف العلوم، وتضم مائة مصحف بخطوط بني مقلة، ولم تكن في الدنيا أحسن كتبا منها، كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأُصولها المحررة[1].

وقد تحدث عن هذه المكتبة معظم المؤرخين، كابن الجوزي في المنتظم، وياقوت في المعجم، وابن كثير في تاريخه، والحديث عنها حديث طويل وذو شجون، إذ «بقيت تؤدي دورها في خدمة العلم والثقافة حتى عام (٤٥١ هـ) حيث أُحرقت فيما احرق من محال بغداد على يد السلاجقة»[2].

الثانية: مكتبة الشريف المرتضى: وهي مكتبة كبيرة ببغداد، تحتوي على ثمانين ألف مجلد، «وذكر أبو القاسم التنوخي صاحب الشريف قال: حصرنا كتبه فوجدناها ثمانين ألف مجلد من مصنفاته ومحفوظاته ومفرداته»[3]. ويعقب ابن عنبة بعد أن ينقل خبر عدد كتب الشريف المرتضى فيقول: «ولم أسمع بمثل هذا إلّا ما يحكى عن الصاحب إسماعيل بن عباد..»[4].

لقد كان لهاتين المكتبتين في بغداد، بالاضافة إلى مكتبات أُخرى أنشأها بعض وزراء الدولة البويهية في شيراز ورامهرمز والبصرة..[5] دور كبير في نشر العلوم والمعارف والأدب واللغة...

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ١٤ / ٣٦٦ و ١٥ / ١٧٢.

(٢) الحكيم ـ حسن، مجلة الرابطة: السنة الأُولى، العدد ٤، ١٩٧٤ م، مقال بعنوان المؤسسات الفكرية عند الإمامية ببغداد خلال القرن الخامس الهجري.

(٣) المدني ـ علي خان، الدرجات الرفيعة: ٤٦٣.

(٤) ابن عنبة ـ جمال الدين أحمد بن علي الحَسني، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: ٢٣٥.

(٥) أُنظر الفياض، تاريخ التربية: ٩٧ ـ ٩٨.

ثانيا: دور العلم:

يقول المستشرق الألماني آدم متز: «وقد ظهرت إلى جانب دور الكتب مؤسسات علمية أُخرى تزيد على دور الكتب بالتعليم، أو على الأقل باجراء الأرزاق على من يلازمها»[1].

لقد كانت دور العلم والتي انتشرت في القرن الرابع الهجري تؤدي دور المدرسة؛ إذ كانت بمثابة معاهد للتعليم وتحتوي على مخازن للكتب بالاضافة إلى قاعات للتدريس واقسام داخلية لسكن طلّاب العلم والمعرفة.

ومن أهم دور العلم عند الإمامية في بغداد:

١ ـ دار علم سابور بن أردشير:

وهي التي شيدها وزير الدولة البويهية سابور بن أردشير لأهل بغداد عام (٣٨١ هـ).

يقول ابن الجوزي في المنتظم، وهو يؤرخ لحوادث سنة (٣٨٣ هـ): «وفي هذه السنة ابتاع أبو نصر سابور بن أردشير دارا في الكرخ بين السورين، وعمرها وبيضها وسمّاها: دار العلم..، ونقل إليها كتبا كثيرة وعمل لها فهرستا، ورد النظر في أُمورها ومراعاتها.. إلى الشريفين، أبي الحسين محمد بن الحسين..، وأبي عبد اللّه محمد بن أحمد..»، إلّا أنّ ابن الجوزي يذكر في مكان آخر ان تأسيس هذه الدار كان في سنة احدى وثمانين وثلاثمائة.. وبقيت سبعين سنة وأُحرقت عند مجيء طغرلبك في سنة

---

(١) آدام متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ١ / ٣١١ ترجمة: عبد هادي أبو ريدة، طبعة لجنة التأليف والنشر ـ القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م.

خمسين وأربعمائة..»[1].

والذي يبدو أن دار علم سابور، كانت بمثابة المؤسسة العلمية المتكاملة، «وانها أول مؤسسة شيعية أطلق عليها اسم «دار العلم».. ولم تؤسس دار أُخرى للعلم ببغداد بعد حرقها.. لأنّ فترة حكم السلاجقة تميزت بانشاء المدارس لا دور العلم.. وكانت من الشهرة بمكان، بحيث إذا أطلقت عبارة: «دار العلم ببغداد» انصرفت إليها»[2].

لقد كان لهذه الدار ـ التي أحرقها الحقد الطائفي البغيض ـ اسهام في التعليم والتربية ويؤكد الأُستاذ كوركيس عواد وجود الوظيفة التعليمية لدار علم سابور، فيقول إنّ تلك الدار كانت: «موئلاً للعلماء والباحثين، يترددون إليها للدرس والمناظرة والمباحثة..»[3].

٢ ـ دار علم الشريف الرضي:

أنشأ الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ) دارا اسماها «دار العلم».

يقول صاحب كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: «وكذلك اتخذ الشريف الرضي.. نقيب العلويين، والشاعر المشهور دارا سماها دار العلم، وفتحها لطلبة العلم، وعيّن لهم جميع ما يحتاجون إليه»[4].

والذي يبدو من خلال وصف المؤرخين لهذه الدار أنها كانت بمثابة المؤسسة العلمية التي أقرب ما تكون إلى المدرسة أو الجامعة المتكاملة.

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ١٤ / ٣٦٦ و ١٥ / ١٧٢ و ١٦ / ٦١ ـ ٦٢.

(٢) الفياض، تاريخ التربية: ١٠١ ـ ١٠٢.

(٣) عواد ـ كوركيس، خزان الكتب القديمة في العراق: ١٤١، طبعة بغداد، ١٩٤٨ م.

(٤) متز ـ آدم، الحضارة الإسلامية: ١ / ٣١٢.

ففي عمدة الطالب لابن عنبة: «وكان طلبة العلم الملازمون للشريف الرضي في دار قد اتخذها لهم سماها «دار العلم» وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه» وعندما سمع الشريف الرضي من أحد طلّاب هذه الدار قوله: «احتجت إلى دهن السراج ليلة، ولم يكن الخازن حاضرا، فاقترضت من فلان البقال دهنا..» «فلما سمع الرضي ذلك أمر في الحال بأن يتخذ للخزانة مفاتيح بعدد الطلبة، ويدفع إلى كل منهم مفتاح ليأخذ ما يحتاج إليه ولا ينتظر خازنا يعطيه..»[1].

ولسعة هذه المؤسسة الفكرية أطلق عليها نكلسن اسم «الأكاديمية» على اعتبار أنها مؤسسة تعليمية عالية، يجد الطالب فيها المقام والمأوى والدرس[2].

ويقول الأُستاذ كوركيس عواد: «لم تكن دار علم الشريف الرضي مدرسة فحسب، بل كان يتبعها مخزن فيه جميع ما يحتاجه الطالب من الأُمور المادية، وإلى جانب ذلك خزانة كتب حافلة عرفت بخزانة «دار العلم»، وقد كانت هذه الخزانة في مصاف الخزائن الكبرى ببغداد، منظمة تنظيما حسنا»[3].

وخلاصة الأمر في أماكن التعليم:

أولاً: ان المكتبات ودور العلم التي أُنشئت في هذا العصر كانت بمثابة المؤسسات التعليمية المستقلة عن المسجد؛ بل كانت أصلح للتعلم من المساجد العامة بالنسبة للشيعة.

ثانيا: إنّ هذه المكتبات ودور العلم قد توافرت فيها ميزات المعهد التعليمي، إذ كانت تضم بين القائمين على إدارتها شيخا يقيم فيها، ويتولى التعليم فيها.

---

(١) ابن عنبة، عمدة الطالب: ٢٣٩.

(٢) الحكيم ـ حسن، المؤسسات الفكرية: ١٦ نقلاً عن نكلسن، تاريخ الأدب العباسي: ٩٢.

(٣) عواد ـ كوركيس، خزائن الكتب في العراق: ٢٣١.

ثالثا: وقد امتازت دار علم الشريف الرضي عن غيرها من دور العلم بأنها:

١ ـ كون صاحبها ينفق على الطلبة الملازمين له بنفسه.

٢ ـ وان مؤسسها الرضي وأخوه المرتضى كانا يمارسان تعليم العلوم بنفسيهما.

٣ ـ وان الشريفين كانا أكثر إهتماما بأُمور العلم والتعليم من الحكام الذين أسسوا دورا للعلم.

٤ ـ وان الغاية التي استهدفها الرضي من تأسيس دار العلم كانت تعليمية بحتة، بينما لا تخلو الدور الأُخرى التي أسسها الحكام المذكورون من غايات ذات صلة بأبهة الملك والدعاوة»[1].

تاسعا: تمويل التعليم:

ليس بين أيدينا خطوط تفصيلية وأرقام محددة للميزانية المالية التي كانت تنفق في طريق العلم والتعليم وعلى طلّابه وأساتذته، وكل ما تبينه مصادر البحث مجرد اشارات مقتضبة يمكن أن ترسم لنا بعض الملامح للنظام المالي المحكم في حوزة بغداد العلمية.

لقد اعتمدت الحركة العلمية في حوزة بغداد على المصادر المالية التالية:

أولاً: موارد الأئمة عليهم السلام المالية.

«إذ كان الأئمة عليهم السلام ونوابهم بعد غيبة الإمام المهدي عليه السلام، يتسلمون الحقوق الشرعية من الشيعة الإمامية وأسلافهم وينفقون منها على التعليم. وكان الخمس أهم تلك الحقوق ومما يؤيد ذلك بعض الروايات التي تتحدث عن أن الإمام عليه السلام قد وصل

---

(١) الفياض، تاريخ التربية: ١٠٤ ـ ١٠٥ بتصرف وتلخيص.

فيها طلبة معوزين بمبالغ نقدية، ونجد نماذج تلك الروايات عند الكشي في رجاله[1].

ثانيا: هبات المحسنين من الشيعة:

«وكانت هبات المحسنين من الشيعة، تقوم بقسط من نفقات التعليم وانشاء امكنته وصيانتها..، وقد أسهمت طائفة من أُمراء الشيعة ومحسنيهم من غير البويهيين في تمويل التعليم عند الإمامية»[2].

ثالثا: وجود الأوقاف.

وهي موارد مالية ثابتة كان ينفق منها على التعليم ومؤسساته. ففي رواية الشيخ الطوسي في الغيبة: إنّ أبا جعفر محمد بن علي الأسود قال: «كنت أحمل الأموال التي تحصل في باب الوقف إلى أبي جعفر محمد بن عثمان العمري..».

وفي رواية أنّ العمري: «كان يتولى هذا الأمر ـ أي النيابة عن الإمام ـ نحوا من خمسين سنة يحمل الناس إليه أموالهم..»[3].

بالاضافة إلى الأوقاف الخاصة التي كانت توقف للمؤسسات الثقافية كالمكتبات ودور العلم وقد أشرنا إلى ذلك عند كلامنا عن دور الكتب، ودار العلم التي أسسها سابور بن أردشير: «ووقف عليها الوقوف».

يضاف إلى ذلك جهود الشريفين المرتضى والرضي في تمويل التعليم، من خلال الانفاق على الطلبة، أو من خلال الوقف الذي أوقفه الشريف المرتضى «فكان قد

(١) الفياض، تاريخ التربية: ٥٩، ٢٦٧، وأُنظر رجال الكشي: ٣٣٥، ٣٦٩.

(٢) المرجع نفسه: ٢٦٩ ـ ٢٧١.

(٣) الطوسي، الغيبة: ٣٦٦، ٣٧٠، طبعة مؤسسة المعارف ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١١ هـ

أوقف قرية على كاغد الفقهاء»[1].

وقد كان للشريف المرتضى جهود كريمة وسعي حثيث في تنمية الحركة العلمية والفكرية ببغداد، والحفاظ على استمراريتها، فكان يجري على تلامذته رزقا، فكان للشيخ الطوسي، أيام قراءته عليه اثنا عشر دينارا، وللقاضي ابن البراج (ت ٤٨١ هـ) ثمانية دنانير، في كل شهر[2]. وبالجملة؛ فإن الشريف المرتضى كان «يجري على سائر تلامذته كل بنسبته» بل كان يجري العطاء حتى على الذين يتفرغون لطلب العلم من أهل الذمة أيضا[3].

وينبغي الاشارة إلى أنّ هذه الأوقاف الشيعية في بغداد قد تعرضت إلى الاتلاف والتخريب بعد الحكم البويهي، «ويظهر أن الحملة الرادعة التي تعرض لها الإمامية في عهد السلاجقة تناولت معظم مؤسساتهم الدينية والتعليمية بما فيها أوقاف التعلم، ولم نعد نقرأ بالمصادر عن القرية التي أوقفها المرتضى لكاغد الفقهاء»[4].

رابعا: جهود الدولة البويهية في تمويل التعليم:

لم يقتصر جهود الدولة البويهية على حبس الأوقاف لمؤسسات التعليم فحسب، بل انهم ساعدوا المشتغلين بالعلم والتعليم من الإمامية، ففي عهد عضد الدولة: «أُطلقت الصلات لأهل الشرف والمقيمين بالمدينة وغيرهم من ذوي الفاقة وأُدرَّت لهم الأقوات من البرّ والبحر، وكذلك فعل بالمشهدين بالغري، والحائر ـ على

---

(١) الأفندي، رياض العلماء: ٤ / ٢١، طبعة مكتبة المرعشي النجفي ـ قم، ١٤٠٣هـ والخوانساري، روضات الجنات: ٤ / ٢٩٦.

(٢) الخوانساري، روضات الجنات: ٥ / ٢٩٦.

(٣) أُنظر الأفندي، رياض العلماء: ٤ / ٢٣.

(٤) الفياض، تاريخ التربية: ٢٧٤.

ساكنيهما السلام ـ وبمقابر قريش..»[1].

هذه هي أهم مصادر تمويل التعليم في مدرسة بغداد وحوزتها العلمية وينبغي الاشارة إلى أن تكاليف نفقات التعليم في ذلك الوقت لم تكن باهضة وذلك لعدّة أُمور:

أولاً: كان الكثير من العلماء والدارسين يمتهنون مهنا تدر عليهم معيشتهم، فكان فيهم: الصيرفي، والبزاز، والوراق، والدهان، والسكاك...

ثانيا: كان أغلب معلمي العلوم الشرعية لا يأخذون الأُجرة على التعليم، وكانوا يتعففون عنها من خلال وسائل أُخرى تمكنهم من معيشتهم[2].

ثالثا: وكانت أماكن التعليم غير مستأجرة كالمساجد، ومنازل العلماء[3]، ودور العلم والمكتبات.

عاشرا: النظام التعليمي (وطرق التدريس ومناهجه):

لم يختلف النظام التعليمي وطرق التدريس في حوزة بغداد وجامعتها العلمية عن حوزة الكوفة التي ورثتها، أو الحوزات العلمية التي كانت مقارنة لها كحوزة قم والري.

إلّا أنَّ طرق التدريس وأساليبه قد تختلف باختلاف الشيوخ وكفائتهم العلمية، إلّا أنها كانت طرقا معروفة عند المسلمين، وهي بأُسلوب الحلقات ومجالس الدرس ولم يبتكر علماء الشيعة الإمامية طرقا وأساليب خاصة بهم. ومن أهم هذه الطرق:

أولاً: طريقة السماع والاملاء:

---

(١) مسكويه الرازي ـ أبو علي ت ٤٢١ هـ تجارب الأُمم: ٦ / ٤٥٧، تحقيق وتقديم الدكتور أبو القاسم امامي، طبعة دار سروش ـ طهران، ٢٠٠١ م.

(٢) المرجع نفسه: ٢٦٦، ٢٧٨.

(٣) المرجع نفسه: ٢٦٦.

وهي من الطرق الشائعة أو من أكثرها شيوعا، حيث كان الطلبة يحضرون مجلس الشيخ في أوقات معينة، فيتحلقون حوله، فيحدثهم من حفظه أو من كتاب، أو يملي عليهم الدرس املاءً، وكان الدرس أو المحاضرة يسمى مجلسا أو املاءً. ومن أشهر الأمالي التي وصلتنا من شيوخ الإمامية: أمالي الشيخ الصدوق، وأمالي الشيخ المفيد، وأمالي الشريف المرتضى، وأمالي الشيخ الطوسي.

ثانيا: القراءة على الشيخ أو العرض:

وذلك بأن يقرأ الطالب في كتاب من حفظه، والشيخ يستمع إليه، أو أن يستمع الطالب إلى من يقرأ في حضور الشيخ.

ثالثا: طريقة الاجازة في نقل الحديث وتحمله:

وهي أن يأذن الشيخ للطالب، شفاها أو تحريزا، برواية كتاب معين، اجمالاً أو تفصيلاً[1]. ولهذه الطرق نماذج كثيرة لا يسع المجال لذكرها[2].

وقد توارث علماء مدرسة أهل البيت طرق التدريس هذه، فنجد ابن شهرآشوب المازندراني (ت ٥٨٨ هـ) يتحدث في مقدمة كتابه مناقب (آل أبي طالب) عن دراسته للحديث بالطرق المعروفة لنقله وتحمله، فيقول إنه لم يبدأ بتأليف كتابه المذكور إلّا بعد أن أصبح مؤهلاً لهذا الأمر: «وذلك بعدما أذن لي جماعة من أهل العلم والديانة، بالسماع، والقراءة، والمناولة، والمكاتبة، والاجازة، فصحت لي الرواية عنهم بأن أقول: حدثني، وأخبرني، وانبأني، وسمعت، واعترف لي بأنه سمعه، ورواه كما قرأته، وناولني من طرق خاصة»[3].

---

(١) حسين ـ محمد توفيق، تصدير كتاب تاريخ التربية عند الإمامية: ٣٩.

(٢) أُنظر، الفياض ـ عبد اللّه، تاريخ التربية: ٢٣٥ وما بعدها.

(٣) ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب: ١ / ٦.

المناهج الدراسية:

وأما المناهج الدراسية التعليمية التي كانت تُدرس في تلك الحقبة الزمنية، فليس لدينا مزيد تفصيل عن عناوينها ومسمياتها، وكل الذي نعرفه عنها أنها لم تكن مقسمة تقسيما موضوعيا منهجيا، كالتفسير، أو الحديث، أو الفقه، أو غير ذلك من العلوم الشرعية، وإنما كانت كل هذه العلوم وغيرها متداخلة في مجالس الأمالي، فنجد فيها الحديث، والتفسير، واللغة، وبعض المسائل من علم الكلام.. وغيرها[1].

ومن اشهر المتون الشرعية عند الشيعة الإمامية هي الأُصول الاربعمائة المتوارثة عن الأئمة عليهم السلام والتي ألفها شيوخ موثوقون تلقوها عن الأئمة مباشرة أو بواسطة، والتي كانت تتضمن موضوعات شتى في العلوم الدينية، وإن كان الغالب عليها حديث أهل البيت عليهم السلام.

يقول ابن شهرآشوب في معالم العلماء نقلاً عن الشيخ المفيد: «صنّف الإماميّة من عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى عهد أبي محمد الحسن العسكري صلوات الله عليه أربعمائة كتاب تسمى الأُصول، وهذا معنى قولهم: أصل»[2].

ومن هذه الأُصول انبثقت الكتب الأربعة المعروفة، للمحمدين الثلاثة. فكان لدينا في هذه الحقبة: كتاب الكافي، لمحمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩ هـ)، وكتاب من لا يحضره الفقيه لمحمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ) وكتاب تهذيب الأحكام، وكتاب الاستبصار فيما اختلف من الأخبار لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).

---

(١) أُنظر، أمالي الشيخ المفيد، وأمالي السيّد المرتضى كنموذج.

(٢) ابن شهرآشوب، معالم العلماء: ٢٢، طبعة مؤسسة الثقافة، الطبعة الأُولى، ١٤٢٥ هـ

وخلاصة الأمر، ان كتب مشايخ الشيعة هي التي أصبحت موضع درس لطلبة الشيعة في مختلف العلوم الشرعية[1].

إلّا أنّ هذا لا يعني انغلاق الشيعة على كتبهم فقط، وإنما كانوا يتلقون بعض العلوم وخاصة علوم اللغة والأدب العربي والطب، والرياضيات والهندسة والفلك والنجوم.. على بعض علماء المذاهب الأُخرى، كما نجد ذلك في تراجم علمائنا في هذه الحقبة بشكل واضح.

---

(١) الفياض ـ عبد اللّه، تاريخ التربية: ٢٥٧.

الخاتمة: أدوار مدرسة بغداد وحوزتها العلمية

لقد امتدت مدرسة بغداد وحوزتها العلمية إلى ثلاثة قرون من الزمن، ابتدأت بتأسيس بغداد سنة (١٤٩ هـ) وانتهت بهجرة الشيخ منها سنة (٤٤٨ هـ) إلى النجف الأشرف.

ومن خلال السبر التاريخي لمراحل هذه المدرسة وحركتها العلمية في خط مدرسة أهل البيت عليهم السلام يمكن أن نقسم أدوارها إلى ثلاثة أدوار رئيسية:

الدور الأول: دور التأسيس والتبرعم:

ويبدأ هذا الدور بافتتاح مدينة بغداد سنة (١٤٩ هـ)، وتنتهي بوفاة السفير الرابع علي بن محمد السمري سنة (٣٢٩ هـ). وبدء الغيبة الكبرى. وكانت السمة البارزة لهذا الدور ظهور المدرسة الكلامية من خلال هشام بن الحكم وتلامذته، وآل يقطين، والنوبختيين، بالاضافة إلى ظهور المحدثين الكبار كالصدوقين والكليني.

الدور الثاني: دور التجذر والتوسع:

ويبدأ هذا الدور مع بدايات الغيبة الكبرى وينتهي باستيلاء السلاجقة على بغداد في حدود سنة (٤٤٧ هـ).

وشهد هذا الدور تكامل مدرسة الحديث الذي تمثل بكتابي الشيخ الطوسي كذلك شهد دور التفريع والاستدلال الفقهي والتوسع في مناهج الاجتهاد عند القديمين، العماني والاسكافي، ثم تتوجت بالمدرسة الوسطية التي تزعمها الشيخ المفيد وتلامذته المرتضى والطوسي.

الدور الثالث: دور الأُفول والاضمحلال:

ويبدأ هذا الدور بدخول طغرل بك السجلوقي إلى بغداد سنة (٤٤٧ هـ) فبدأت بدخولهم حملة رادعة لاستئصال كل ما يمت لمدرسة أهل البيت من صلة، فاحرقت المكتبات ودور العلم الشيعية، وهجموا على بيت الشيخ الطوسي وأحرقوا مكتبته وكرسي الكلام..

يقول ابن الجوزي في حوادث سنة تسع وأربعين وأربعمائة: «وفي صفر هذه السنة: كبست دار أبي جعفر الطوسي متكلم الشيعة بالكرخ، وأخذ ما وجد من دفاتره، وكرسي كان يجلس عليه للكلام، وأخرج ذلك إلى الكرخ، وأُضيف إليه ثلاثة مجانيق بيض كان الزوار من أهل الكرخ قديما يحملونها معهم إذا قصدوا زيارة الكوفة، فأحرق الجميع»[1].

مما اضطر الشيخ معها للهجرة إلى مدينة النجف، وبهجرته أَفُلت حوزة بغداد العلمية، وبدأت حوزة النجف الأشرف تكوينها على يد الشيخ الطوسي كما سوف يأتينا.

*** حوزة بغداد بعد هجرة الشيخ الطوسي عنها:**

لم ينتظم أمر الحوزة العلمية في بغداد بعد هجرة الشيخ الطوسي عنها، ولم تعد إلى سابق عهدها، إلّا أنها لم تنتهِ بالكامل، فقد كان لبعض علماء الشيعة حضور علمي في بغداد، وكان لهم دور في التدريس والتأليف وتربية الطلّاب، ولكن بشكل محدود جدا.

لقد شهدت بغداد بعد الشيخ الطوسي حضور السيّد علي بن طاووس الذي هاجر من الحلة ومكث في بغداد حتى وفاته عام (٦٦٤ هـ)، فيقول: «.. ومن جوابي ما

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ١٦ / ١٦.

ذكرته لبعض من حكم بدلالة النجوم على منعي من حركة عزمت عليها بتدبير العالم بكل معلوم، وهي انتقالنا إلى بغداد في سنة اثنتين وخمسين وستمائة»[1].

وخلال فترة مكوثه في بغداد «كان يتمتع بجاه كبير وعلو شأن عند المسؤولين آنذاك، وعرضوا عليه أن يتولى المناصب الحكومية أو يكون رسولاً من قبل الخليفة المستنصر باللّه إلى بعض الملوك والرؤساء، إلّا أنه كان يرفض ذلك..»[2].

إلّا أنه في سنة (٦٦١ هـ) وليَ السيّد ابن طاووس نقابة الطالبيين، وبقي فيها إلى أن وافاه الأجل المحتوم سنة (٦٦٤ هـ)[3].

وكان لابن طاووس نشاط علمي ببغداد «ولقد سمع جمع من العلماء على رضي الدين علي بن موسى بن طاووس الحسني (ت ٦٦٤ هـ) كتابه (التشريف بتعريف وقت التكليف) في داره بالمفيدية في دار السلام بغداد نهار الأربعاء رابع عشرين ربيع الآخر سنة (٦٥٨ هـ)»[4].

كذلك نجد علماء آخرين من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام اتخذوا من بيوتهم أماكن للتدريس والبحث «وقد قرأ صفي الدين محمد بن معد الموسوي، على زين الدين أحمد بن محمد بن عبد اللّه في داره بدرب الدواب بنهر المعلى في شرق بغداد نهار الخميس ثامن صفر (٦١٦ هـ)»[5].

ويذكر الأربلي بهاء الدين علي بن عيسى صاحب كتاب «كشف الغمة في فضائل

---

(١) ابن طاووس ـ علي بن جعفر، فرج المهموم: ١٤٧.

(٢) مقدمة كتاب كشف المحجة لابن طاووس: ٢٣.

(٣) القمي ـ عباس، الكنى والألقاب: ١ / ٣٩٣.

(٤) الطهراني ـ آغا بزرك، الأنوار الساطعة في المائة السابعة: ٣ / ٥٠.

(٥) المرجع نفسه: ٣ / ٩.

الأئمة» قراءته لكتاب «المستغيثين بالله عند المهمات والحاجات» على الشيخ رشيد الدين محمد بن أبي القاسم بداره المطلة على دجلة ببغداد سنة (٦٨٦ هـ)[١].

وجاء في كتاب الحوادث الجامعة المنسوب لابن الفوطي، حوادث سنة (٦٦٢ هـ) «فيها وصل نصير الدين محمد الطوسي إلى بغداد لتصفح الأحوال والنّظر في أمر الوقوف..» وفي موضع آخر يقول: «وأما الخواجة نصير الدين الطوسي فإنه أقام ببغداد وتصفح أحوال الوقف وأدرَّ أخباز الفقهاء والمدرسين والصُّوفية وأطلق المشاهرات، وقرّر القواعد في الوقف وأصلحها بعد اختلالها»[٢].

ويذكر ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب: «إنه رأى عددا كبيرا من الحكماء والعلماء والعظماء من كلّ شريحة، وذلك في مجلس الخواجه الطوسي، وابنه الخواجه أصيل الدين..»[٣].

والذي يبدو من خلال أخبار ابن الفوطي في كتابيه: تلخيص مجمع الآداب، والحوادث الجامعة أن خلقا كثيرا من طلّاب العلم والمعرفة قد لازم نصير الدين الطوسي أثناء زيارته لبغداد حيث قرأ الناس عليه وانتفعوا به، ومنهم عز الدين عبد العزيز (ت ٦٩٦ هـ) الذي لازم نصير الدين الطوسي واشتغل عليه عند قدومه بغداد سنة (٦٧٢ هـ)[٤].

كذلك نقل صدر الدين الجويني صاحب كتاب فرائد السمطين في مناقب الرسول

---

(١) الطهراني ـ آغا بزرك، الأنوار الساطعة في المائة السابعة: ٣ / ١٦٧.

(٢) الحوادث الجامعة المنسوب لابن الفوطي: ٣٨٢، ٤١١ تحقيق بشار عواد وزميله، أُفست، الطبعة الأُولى، ١٤٢٩ هـ.

(٣) رضوي ـ محمد تقي، الخواجه نصير الدين: ١٨٨.

(٤) آل ياسين، الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع: ٢٠٢.

والبتول والمرتضى والسبطين، مجموعة من الأحاديث سمعها من الخواجة نصير الدين الطوسي، وأشار إلى اجازته منه. وكان «صدر الدين لقي المحقق الطوسي مرات كثيرة في بغداد والكوفة سنة (٦٧١ هـ)» و (٦٧٢ هـ)، وسمع منه عددا من الأحاديث وأُجيز من قبله، وروى هذه الأحاديث في كتاب فرائد السمطين»[١].

وهكذا تعاقب بعض العلماء والفضلاء في بغداد، وسكنها ـ وخاصة مدينة الكاظمية منها ـ أُسر علمية كبيرة، يقول الخليلي: «والكاظمين اليوم مدينة عامرة تسكنها أُسر يرجع تاريخها إلى قرون بعيدة وتعتبر من أعمر مدن العتبات المقدّسة، وقد خرّجت الكثير من العلماء والشعراء في مختلف أدوارها التاريخية كما كانت من أهم مقابر المسلمين من حيث قيمة دفنائها من الأعلام والمشاهير..»[٢].

وللمرحوم الدكتور حسين علي محفوظ دراسة موسعة حول البيوتات العلمية والأدبية التي استوطنت الكاظمية[٣]، وترجم للمشاهير منهم باختصار، منهم أُسر السادات الحسنيين، والحسينيين، كبيت الأعرجي، وشبر، والشهرستاني، وهنالك الأُسر الموسوية وهم كثرة منهم آل الصدر، وشرف الدين، وآل نصر اللّه.

ومنهم البيوتات والأُسر العلمية مثل بيت الورد، والأزري، وأسد اللّه، والإصفهاني، والأعرج، والبلاغي، والجزائري، (آل المظفر)، وآل ياسين كذلك بيت الحيدري والسادة الحيدرية.. وبيت الخالصي.. وهم أُسرة الشيخ محمد مهدي الخالصي

---

(١) رضوي ـ محمد تقي مدرّس، الخواجه نصير الدين: ٢٠٨. تعريب: علي هاشم الأسدي، طبعة الآستانة الرضوية ـ مشهد، الطبعة الأُولى، ١٤١٩ هـ.

(٢) الخليلي ـ جعفر، موسوعة العتبات المقدّسة، المجلد العاشر، الجزء الثالث من قسم الكاظمية: ص ٥٤.

(٣) المرجع نفسه، المجلد العاشر، الجزء الثالث من قسم الكاظمية: ٦٣ وما بعدها.

(ت ١٣٤٣ هـ) من أعلام عصره في الرياسة والعلم والتأليف؛ بالاضافة إلى بيت آل الصدر، ومنهم السيّد الزعيم الكبير المقدم السيّد محمد الصدر (ت ١٣٧٥ هـ).

وتعتبر هذه الدراسة من أوسع الدراسات التي كُتبت عن الأُسر العلمية والأدبية في الكاظمية، كما أن كتاب موسوعة العتبات المقدسة قسم الكاظمين في أجزائه الثلاثة، من أغنى وأنفع الكتب في موضوعه.

وهكذا استمرت بغداد وبجوارها الكاظمين في عطائها العلمي عبر القرون، إلّا أنّ مركز الحوزة العلمية قد انتقل إلى النجف ثمّ إلى الحلة في منتصف القرن الخامس الهجري.

مصادر ومراجع الكتاب

القرآن الكريم، كتاب اللّه تبارك وتعالى.

نهج البلاغة، للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ترتيب وفهرست د. صبحي الصالح، طبعة دار الهجرة ـ قم، الطبعة (بلا ـ ت).

(حرف الألف)

الاشتياني ـ عباس اقبال

١ ـ آل نوبخت، تعريب علي هاشم، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد، الطبعة الأُولى، ١٤٢٥ هـ

الالوسي ـ محمود شكري (ت ١٣٤٢ هـ)

٢ ـ تاريخ مساجد بغداد وآثارها، تحقيق: عبد اللّه الجبوري، طبعة بغداد، ٢٠٠٦ م.

آل ياسين ـ محمد حسن

٣ ـ مقال: البويهيون في العراق، ضمن أبحاث دائرة المعارف الإسلامية الشيعية للسيد حسن الأمين ـ بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م).

آل ياسين ـ محمد مفيد

٤ ـ الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري

متابعات تاريخية فكرية لحركة الفكر في الحلة، طبعة المكتبة العصرية ـ بغداد، الطبعة الأُولى، (١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م).

ابن إدريس ـ محمد بن منصور بن أحمد بن إدريس الحلي(ت ٥٩٨ هـ)

٥ ـ كتاب السرائر الحاوي، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ

ابن الأثير ـ عز الدين أبي الحسن علي بن محمد أبي الكرم الجزري (ت ٦٣٠ هـ)

٦ ـ الكامل في التاريخ، تحقيق: علي شيري، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٩ م).

ابن تغري بردي الأتاباكي ـ جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ)

٧ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم وتعليق: محمد حسين شمس الدين، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٢ هـ

ابن تيمية ـ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت ٧٢٨ هـ)

٨ ـ منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، طبعة مؤسسة قرطبة، الطبعة الأُولى، (١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م).

ابن الجوزي ـ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)

٩ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا وزميله، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م).

ابن حجر العسقلاني، أبي الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ)

١٠ ـ لسان الميزان، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م).

ابن شهر آشوب ـ رشيد الدين أبو جعفر محمد بن علي المازندراني (ت ٥٨٨ هـ)

١١ ـ معالم العلماء في فهرست كتب الشيعة، طبعة مؤسسة نشر الفقاهة ـ قم، ١٤٢٥ هـ

١٢ ـ مناقب آل أبي طالب، طبعة المطبعة العلمية ـ قم، أُفست طبعة النجف الأشرف.

ابن طاووس ـ رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد (ت ٦٦٤ هـ)

١٣ ـ فرج المهموم في تاريخ علماء النُّجوم، أُفست منشورات الرضي ـ قم، ١٣٦٣ ش.

١٤ ـ كشف المحجة لثمرة المهجة، تقديم: آقا بزرك الطهراني، طبعة المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف، (١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥٠ م).

ابن عبد ربه ـ أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٧ هـ)

١٥ ـ كتاب العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وزميله، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت، (١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م).

ابن عساكر ـ أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٥٧١ هـ)

١٦ ـ تاريخ دمشق الكبير، الشهير بتاريخ ابن عساكر، تحقيق: علي عاشور الجنوبي، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م).

ابن عِنبَة ـ أحمد بن عليّ جمال الدين الحسيني (ت ٨٢٨ هـ)

١٧ ـ عُمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، طبعة المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف، ١٣٨٠ هـ.

ابن الفوطي ـ كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد الشيباني المعروف بابنالفوطي (٦٤٢ هـ)

١٨ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة (المنسوب لابن الفوطي)، حققه: الدكتور بشار عواد معروف وزميله، طبعة أُفست المكتبة الحيدرية ـ قم، ١٤٢٦ هـ.

ابن قتيبة ـ عبد اللّه بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ)

١٩ ـ عيون الأخبار، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، أُفست منشورات الرضي ـ قم، (١٣٤٨ هـ ـ ١٩٢٠ م).

ابن كثير ـ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)

٢٠ ـ البداية والنهاية، طبعة مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت، (١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م).

ابن النديم ـ محمد بن إسحاق النديم أو ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ)

٢١ ـ الفهرست، طبعة دار المعرفة ـ بيروت لبنان، (١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م)، وطبعة بتحقيق: رضا تجدد، طهران، ١٩٧١ م.

أبو زهرة ـ محمد أحمد (ت ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م)

٢٢ ـ الشافعي، حياته وعصره، طبعة دار الفكر العربي ـ القاهرة، البعة الأُولى، (بلا ـ ت).

أسد حيدر

٢٣ ـ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٠ هـ ـ ١٩٦٩ م).

الأشعري ـ سعد بن عبد اللّه أبي خلف القمي (ت ٣٠٠ هـ)

٢٤ ـ المقالات والفرق، تحقيق: محمد جواد مشكور، طبعة إيران، مركز انتشارات علمي فرهنكي، (بلا ـ ت).

أفندي ـ الميرزا عبد اللّه أفندي الإصفهاني (من أعلام القرن الثاني عشر)

٢٥ ـ رياض العلماء وحياض الفضلاء، تحقيق: أحمد الحسيني، طبعة مكتبة المرعشي ـ قم، ١٤٠٣ هـ

أمير علي

٢٦ ـ مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف البعلبكي، طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩٠ م.

أمين ـ أحمد الدكتور (ت ١٣٧٣ هـ)

٢٧ ـ ضحى الإسلام، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت، لبنان، الطبعة العاشرة، (بلا ـ ت).

الأمين ـ حسن (الدكتور)

٢٨ ـ دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، طبعة دار التعارف ـ بيروت، الطبعة السادسة، (١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م).

الأمين ـ محسن بن عبد الكريم بن علي بن محمد الأمين الحسيني العاملي الدمشقي (ت ١٣٧١ هـ)

٢٩ ـ أعيان الشيعة، حققه: السيّد حسن الأمين، طبعة دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م) في خمسة عشر مجلدا والطبعة الرابعة في عشرة مجلدات.

(حرف الباء)

بحر العلوم ـ محمد مهدي بن مرتضى بن السيّد محمد (ت ١٢١٢ هـ)

٣٠ ـ الرجال، الشهير بالفوائد الرجالية أو رجال السيّد بحر العلوم، بتحقيق وتقديم: محمد صادق بحر العلوم، والسيّد حسين بحر العلوم، طبعة أُفست مكتبة العلمين في النجف الأشرف.

البكري ـ عبد اللّه بن عبد العزيز الأندلسي (٤٨٧ هـ)

٣١ ـ معجم ما اسْتعجم، تحقيق: مصطفى السقا، طبعة مكتبة الخانجي ـ القاهرة، الطبعة الثالثة، (١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م).

(حرف التاء)

التستري الكاظمي ـ أسد اللّه (ت ١٢٣٤ هـ)

٣٢ ـ كشف القناع عن وجوه حجية الاجماع، طبعة حجرية ـ إيران، أُفست مؤسسة آل البيت ـ قم، ١٣١٦ هـ.

٣٣ ـ مقابس الأنوار ونفائس الأسرار في أحكام النبي المختار وعترته الأطهار، طبعة حجرية.

التستري ـ محمد تقي بن كاظم التستري (ت ١٣٢٠ هـ)

٣٤ ـ قاموس الرِّجال في تحقيق رواة الشيعة ومحدثيهم، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤١٠ هـ.

(حرف الجيم)

الجعفري ـ محمد رضا

٣٥ ـ الكلام عند الإمامية، مجلة تراثنا الصادرة عن مؤسسة آل البيت لاحياء التراث ـ قم، العدد المزدوج: ٣٠ ـ ٣١، ص ١٨٨.

الجلالي ـ محمد رضا الحسيني

٣٦ ـ مقدمة كتاب الإمامة والتبصرة من الحيرة للفقيه المحدث أبي الحسن علي بن الحسين بن بابويه القمي والد الشيخ الصدوق.

جواد علي (الدكتور) (ت ١٤٠٨ هـ)

٣٧ ـ المهدي المنتظر عند الشيعة، طبعة مكتبة الجمل ـ ألمانيا، الطبعة الأُولى، ٢٠٠٥ م.

الجواهري ـ محمد

٣٨ ـ المفيد من معجم رجال الحديث (للسيد الخوئي)، طبعة مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت لبنان، الطبعة الأُولى، (١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م).

(حرف الحاء)

حسين أمين

٣٩ ـ الحياة الثقافية في العصر البويهي، (بلا ـ ت).

حسين ـ محمد توفيق

٤٠ ـ تقديم لكتاب تاريخ التربية عند الإمامية للفياض، طبعة الدار المتحدة للنشر ـ بيروت، ١٩٨٣ م.

الحكيم ـ حسن عيسى (الدكتور)

٤١ ـ الكوفة، طبعة دار العارف ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م).

٤٢ ـ المؤسسات الفكرية عند الإمامية ببغداد خلال القرن الخامس الهجري، مجلة الرابطة لسنة الأُولى، العدد ٤، ١٩٧٤ م.

الحلي ـ تقي الدين الحسن بن علي ابن داود (ت بعد سنة ٧٠٧ هـ)

٤٣ ـ كتاب الرجال، حققه وقدّم له السيّد محمد صادق آل بحر العلوم.

الحلي ـ أبو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الشهير بالعلّامة الحلّي (ت ٧٢٦ هـ)

٤٤ ـ أنوار الملكوت في شرح الياقوت، تحقيق: محمد نجفي، طبعة الرضي ـ قم، الطبعة الثانية، ١٣٦٣ ش.

٤٥ ـ خلاصة الأقوال في معرفة الرجال، تحقيق وطباعة نشر الفقاهة ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ.

٤٦ ـ مختلف الشيعة، طبعة مركز الأبحاث والدراسات ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤٢٣ هـ.

الحلي ـ نجم الدين أبي القاسم جعفر بن الحسن الهُذلي المحقق الحلي (ت ٦٧٦ هـ)

٤٧ ـ المعتبر في شرح المختصر، تحقيق: عدّة من الأفاضل، طبعة مؤسسة سيد الشهداء ـ قم، (بلا ـ ت).

الحموي ـ شهاب الدين أبي عبد اللّه ياقوت (ت ٦٢٦ هـ)

٤٨ ـ معجم البلدان، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، (بلا ـ ت).

(حرف الخاء)

الخرسان ـ حسن الموسوي

٤٩ ـ مقدمة كتاب من لا يحضره الفقيه للصدوق، طبعة دار الكتب الإسلامية ـ طهران، الطبعة الخامسة، ١٣٩٠ هـ.

الخضري بيك ـ محمد (ت ١٩٢٧ م)

٥٠ ـ تاريخ الأُمم الإسلامية، الدولة العباسية، طبعة المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر، ١٩٧٠ م.

الخطيب البغدادي ـ أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ)

٥١ ـ تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م).

الخليلي ـ جعفر

٥٢ ـ موسوعة العتبات المقدّسة، طبعة مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م).

الخوئي ـ السيّد أبو القاسم بن علي أكبر الخوئي (١٤١٣ هـ)

٥٣ ـ معجم رجال الحديث وتفصيل الرواة، نشر الفقاهة ـ قم، الطبعة الخامسة، (١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م).

الخوانساري ـ محمد باقر (١٣١٣ هـ)

٥٤ ـ روضات الجنات في تراجم العلماء والسادات، طبعة مكتبة اسماعيليان ـ قم، ١٣٩٠ هـ

(حرف الذال)

الذهبي ـ شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ)

٥٥ ـ سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الارناؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة، (١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م).

(حرف الراء)

الراوي ـ طه

٥٦ ـ بغداد مدينة السلام، طبعة دار المدى ـ بغداد، ٢٠٠٤ م.

رضوي ـ محمد تقي مدرس

٥٧ ـ الخواجة نصير الدين الطوسي، تعريب علي هاشم الأسدي، طبعة الآستانه الرضوية ـ مشهد، الطبعة الأُولى، ١٤١٩ هـ.

(حرف الزاي)

الزركلي ـ خير الدين (ت ١٣٩٦ هـ)

٥٨ ـ الأعلام، طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الرابعة عشرة، ١٩٩٩ م.

(حرف السين)

السبحاني ـ جعفر

٥٩ ـ معجم طبقات المتكلمين، طبعة مؤسسة الإمام الصادق ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٤ هـ.

٦٠ ـ مقدمة كتاب المهذب للفقيه الأقدم عبد العزيز بن البراج الطرابلسي (ت ٤٨١ هـ)، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، ١٤٠٦ هـ.

٦١ ـ موسوعة طبقات الفقهاء، طبعة دار الأضواء ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م).

السعيدي ـ علاء

٦٢ ـ الشيخ ابن الجنيد، طبعة مركز ابن ادريس ـ بيروت، ٢٠٠٨ م.

سلّار ـ حمزة بن عبد العزيز الديلمي (ت ٤٦٣ هـ)

٦٣ ـ المراسم في الفقه الإمامي، تحقيق: د. محمود البستاني، طبعة أُفست الحرمين ـ قم، الطبعة الأُولى، (١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م).

(حرف الشين)

الشهرستاني ـ جواد

٦٤ ـ مقدمة جامع المقاصد، طبعة مؤسسة آل البيت ـ قم، الطبعة الأُولى.

الشهرستاني ـ هبة الدين (ت ١٣٨٦ هـ)

٦٥ ـ مقدمة كتاب فرق الشيعة للنوبختي، طبعة الحيدرية، (١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦ م).

(حرف الصاد)

الصدر ـ حسن (ت ١٣٥٤ هـ)

٦٦ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، طبعة انتشارات اعلمي ـ طهران، (بلا ـ ت).

الصدر ـ محمد محمد صادق

٦٧ ـ تاريخ الغيبة الصغرى، منشورات مكتبة الإمام أمير المؤمنين ـ إصفهان ـ إيران، (بلا ـ ت).

الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ)

٦٨ ـ اكمال الدين وتمام النعمة عُني بتصحيحه وتحقيقه: علي أكبر الغفاري، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الخامسة، ١٤٢٩ هـ

٦٩ ـ معاني الأخبار، عنى بتصحيحه: علي أكبر الغفاري، طبعة دار المعرفة ـ بيروت، (١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م).

الصفدي ـ صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفدي (ت ٧٦٤ هـ)

٧٠ ـ الوافي بالوفيات، طبعة دار النشر فرانز شتانيز ـ قيسبادان، (١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م).

الصولي ـ محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ)

٧١ ـ كتاب الأوراق، أخبار الراضي بالله والمتقي لله، أو تاريخ الدولة العباسية من سنة (٣٢٢ هـ) إلى سنة (٣٣٣ هـ) عنى بنشره ج. هيورث، طبعة دار السيرة ـ بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م).

(حرف الطاء)

الطبرسي أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (من علماء القرن السادس)

٧٢ ـ الاحتجاج، تحقيق: إبراهيم البهادري وزميله، طبعة دار الأُسوة ـ إيران، الطبعة الخامسة، ١٤١٤ هـ.

الطبري ـ أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم (من علماء الإمامية في القرن الرابع)

٧٣ ـ التاريخ، المعروف بتاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

الطوسي ـ أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (ت ٤٦٠ هـ)

٧٤ ـ الخلاف، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي ـ جامعة المدرسين ـ قم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢ هـ.

٧٥ ـ الغيبة، تحقيق: عبد الله الطهراني وزميله، طبعة مؤسسة المعارف ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١١ هـ.

٧٦ ـ فهرست كتب الشيعة وأُصولهم، تحقيق وتقديم: عبد العزيز الطباطبائي، طبعة مؤسسة آل البيت ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٠ هـ.

٧٧ ـ الرجال، تحقيق: جواد القيومي، طبعة جامعة المدرسين ـ قم، ١٤٢٠ هـ.

٧٨ ـ الرسائل العشر، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ.

٧٩ ـ المبسوط في فقه الإمامية، طبعة المكتبة الرضوية ـ طهران، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧ هـ

الطهراني آقا بزرك ـ محسن، (ت ١٣٨٩ هـ)

٨٠ ـ الذريعة إلى تصانيف الشيعة، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م).

٨١ ـ طبقات أعلام الشيعة، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م).

٨٢ ـ مقدمة تفسير التبيان للشيخ الطوسي محمد بن الحسن.

(حرف العين)

العاملي ـ محمد بن الحسن بن علي الشهير بـ (الحر العاملي) (ت ١١٠٤ هـ)

٨٣ ـ تفصيل وسائل الشيعة، طبعة مؤسسة آل البيت، الطبعة الأُولى، ١٤١٢ هـ

العاملي ـ محمد جمال الدين مكي الشهيد الأول (٧٨٦ هـ)

٨٤ ـ ذكرى الشيعة إلى أحكام الشريعة، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت لاحياء التراث ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٩ هـ

عواد ـ كوركيس

٨٥ ـ خزان الكتب القديمة في العراق، طبعة بغداد، ١٩٤٨ م.

(حرف الفاء)

الفضلي ـ عبد الهادي

٨٦ ـ تاريخ التشريع الإسلامي، طبعة مؤسسة دار الكتاب الإسلامي ـ قم، الطبعة الأُولى، (١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م).

الفياض ـ عبد الله (الدكتور)

٨٧ ـ تاريخ الإمامية واسلافهم من الشيعة، قدّم له: السيّد محمد باقر الصدر، طبعة مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م).

الفيض الكاشاني ـ محمد محسن (١٠٩١ هـ)

٨٨ ـ كتاب الوافي، من منشورات مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي‌عليه‌السلام ـ إصفهان، الطبعة الأُولى، ١٤١٤ هـ.

القزويني ـ جودت (الدكتور)

٨٩ ـ تاريخ المؤسسة الدينية الشيعية من العصر البويهي إلى نهاية العصر الصفوي، طبعة دار الرافدين ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦ هـ.

القزويني ـ علاء الدين السيّد أمير محمد

٩٠ ـ الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، طبعة مكتبة الفقيه ـ الكويت، ١٩٨٦ م.

القمي ـ عباس بن محمد رضا بن أبي القاسم (١٣٥٩ هـ)

٩١ ـ الكنى والألقاب، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤٢٩ هـ.

(حرف الكاف)

الكاظمي ـ محمد مهدي

٩٢ ـ أحسن الوديعة في تراجم أشهر مجتهدي الشيعة، طبعة دار الهادي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م).

الكركي ـ نور الدين أبو الحسن علي بن الحسين بن عبد العالي العاملي الكركي (ت ٩٤٠ هـ)

٩٣ ـ جامع المقاصد في شرح القواعد، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ

الكشي ـ أبو عمرو محمد بن عمرو بن محمد بن عبد العزيز (ت نحو ٣٤٠ هـ)

٩٤ ـ اختيار معرفة الرجال المعروف بـ (رجال الكشي) أو (معرفة الناقلين)، تلخيص وتهذيب: محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، تحقيق: حسن مصطفوي، طبعة دانشكاه مشهد، (١٣٤٨ ش).

الكليني ـ أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي (ت ٣٢٨ هـ)

٩٥ ـ الأُصول من الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، طبعة دار الأضواء ـ بيروت، (١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م).

گرجي ـ أبو القاسم (الدكتور)

٩٦ ـ تاريخ فقه و فقهاء (بالفارسية)، طبعة سازمان مطالعه و تدوين كتب علوم انسانى ـ طهران، ١٣٧٧ هـ

(حرف الميم)

ماسينيون المسيو لويس (المستشرق)

٩٧ ـ آلام الحلّاج، ترجمة: حسين مصطفى، طبعة شركة قدس ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ٢٠٠٤ م.

المامقاني ـ عبد الله (ت ١٣٥١ هـ)

٩٨ ـ تنقيح المقال، تحقيق واستدراك: محي الدين المامقاني، طبعة مؤسسة آل البيت ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦ هـ

المجلسي ـ محمد باقر (ت ١١١١ هـ)

٩٩ ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تحقيق ومراجعة وتقديم الشيخ محمود درياب ومجموعة من العلماء، طبعة دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الأُولى، (١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م).

مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام

١٠٠ ـ مجلة فصلية تخصصية تصدرها دائرة معارف فقه اهل البيت عليهم السلام في قم ولبنان.

محفوظ ـ حسين علي (الدكتور)

١٠١ ـ مقدمة كتاب الكافي، طبعة دار الأضواء ـ بيروت.

المدني ـ صدر الدين علي خان المدني الشيرازي الحسيني (ت ١١٢٠ هـ)

١٠٢ ـ الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة، قدم له: السيّد محمد صادق بحر العلوم، طبعة منشورات مكتبة بصيرتي ـ قم، ١٣٩٧ هـ.

المرتضى ـ علم الهدى الشريف علي بن الحسين بن موسى (ت ٤٣٦ هـ)

١٠٣ ـ الشافي في الإمامة، حققه وعلّق عليه: السيّد عبد الزهرة الخطيب، راجعه: السيّد فاضل الميلاني، طبعة مؤسسة الصادق ـ طهران، الطبعة الثانية، ١٤١٠ هـ.

١٠٤ ـ مجموعة رسائل الشريف المرتضى، تقديم: أحمد الحسيني، إعداد: مهدي الرجائي، طبعة دار القرآن ـ قم، ١٤٠٥ هـ.

١٠٥ ـ مسائل الناصريات، تحقيق: مركز البحوث والدراسات العلمية، المجمع العالمي للتقريب، (١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م).

مسكويه ـ أبو علي أحمد بن محمد مسكويه الرازي (ت ٤٢١ هـ)

١٠٦ ـ تجارب الأُمم، تحقيق: أبو القاسم امامي، طبعة دار سروش ـ طهران، ٢٠٠١ م.

مصطفى جواد وأحمد سوسه

١٠٧ ـ دليل خارطة بغداد المفصل.

المظفر ـ محمد حسين

١٠٨ ـ الإمام الصادقعليه السلام، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الرابعة، (بلا ـ ت).

المفيد ـ أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ)

١٠٩ ـ الأمالي، طبعة موسوعة الشيخ المفيد (١٣)، نشر دار المفيد، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ

١١٠ ـ التذكرة في أُصول الفقه، طبعة دار المفيد ـ بيروت، سلسلة مولفات الشيخ المفيد، الطبعة الثانية، (١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م).

١١١ ـ تصحيح اعتقادات الإمامية، سلسلة مؤلفات الشيخ المفيدرحمه الله، طبعة دار المفيد ـ بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م).

١١٢ ـ الفُصول المختارة من العيون والمحاسن، طبعة منشورات الداوري ـ قم، الطبعة الرابعة، ١٣٩٦ هـ

١١٣ ـ المسائل السروية، تحقيق: صائب عبد الحميد، سلسلة مؤلفات الشيخ المفيد، المجلد السابع، طبعة دار المفيد ـ بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م).

مكدومرت ـ مارتن (المستشرق)

١١٤ ـ نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد، تعريب: علي هاشم.

منتجب الدين ـ علي بن بابويه الرازي (من أعلام القرن السادس الهجري)

١١٥ ـ الفهرست، تحقيق وتقديم: الدكتور جلال الدين محدث أرموي، طبعة مكتبة المرعشي ـ قم، ١٣٦٦ ش.

(حرف النون)

النجاشي ـ أحمد بن علي (ت ٤٥٠ هـ)

١١٦ ـ الرجال، تحقيق: السيّد موسى شبيري، طبعة جامعة المدرسين ـ قم، ١٤٠٧ هـ

نعمة ـ عبد اللّه

١١٧ ـ فلاسفة الشيعة، دار الكتاب الإسلامي ـ قم، أُفست على الطبعة الأُولى، ١٩٨٧ م.

النوبختي ـ أبي محمد الحسن بن موسى (من أعلام القرن الثالث للهجرة)

١١٨ ـ فرق الشيعة، صححه وعلّق عليه: محمد صادق آل بحر العلوم، طبعة الحيدرية، (١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م).

النوري ـ ميرزا حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي، الشهير بالمحدث النوري (ت ١٣٢٠ هـ ـ ١٩٠٢ م)

١١٩ ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الخاتمة، طبعة وتحقيق: مؤسسة آل البيت لاحياء التراث ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٠٧ هـ

(حرف الواو)

واعظ زاده ـ محمد

١٢٠ ـ حياة الإمام البروجردي بحوث ودراسات، إعداد: جلال الدين ميرآقاني، طبعة مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية، الطبعة الأُولى، ١٤٢١ هـ

الفهرست